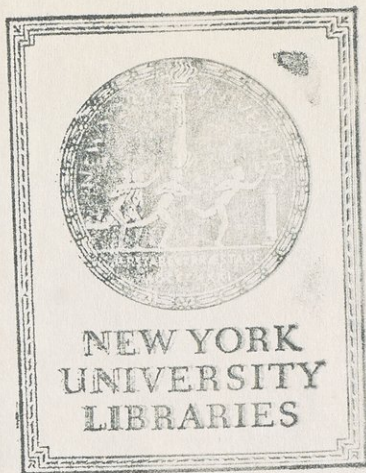




BOBST LIBRARY



3 1142 02771 3869

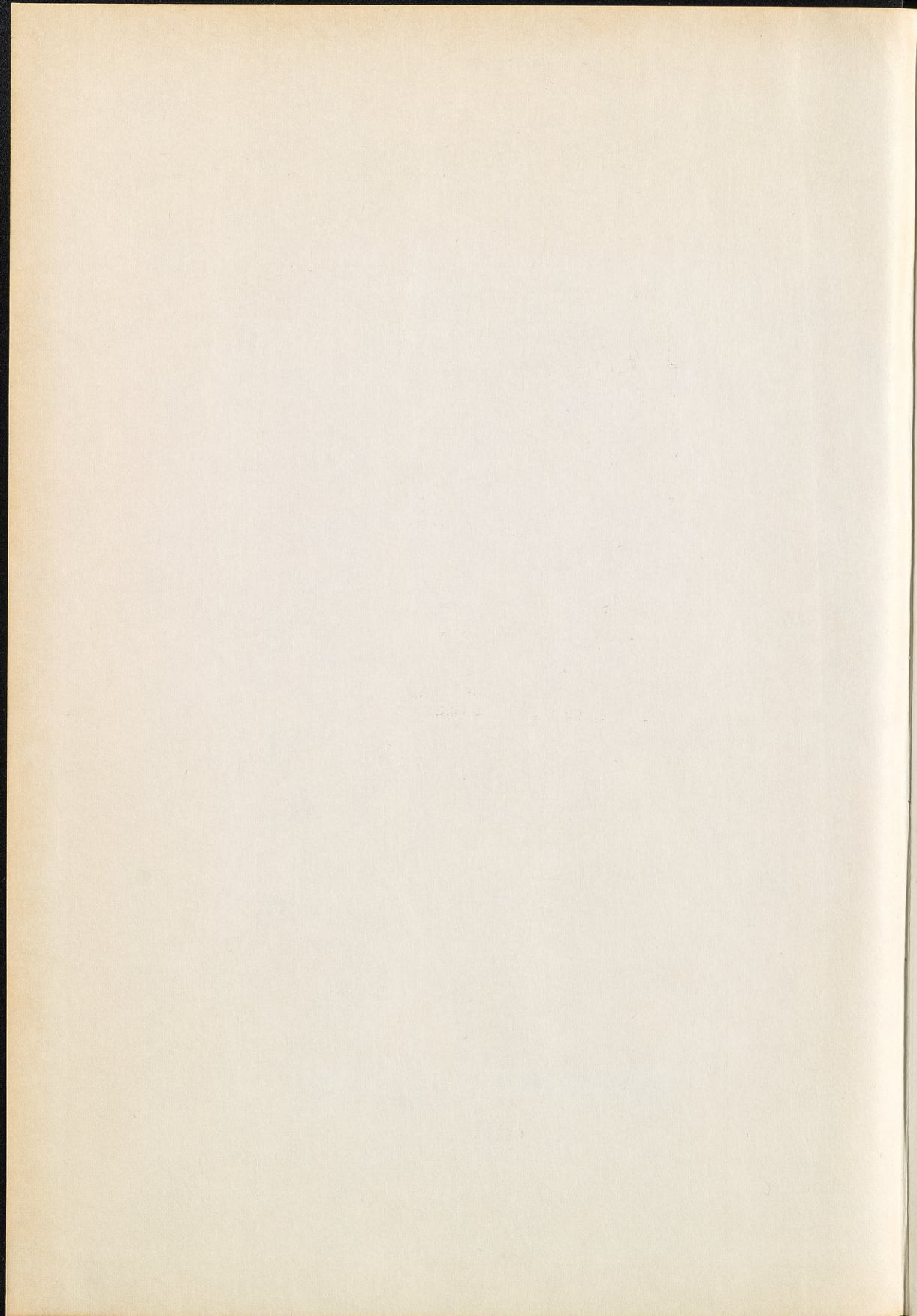


GENERAL UNIVERSITY  
LIBRARY

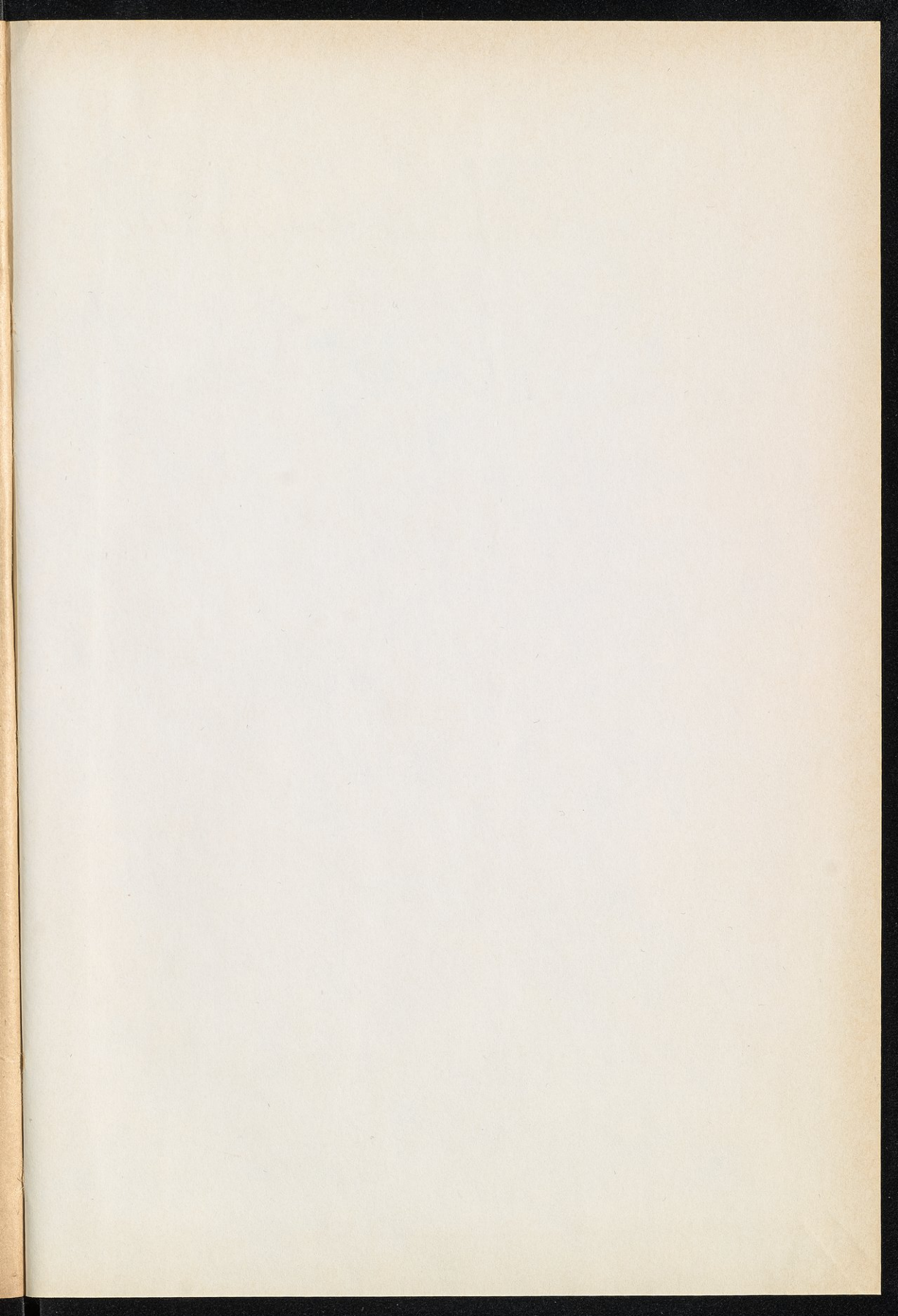
---

---











٢٢١٢

T

محمد عبدالقادر العاوي

al-'Ammāwī, Muhammad 'Abd al-Qādir

2212

/Musta'abal al-Islam/

front

مستقبل الإسلام  
سرسر

5

N.Y.U. LIBRARIES

دار الفكر الحديث للطبع والنشر  
٤٠ شارع صبرات بالناحية

B



Near East

BP

50

.A54

c-1

M. Y. U. LIBRARIES



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مُقَدِّمَةٌ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ  
فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا  
يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ ﴾ صدق الله العظيم .  
بهذه الآية السماوية الكريمة التي نزل بها الوحي الحكيم نبتدىء مقدمة  
كتابنا الثاني في الدراسات الإسلامية ، ونحن نعلم أن كثيراً من ذوى  
البصائر النيرة ، والقلوب الواعية سيستقبلونه مغتبطين منشرحين  
كما استقبلوا أحاً له من قبل ، وأن آخرين من ذوى الأفكار الرجعية ،  
ومن ذوى النزعات الإلحادية ، ومن ذوى السلطات الأوتوقراطية .  
سيستقبلونه بوجوم وغضب وفتنة . . . إلى هؤلاء الآخرين سواء  
من الرجعيين الجامدين ، أو من ذوى النزعات الإلحادية ، أو السلطات  
الأوتوقراطية الذين يتضايقون ويفزعون من كل حركة تجديدية تحمل  
في طياتها الحق ، وتدعو إلى الإصلاح ، وإلى النهوض بالكرامة البشرية  
وإحياء العدالة الاجتماعية . . . إلى هؤلاء الذين يخشون أن يتقلص ظلهم  
على وجه هذه الأرض بإبادة هذا النظام الفاسد الذي يسودون فيه .  
نقول لهم : خير لكم أن ترجعوا إلى الحق . فإن الحق قديم ، والرجوع



إلى الحق خير من التماذى فى الباطل . ثم تتلوا عليهم هذه الآية الكريمة  
(<sup>١</sup> يُرِيدُونَ لِئِيْطَنَفِئُوْا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوَءِهِمْ وَاللّٰهُ مَعَهُمْ نُورُهُ  
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) الكافرون بالحق والعدالة ، والإخاء الإنسانى ،  
الكافرون بالرقى البشرى ، والسمو العقلى والنفسى ، الفاسقون عن أمر  
الله بتمسكهم من الدين بالقشور ، وتركهم اللباب .

إن الدارس المتعمق الذى لا يقف أمام الظواهر ، وإنما يسعى إلى  
ما وراءها يظهر له فى وضوح لا يقبل الشك أن الإنسانية مقبلة على  
عصر جديد سيسود فيه الدين ، وستكيف حياتها على ضوء ما يدعوها  
إليه من مبادئ وغايات ، وإن كانت لن تستعير صورة لما كان عليه  
الدين فى أيامه الأولى . وإنما ستستلهم روح الدين فى كل شىء ، وستسعى  
دائماً إلى الجوهر . دون أن تترك بالوسائل التى كان يصطنعها الدين  
فى أيامه الأولى ، وذلك هو ما يباركه الدين نفسه ويقره بكل قوته لأن  
الدين يحفل بحياة الإنسان الدنيوية الراقية ، ويهدف دائماً إلى الارتفاع به ،  
وإلى النشأ والرقى بغيره ، وإحساساته ومداركه ، وإلى نظافته النفسية  
داخلياً ، وخارجياً .

ومما لا شك فيه ، ومما أصبح واضحاً جليلاً أن الحضارة الغربية المادية  
أفلست فى قيادتها للبشر وظهر إفلاسها فى تدهور وانطلاق سريع نحو  
الانحلال ، وذلك فى النصف الأول من القرن العشرين ، وأنه طرأ  
عليها من عوامل الخلل ، ومن داعى الفساد ، وتزاحم الشرور والآثام ،  
ما ينبئ بكارثة عظيمة لهذا العالم البشرى لو استمرت قيادته فى يد هذه  
الحضارة المتحللة من كل معنى من معانى الروح . المقيمة ستاراً كثيفاً بينها



وبين ما يدعو إليه الدين من مساواة ، وعدل ، وبقظة للضمير ، وإحياء  
للخلق النبيل ، وللمثل العليا الرفيعة للحياة .

ومن المؤكد أن الحضارة الغربية ليست شرّاً كلها ، وإنما يأتيها الشر  
دائماً من تغليب الجانب المادى فيها على الجانب الروحاني ! ولستنا نحن  
من يخاصمون المادة ، أو يقللون من شأنها في حياة العالم وسعادته ورخائه  
لأن ذلك لا يقره الدين الصحيح في شيء ، وإنما يجب أن تتكيف الماديات  
دائماً بتأثير الروحانيات ودواعيها من المحبة ، والإيثار ، والعدل ،  
والخلق الحميد .

والشيء الذي لا يمكن أن نغفله هنا . أننا لو نظرنا إلى ما يخطر  
بضمير العالم الاسلامي الآن لوجدنا أن هناك قوتين عنيفتين متضادتين  
تتنازعا . إحداهما : الدعوة إلى الرجوع في كل شيء إلى الدين بالصيغة  
التي كان عليها في عهده الأول ، والخضوع للوسائل التي اصطنعها  
في معالجة ما كان يطرأ عليه من مشاكل في تكوين مجتمعه الأول ،  
والتقيد حرفياً بنظامه السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، وبما أقامه  
من حدود ، واقتضاه من أفضية . دون نظر إلى التكيف الزمني ، وطبيعة  
الظروف والأشياء وراء كل ذلك . ! ثانيتهما : التحلل من الدين كلية  
في كل ما يخص شؤوننا الدنيوية . لأن دعاة الرجعية والجمود دائماً ، وفي  
كل عصر . هم رجال الدين أنفسهم . الذين يخاصمون كل حركة تجديدية ،  
أو فكرة تطورية . مما يعوق التقدم الفكري ، ويشل النشاط الدنيوي ،  
ولأنهم كانوا السند القوي للسلطات التي قامت تحم باسم الدين . والتي  
منحت لنفسها سلطات أو تقراطية واسعة بغية . مع أن هذا النظام



الأوتقراطي ينفر منه الدين ، ولا يقره في أية صورة من الصور لأنه شر ما ابتليت به الإنسانية قديماً وحديثاً . ويكفي للنفور منه أنه النظام الذي يتولد في ظله الفساد الخلقى ، والنفسى ، ويحمل في طياته عوامل التأخر والانحلال . والانحطاط !

وإذا كان أصحاب النزعة الأولى لم يتعمقوا في فهم الدين ، وهضم رسالته للبشر . وذلك لأن الدين في كل شيء . . . في كل ما دعا إليه من مبادئ ، وما أقامه من نظام ، وفرضه من واجبات ، ونهى عنه من نواهٍ . . . في كل حدوده وتشريعاته . بل حتى فيما أوجبه من أمور تعبدية لا يريد مظاهر أو صوراً متحركة لاروح فيها بقدر ما يريد تحقيق أهدافه المثالية ، وغاياته العليا بأية وسيلة من الوسائل أو سبيل من السبل ، ولذلك نرى الإسلام في كل شيء قدر ربط بين الأمور التعبدية والسلوك الانساني برباط قوى متين ! ومع ذلك فلن يتحقق لأصحاب هذه النزعة ما يريدون لتعارضه مع قانون التطور والارتقاء للإنسان والكائنات جميعاً . ولأنهم بذلك يظلمون الدين لتفسيرهم له بهذا المعنى الضيق المحدود مع ما في الدين من مرونة وقابلية للتطور والتجديد ! ولذلك تبرز لنا العلة من كون القرآن نزل بمجمل ! لأنه ترك بذلك مجالاً للعقل ، واسنة التطور ، والارتقاء للإنسان والكائنات . ثم لما يعترض المسلمون من المشاكل الجديدة التي لم يكن يعرفها المجتمع الاسلامي الأول .

ثم إن هناك شيئاً على جانب كبير من الخطورة غفل عنه هؤلاء الداعون إلى الرجوع إلى الشريعة الاسلامية وهو : فقدان المسلمين المعاصرين امكانيات اجتماعية ، واقتصادية ، ونفسية ، كانت متوفرة للمجتمع الاسلامي



الأول قبل أن تشرع له الحدود والمعاملات ، وعلاقة الفرد بالدولة .  
فن الثابت أن الأحكام في الشريعة الإسلامية لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما  
تدرج التشريع مع مطالب المجتمع . وما كان يطرأ عليه من مشاكل  
ويقتضيه من أفضية . . . ! ومن الروعة المتناهية في أوامر القرآن ونواهيها  
أنه كان يحرص دائماً على أن يكون مجاباً في كل ما يدعو إليه حيث  
لا يتعارض ألبتة مع إمكانيات الناس وطبيعة الظروف والأشياء . فالأحكام  
والتشريعات كلها لم تشرع إلا للمجتمع تكونت له إمكانيات خاصة . . . فعلى  
من يطلبون الرجوع إلى الأخذ بما كان عليه الإسلام في عهده الأول  
أن يبينوا المجتمع الإسلامي الحاضر لذلك أولاً ، وأن يوفرُوا له كل  
الإمكانيات التي كانت متوفرة للمسلمين الأول قبل المطالبة بتنفيذ هذه  
الأحكام والحدود التي تشملها الشريعة . حينئذ نبارك لهم دعوتهم . وينضم  
إليهم بكل قوة فيما يطلبون .

ثم إن أصحاب النزعة الثانية إذا كانوا يتهمون الدين على ضوء ما يرون  
عليه علماء الدين المحترفين ، وعلى ضوء رصيدهم من المعرفة ، وقوة الإدراك  
وما يصدرونه من فتاوى ليست خالصة لوجه الله ، ولا لوجه الدين ،  
أو على ضوء أعمال الحكومات الأوتوقراطية التي حكمت باسم الدين .  
والدين منها براء .

إذا كانوا يتهمون الدين على ضوء كل ما ذكرنا . فهم جدد مخبطون ،  
وهم لم يفموا عن الدين شيئاً . . . إن هؤلاء الرجال المحترفين الدعوة إلى  
الدين . وهذه الحكومات الأوتوقراطية التي قامت باسم الدين قد لونت  
الدين . وما يتفق وأغراضها السياسية . وإن الدارس المنصف للتاريخ



وللحق لا يتوانى لحظة عن أن يقرر في ثقة وقوة ، أن التوفيق الذي لازم  
الإسلام كدين عالمي ، وكأرقى حضارة للبشرية في دعوته إلى المساواة  
المطلقة ، وإلى العدل . والايثار وتقديس الحق . والارتفاع بالكرامة  
البشرية . . هذا التوفيق قد تخلى عنه في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان  
لتفريطه في ركن خطير من الأركان التي قامت عليها الدعوة وهو الركن  
الاجتماعي مما سنسهب في شرحه في الفصل الثاني من الكتاب ! وبتسولي  
الأمويين الحكم وفيه ولدت هذه الفرق الضالة المضلة التي تفرعت عنها  
فيما بعد فرق كثيرة خرجت بالإسلام عن طبيعته السمحة وكانت عوامل  
هدم للإسلام مما سنفرد عنه فصلاً كاملاً في هذا الكتاب .

فعهد الأمويين ، ومن بعدهم العباسيين ، وما ظهر فيهما من أوتقراطية  
في الحكم ، ومن تأويلات لاهوتية للدين السمح ليست كلها من الإسلام  
في شيء . ! فن أراد أن يعرف الإسلام الصحيح فليرجع إلى عهوده  
الثلاثة الأولى فقط وهي عهد النبي وخليفته أبو بكر الصديق ، وعمر  
ابن الخطاب . ولا نستثنى بعد ذلك عهداً من العهود اللهم إلا العهد الذي  
تولى فيه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز مقاليد المسلمين ، وسنوفي  
كل ذلك حقه فيما يلي من فصول هذا الكتاب .

وإذا كان اللبال ، وللتنظيم الاقتصادي أثر خطير جداً في حياة العالم  
لأنه من الأسس القوية في تكيف حياته ، وتوجيهها نحو الخير أو الشر .  
فقد أعطاه الإسلام حظاً كبيراً من عنايته . وجعله دعامة قوية من دعائم  
دعوته ... فلم يقيد الملكية الفردية ولا النشاط المالي المشروع ، وذلك  
حتى لا يحد من النشاط ، والتنافس ، والسعي المتواصل الذي يعود على



الفرد بطريق مباشر ، وعلى المجتمع بطريق غير مباشر . ففوضى بذلك على الكسل والخمول الذي ينتاب الإنسان . إذا ما وجد أمامه قيوداً أو قوانين تحد من نشاطه وحرية ، وسعيه ، وعلى ذلك فقد جعل المال في ذاته وظيفة اجتماعية يسعد بها الفرد في رفع مستواه كما يسعد بها المجموع في توظيف هذا المال في مشاريع حيوية تعود عليه بالنفع ، وتلبي مطالبه الحياتية : فالمال في يد الفرد السفيف المتترف المتلاف العاقل من كل المواهب حرام بنص القرآن الكريم ( ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ) والمجتمع الذي يقر النظام الإقطاعي . والنظام الاحتكاري بعيد عن الإسلام كل البعد . لأنه يخاق نظام الطبقات الذي حاربه الإسلام في غير كل ولا ملل . لأنه يتولد في ظله الفساد فيملك كل شيء ، وفيمن لا يملك شيئاً . فالأول يعيش لاشباع غرائزه البهيمية ، والثاني يبيع عرضه ونفسه ، ويتخلق بأشنع الصفات ، ويتردى في مهاوى الرذيلة بدافع الحاجة . وليوفر مطالبه الحياتية . وسنتحدث عن كل ذلك في فصل ( الإسلام والحضارة الحديثة ) .

بقي أن نقول في ختام هذه المقدمة إن الذي دفعنا على أن نقوم بإخراج هذا الكتاب عن « الإسلام ومستقبله » ولما يمضي على كتابنا الأول في الدراسات الإسلامية عام واحد أننا نحس أكثر من غيرنا أن العالم الإسلامي لا يعرف شيئاً عن الإسلام الصحيح ، وأن علماء الدين المحترفين قد استمروا حياة الكسل والخمول ، وأصبح فهمهم للإسلام تقليدياً محضاً . قد أعمتهم المادة ، وأعماهم الجبن . والحرص على إرضاء السلطان . أن لا يهنون عن منكر متى كان صادراً عن حاكم



يعطى ويمنع ، ويضر وينفع . وبذلك أصبح الاسلام في أى مجتمع إسلامي ذهبت إليه إسماعلي غير مسمى . ! إن حالة أى مجتمع إسلامي الآن في خلقه ، ونفسيته ومداركه ، وما يسوده من ظلم اجتماعي ، ومن حكم أو تقراطي ، ومن جهل وتأخر ، وانحطاط . ليست من صنع الاسلام الصحيح في شيء .. وإنما هي رواهب من عقائد ، وتقاليذ وعادات غريبة عن الاسلام . أضيفت إليه ظلماً وعدواناً ، وأخذها المسلمون على أنها من الدين - لجهل علمائه - مما سنكشف الستار عنه . ونفضحه للعالمين فيما يلي من فصول هذا الكتاب .

إن القلم ليضطرم في يدي مرة أخرى . وأنا أخطب المثقفين من أبناء الأمم الاسلامية ، أو غيرهم من أبناء الأمم الأخرى فأقول لهم : إن في الاسلام أعظم حضارة بشرية ، وأسما إخوان عالمي يعصم قافلة الانسانية مما هي سادرة فيه من ضلال ومن فسوق عن الطريق المستقيم ولسكني أحذرهم من أن يأخذوا الإسلام ، ويعرفوه عن يد رجال الدين المحترفين لعقليتهم التقليدية ، وجمودهم المخيف ، وكسلهم وخم-ودهم القاتل . ! أو عن يد هذه الفرق التي تمتسب إلى الاسلام مثل الشيعة ، والمعتزلة ، والزيدية ، والاسماعيلية ، والصوفية ، الخ مما كانت في الواقع عوامل هدم في جسم الاسلام القوى النابض بالحياة . وإنما عليهم أن يفهموه في الكتاب المقدس وفي السنة النبوية الصحيحة التي يتفق روحها ، وروح القرآن الكريم . ! ثم في دراسة عهد النبي عليه السلام ، وعهد خليفته الصديق وعمر . وسيظهر لهم ما في الاسلام من منابع قوة ، ومن عناصر ثروة حضارية ! العالم في أشد الحاجة إليها الآن بعد تخبطه ، وظلوعه عن الهدى ، وعن الرشاد .



إن القارة الأوربية التي غزت الشرق . وتحكمت في مقدراته ومجريات حياته ، وسيطرت عليه سيطرة تامة بمنطق الاستعمار في حالة انهيار تام ظهرت بوادره في أول هذا القرن . ولكنها بعد الحرب الأخيرة فقدت آخر حصن من المقاومة بعد غزو أمريكا لبلادها اقتصادياً ، وأخلاقياً ، ونفسياً . فأصبحت هي المسيطرة على توجيهها . المكيفة لها حياتها المؤثرة في مستقبلها بهذا الإله الجديد الذي يسمونه « الدولار » . . . ! . ومن لا يقفون أمام الظواهر ، وبريقها الخداع . يدركون من غير شك مدى الهاوية التي تخطو إليها أوروبا بخطوات واسعة . وذلك لما أصبح يسيطر على حياتها من التحلل المسرف من كل القيم الخلقية ، ومن الجشع المسعور في التكالب على الماديات الحقيرة التي يتبعها حتماً كل الرذائل ، والنقائص البشرية من أثرة واحتيال ، ونصب ، وسرقة . وإن كانت تسمى بأسماء أخرى . . ! ثم من إهدار للكرامة البشرية ، والقيم الانسانية في سبيل لذائد فانية ، وشهوات دنيئة . . . ! هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن الشرق قد استيقظ بعد نومه الطويل ، وقد أصبح عنده من الوعي ، ومن الرصيد المدخر ، ومن التكافؤ القوي لقيادة الانسانية ما سيحول حتماً بين العالم الغربي وبين امتداد نفوذه إلى الشرق وجعله المجال الحيوى لنشاطه الاقتصادي ، والثقافي ، والاجتماعي . . . ولكن لا يظن أحد أننا نغبط الشرق وخصوصاً العالم الاسلامي على ما هو عليه الآن في نظمه الاقتصادية ، والاجتماعية . لأن هذه النظم تصور إلى حد كبير سياسة الغرب الاستعمارية في خلق الطبقات . وفي انحسار الثروة إلى جانب من أبناء الأمة قليل العدد وتلاشيها أو منعها عن جانب آخر كبير ، ثم من محاربة كل أنواع الثقافات . والصناعات التي تجعل الأمة



ذاتية خاصة تمنحها العزة ، والثقة بالنفس ، وتمهتها للتنافس في بلوغ  
مراحل الكمال . ١ فنحن عند ما نتحدث عن الشرق لا نتحدث عن هذه  
المظاهر ، والأشباح الخفيفة التي تتراعى على مسرحه الآن . فإنه في سبيل  
القضاء عليها قضاء لا هوادة فيه ، وإنما نتحدث عما يمكن فيه من انفعالات ،  
وقوى مدخرة ستقضى أولاً على سيادة العالم الغربي وسيطرته في مرحلتها  
الأولى وهو ما بدأت تظهر بوادره الآن . ثم تكون المرحلة الثانية التي  
تترتب نتيجة للمرحلة الأولى ، وهي عزل الغرب عن قيادة البشرية التي  
أفلس فيها كل الإفلاس !..

ويظهر أن التاريخ سيعيد نفسه وسيحقق حكمته ، فيظهر على مسرح  
الحياة مرة أخرى مؤرخاً سنة الطبيعة وسنة الكون في أن القوى لا يظل  
قوياً ، مدى الدهر ، والضعيف لا يستمرىء الضعف إلى أبد الأبدين .

محمد عبد الصار القمراوى



## العقيدة في الإسلام

عندما أمسكت القلم لأكتب هذا البحث عن العقيدة في الإسلام رجعت بي الذّاكرة إلى ما يقرب من عشر سنين مضت . ونحن يومئذ في أول مراحل الشباب . الثائر من كل شيء . المتضايق والمتألم من وضع الشرقيين في حالة من التأخر والانحطاط المتلهس طريقاً لنهوض الشرق وتحلله من حالته هذه المفزعة المؤلمة ، وكنا نستمتع في ذلك الحين إلى درس في علم الأديان المقارن في الجامعة ، وقال الأستاذ المحاضر ما معناه إن الدين اليهودي يشبه بعض الشبه الإسلام ، لا اشتراكه معه في تنظيم المسائل المادية لحياة الإنسان الدنيوية . أما الديانة المسيحية ، فلم تأت إلا لتخاطب الروح فقط ، مخاصمة المادة مقررة انحطاطها ، والاشتمزاز منها . . .

وقت ثائراً وخاطبت الأستاذ بانني لم أستطع أن أهضم هذا الكلام ثم طلبت منه الإجابة على هذا السؤال وهو : ما هي الغاية التي جاءت لتشدها الأديان . وابتسم الأستاذ ولم يشأ أن يغضب . ثم قال لي وما زالت الابتسامة ملء فمه ووجهه جميعاً . أخبرنا أولاً : ماذا تفهم أنت عن هذه الغاية . وأجبت في شيء من الحدة والثورة بأن الأديان جميعها ما دامت منزلة من عند الله لا تنشده إلا لتحقيق سعادة الإنسان في الأرض ، وتوفير كل الوسائل المادية التي بها يقوى ويتمتع بكل حظوظ الحياة ، وإن



تفسير غاية الأديان بغير ذلك ما هو إلا سموم ينثرها المستعمرون وأذنانهم للقضاء على حيوية الشرق وقوته وازدهاره ليظل خانعاً لاستعبادهم وسيطرتهم . ويظهر أن الأستاذ المحاضر رأى أن لاجدوى من المناقشة وأنا في هذه الثورة والحدة ، وخصوصاً وأنه رأى من الطلاب وهم من الشباب الممتلئ قوة وحيوية ميلاً إلى رأيي وتحييده ، فقال . إن بعض علماء الغرب لم يعترفوا أصلاً بنزول الديانة المسيحية . فلا داعي إذاً لحدتك وثورتك ، وخصر صاً فإن علم الأديان المقارن هو الذي يقرر ذلك وكان موعد انتهاء الدرس قد انتهى فانصرفنا جميعاً .

إنى أذكر هذه الحادثة اليوم ، وأنا أكتب عن العقيدة في الإسلام لأقارنها بالعقيدة في اليهودية ، والمسيحية . فأعتقد أنني كنت يومئذ نائراً بحكم سني وبحكم ما كان يحيط بي من ظروف قاسية لحياة الشرقيين عامة والمسلمين خاصة أعمتني عن سبيل البحث العلمي الذي ينشد الحقيقة أياً كانت .

ولسكن مهما يكن من شيء فلا مفر من أن نسجل هنا أن الاستعمار وإن كان يتحمل بعض المسؤولية في ذلك إلا أنه ليس العامل الوحيد الذي كان له أثر في تأخر الشرقيين وانحطاطهم ، وإنما هناك أشياء أخرى على جانب كبير من الخطورة . هي المسؤولية أولاً عما أدى بالشرقيين عامة ، والمسلمين خاصة إلى حالة من الاضمحلال ، والاندحار .! وأولى هذه الأشياء ما أضيف إلى عقائدهم الدينية من بواعث النكوص ، والارتداد ، ومن دواعي الفسوق عن السير في طريق الحياة الصحيح التي جاءت تنشده الأديان جميعاً ، وعلواء مقارنة الأديان يقررون



بالإجماع أن العقائد في الديانات الكتابية قد دخلتها عناصر غريبة عنها من العادات ، والتقاليد ، والأساطير ، ومن الديانات الموضوعية التي اصطنعتها أمم لم تعرف التوحيد الصحيح ، والدارس لكل العقائد الدينية وتطورها يرى أن ديانات الأمم القديمة مثل مصر ، وبابل ، والهند ، والصين ، وفارس تربطها جميعا بعض الصلات ، وتشابه في غير موضع منها بالديانات الكتابية التي ابتدأت باليهودية ، وانتهت بالإسلام ، (فقصة (١) الخليفة في العقائد الاسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليفة في ألواح بابل . وعقيدة (المخلص) المنتظر موجودة في الديانة الفارسية . وموجودة في الديانة الاسرائيلية . وكان البابليون يؤمنون بأن الانسان تمرد على قسمة الموت . وطمح إلى خلود كخلود الأرباب . فبحث عن ثمرة البقاء في السماء . وخدعه إله ماكر عن بغيته فناواه بديلا منها ثمرة تشبهها في ظاهرها ولكن ثمرة الفناء ، وهي ثمرة الحب التي تعطى الفناء في صورة البقاء ، وهذه في جمالها لا في تفصيلها قريبة من المأثورات الاسرائيلية في هذا الموضوع ) .

غير أننا نعترف هنا رغم وجود هذا التشابه أن الديانات الكتابية جاءت مصححة ومقومة لما قبلها من ديانات في كثير من المعائل ، وفي كثير من المبادئ إلا أن وجود هذا التشابه فتح ثغرة دخلت منها بعض العناصر الهدامة ، وبعض العناصر الرجعية التي وقفت حجر عثرة أمام تطور هذه الديانات . وجعلت بينها وبين طبيعة التقدم البشري صراعا عنيفا ، وتناحرا مخيفا ، كان تبادل الغلبة فيه أكثر للعناصر الرجعية

(١) كتاب « الله » للعقاد .



الهدامة ، ولم تستطع الإنسانية أن تستنقذ نفسها ، وتحطم من صلابة هذه العناصر الجامدة الرجعية إلا بتحللها من الدين كلية ، وثورتها على رجاله والقائمين عليه . وإن كانت لم تتحلل من العقيدة ، والوعى الكونى لحقيقة الوجود .

ثانى هذه الأشياء طبيعة رجال الدين أنفسهم . هذه الطبيعة التى تتميز بأشياء على جانب كبير من التعصب للقديم أيا كان نصيبه من الفساد .

هذه الطبيعة التى أصبحت كأنها غريزة يتلصقها الباحث فى غير مشقة ولا جهد فيراها ملازمة للكهنة ومحترفى الدعوات الإلهية فى البيانات الوضعية القديمة كما يراها ملازمة للحاخامات والباباوات والمشايخ فى البيانات الكتابية الأخيرة ، وهى ميلهم للعنف والقسوة وحبهم للسيطرة والتغالى فى التزمت ، وحرصهم على بقاء الحال على ما هو عليه ، وقتلهم كل فكرة جديدة لصالح الإنسانية وهى ما زالت فى مهدها ، فجعلوا ضمن رسالتهم تعطيل الملكات البشرية فى الانسان ، وهى التى أودعها الله فيه ليميزه عن باقى المخلوقات ، وهى ملكات الاحساس ، والعقل ، والضمير - الاحساس للشعور بالكرامة البشرية ، والتمتع بالحرية الفردية ، والعقل للانطلاق والتفكير ، والخلق والابتكار ، والضمير لمعرفة الحق والباطل ، والشر والخير ، والخطأ والصواب .. !

وإذا كنا نصم رجال الدين الذين سيطروا على مقدرات البشرية بكل هذه الوصمات المخزية . فهناك غيرهم ممن يشتركون معهم فى الاثم وهم الأباطرة والقياسرة والخلفاء والحكام الذين كانوا يدعون بأنهم يمثلوا الله فى الأرض ، ويحملون الناس على الايمان بذلك بالحديد والنار



وبوسائل غاية في الوحشية والهمجية مما سنجدك عنه بإسهاب في موضعه من هذا الكتاب .

والسؤال الذي يلاحقنا أولاً هو : هل لابد للبشرية من عقيدة دينية تخضع لها وتنفعل بها . وتكيف حياتها على ضوء ما تدعوها إليه من مبادئ وتعاليم ، وقد رأينا أن العقيدة الدينية كانت في فترات كثيرة عاملاً من عوامل التقهقر والرجعية والجمود والفسوق بقافلة الانسانية عن الطريق المستقيم . ؟؟ هل يمكن للانسانية أن تكون مجتمعاً بشرياً لا دينياً يعيش في سلام واطمئنان ، وسعادة ووثام ، ويصطنع حضارة لا دينية تستطيع أن تغذى ما ركب فيه من عواطف واحساسات . وشعور . ليتوفر لها هدوء القلب واطمئنان الفؤاد ، ويقظة الروح . ؟؟ إنني كثيراً ما سألت نفسي هذا السؤال واستنطقت ما حوالى من أمور وأشياء ، وما يحيط بي من كائنات حية أو جامدة ناطقة أو صامتة . هادئة أو مضطربة فكان الجواب الجازم الصارم . أن لابد للانسانية من عقيدة ، ولا بد لها من إله . وإلا أصبحت مشوهة مبتورة يتهددها العدم والانقراض .

إنني عندما أبحث في أصل الانسان الأول وترقيه . وخروجه من حياته الحيوانية الهمجية . أجد أن ذلك كان بسبب اكتشافه للروح ، وإيمانه بالإله حسب ما كان يتصوره خياله القاصر وعقله العاجز . ووعيه المعدم . . . ! إن الطبيعة البشرية يساهم في تكوينها وتغذيتها جزء كبير جداً من الايحاءات القلبية والانفعالات النفسانية الشفافة المرهفة التي تحتاج إلى أن تتغذى وتهضم ، وتؤدى وظيفتها كما تؤدى



كل خلية من خلايا الجسم عملها ، وإلا أصبحت ناقصة شوهاً مبتورة  
يتهددها الفناء والعدم بين لحظة وأخرى ، وهذا الغذاء لا يتأنى إلا عن  
طريق الروح التي خلقت مع وجود الانسان ودرجت داخل نفسه  
تضعف وتقوى فيه حسب ما كان يتنازعه من اضمحلال وارتقاء ، ومن  
اضطراب وهدوء . . ! وإلا من التفكير الميتافيزيقي في حقيقة الكون ،  
وما وراء الطبيعة الذي تأثر به أول ما تأثر في مرحلته البدائية الأولى ،  
وأصبح عنصراً خطيراً في تشكيل نفسه ، ومجرى حياته . . !

وأحب أن أنبه هنا إلى أمر خطير جداً لم يتداركه بعض المؤرخين  
الذين تخصصوا في دراسة الديانات ، وأرخوا ما كان يعتورها من  
ثورات عليها ، وتخلص منها ، ومحاولة لأبادتها . فإن ذلك في الواقع لم يكن  
ضد طبيعة الديانات نفسها ، أو بمعنى آخر . لم يكن ضد العقيدة ذاتها ،  
وإنما كان ذلك في الواقع ضد ما تدعو إليه هذه الديانات من تعاليم  
ومبادئ ونظم تصطبغ بالرجعية ، والجمود ، والانتكاس ، أضيفت إليها  
ظلماً أو استعيرت لها من أمم ومجتمعات قديمة كان يسودها التأخر ،  
والجهل والظلام ، أو انبعثت من القائمين عليها بعد عصورها الأولى  
لعوامل كثيرة أغلبها سياسية ، أو اجتماعية ، أو اقتصادية . . ! فنحن  
عندما نسأل أنفسنا ؟ هل الديانات جاءت للارتقاء بالبشرية . والتقدم  
بها إلى الأمام . أم جاءت لتسكون عاملاً من عوامل تقهقرها ، وفسادها ؟  
يبرز لنا الجواب الذي لا يختلف فيه اثنان : وهو أن الدعوات الالهية  
جميعها لم تأمر إلا بفعل الخير ، والعمل الصالح وكانت في حقيقتها حافزاً  
قوياً لخروج الانسان من منطقة اللاإدراك إلى منطقة الإدراك ، وكانت



دافعاً قوياً له إلى تكوين هذه المجتمعات البشرية التي ارتقت به شيئاً فشيئاً ، بعد أن كان هائماً على وجهه في الغابة ، يعيش في دائرة فردية قلقة ، وفي فرع ورعب مخيف . . ! فهذه الثورات التي قامت ضد الدين لم تكن في الحقيقة موجهة إلى طبيعة الدين نفسه ، وما جاء ينشد تحقيقه من غايات إنسانية نبيلة ، وإن كانت في ظاهرها كذلك ، وإنما كانت موجهة ضد عوامل الهدم ، وبذور الفسوق عن الحقيقة التي كانت تتمثل آنئذ كلها في رجال الدين . . !

وإني لا أكون مغالياً إذا قلت إن هذه الثورات التي قامت وأسفرت عن عداتها للدين ورجالها ، وخطت بالبشرية هذه الخطوات الرائعة نحو التقدم والرفق ، وفككت عن الانسان أسار العقل ، وعبودية الضمير ، إنما كانت في الواقع حملة إنقاذ للعقيدة الإلهية الصحيحة وإن كان يخيل لبعض المفكرين غير ذلك . . إني دائماً عندما أفكر في الدين أسأل عن الغايات التي جاء ليحققها . ثم أسير في أسرع طريق يوصلني إلى هذه الغايات في قوة ، ومضاء . . ! وهل جاء ينشد الدين - أي دين - فيما دعا إليه من تعاليم ونظم ، وما أمر به من عبادات ، إلا تكوين مجتمعات إنسانية ، نظيفة راقية ، تؤمن بالخلق والكرامة والسمو ، وتخضع للضمير ، وتكيف حياتها على نمط وأسلوب يتفق مع العدل لتعيش في وئام وسلام .

إننا عندما نحب أن نفهم الدين على حقيقته يجب أن ننظر إليه جملة واحدة ، ويجب أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه مكمل بعضه بعضاً . مثل الذرات التي تتفاعل مع بعضها لتؤدي عملها بتناسكها واجتماعها ببعض ،



ويجب أن لا يغيب عن بالنا البتة أن الأصل في كل شيء هو «الجوهر»، وليس «المظهر»، والدين في صيغته، وفيما كان يصطنعه من وسائل ليس إلا صدى وتصويراً للمجتمع الذي نزل فيه ليخرجه من حالة سيئة إلى حالة حسنة بالوسائل والعلاج الذي يراه. ولكن هدفه الذي يرمى إليه أبداً، والذي يجب أن نجعله نصب أعيننا دائماً هو الرقي البشرى داخلها وخارجها. فيجب ألا نتجه بأنظارنا دائماً إلا إلى الجوهر، وإلا إلى الغايات.

وإذا كان لنا ونحن نتكلم في العقيدة الالهية. وهي أنها ضرورية للبشر لا غنى لهم عنها، وأن الانسانية في تقدمها، وقفزها هذا السريع ستكتشف اضطرارها إليها أكثر فأكثر فإننا نحب قبيل أن نأخذ في بحث العقيدة في الاسلام أن نقرئك رأياً يخالف رأينا ويصور المجتمع البشرى اللا ديني مع تعقينا عليه وهو لا كاتب الباحث جان ماري جويو قال قديماً (١) كان الدين أخلاقاً وقانوناً وفلسفة وكل شيء: فكانت الأخلاق البدائية دينية. وكان القانون البدائي دينياً. ولم تنفصل الفلسفة، ولا تفصل العلم عن الدين إلا في عصور متأخرة. وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها فلائن للدين في الحالة الحاضرة منفعة عظيمة. بل لأنه ضرورة حيائية. لأنه وسيلة للبقاء والنماء، إن كل مجتمع من المجتمعات يحس إحساساً غامضاً بشروط بقائه ونمائه تقوده في ذلك غريزة لا تخفى. فكما يوجد لنفسه حكومات وقوانين تضمن بقاءه،

---

(١) هذا الفصل تصوير لرأى جويو في الدين منشأه: وعلاقته بالمجتمع والحياة  
ترجمة الأستاذ سامى الدروبي.



وتعمل على نمائه فكذلك يكون لنفسه اعتقادات بصدد حياة الكون ،  
ومبدأ الأشياء ، ومصير الانسان في صورة تتفق مع مصاحته الاجتماعية ،  
وتنسجم مع شروط وجوده وتقدمه . إن العاطفة الاجتماعية هي العنصر  
الدائم في الشعور الديني . حتى ليتمكن أن نعرف السكان المتدين بأنه كائن  
محب للاجتماع لامع الكائنات الحية التي تطلعه عليها التجربة فحسب ، بل  
ومع كائنات وهمية ينسجها خياله ، ويملاها العالم . فالدين إذا استثناس  
للوجود ويمكن أن نعرفه بأنه تفسير فيزيائي وميتافيزيقي وأخلاقى لكل  
الأشياء بتشبيهها بالمجتمع الانساني ، واختلاف الأديان ، إنما يرجع  
خاصة إلى اختلاف النماذج الاجتماعية التي يتصور الانسان الكون على  
مثلها وتتجلى الصفة الاجتماعية التي للدين في العبادات التي بواسطتها يتصل  
الناس بألهتهم مجتمعين . غير أن العبادات الدينية تزداد مع الزمن رفاة  
ومثالية فتحل العباداة الداخلية محل العباداة الخارجية ويحل التصوف محل  
الأسطورة ! ويمكن حصر الصفات الأساسية لكل دين فيما يلي :

(١) تفسير الطبيعة تفسيراً غيبياً . وهذا التفسير الغيبي موجود حتى  
في الأديان الراقية إذ تؤمن بالمعجزات .

(٢) طائفة من الاعتقادات يعدونها حقائق مطلقة .

(٣) مجموعة من الطقوس والعبادات يعدونها ذات تأثير خارق  
للطبيعة . فهذه هي العناصر الثلاثة التي يتألف منها كل دين . وهذا الدين  
صائر إلى الزوال إلا أن زواله لا يتم مباشرة ، ولا يأتي من الخارج . فهو  
ينتج عن زوال شروطه الحياتية الداخلية ، ويتم هذا الزوال تدريجياً مع



تقدم الصناعة والعلم . والفردية الأخلاقية، ومن السخف أن نتحدث عن دين المستقبل ، وإلا كنا كمن يتحدث عن مستقبل « لعلم الصنعة » أو « علم التنجيم » إن العلم الوضعي لا يمكن أن يتفق مع الكشف السماوي والمعجزة . لقد بعدنا الآن كل البعد عن الزمان الذي كان يقول فيه باسكال : ( إن المعجزات برق يرينا الله ) .. وكل المحاولات التي قام بها بعض الناس لتأسيس ديانات جديدة للمستقبل محاولات فاشلة . تستوى في ذلك « ديانة الانسانية » عند أوجوست كونت و « ديانة التعالي » عند أمرسون وباركر و « ديانة الأخلاق » عند الحاخام الأمريكى فليكس أدلر . . . سيحل محل الأديان الحالية « لادين » .

غير أن « اللادين » لا يعنى « ضد الدين » ، فهو في الواقع درجة من الدين أعلى تنهدم فيها العقائد ، ويبقى من الدين خير ما فيه . إن اللادين لا يزيد على أن ينكر العقائد والسلطات والتنزيل والوحي والمعجزات والخرافات والعبادات .. وهذا لا يعنى الكفر والالحاد واحتقار الجوهر الميتافيزيقي الأخلاقي في المعتقدات القديمة فأن يكون الانسان « لا دينيا » فليس معنى ذلك أنه « ضد الدين » ، سيحتفظ اللادين بأنقى ما في الشعور الديني : سيحتفظ بالاعجاب بالكون ، وبما ينطوى عليه من قوى لامتناهية ، وسيحتفظ بالسعي إلى مثل أعلى ليس فرديا فحسب ، بل اجتماعيا أيضاً ، بل كونيا كذلك فالادين مرحلة من الدين ، في حضارة أرقى وأرفع ، فسيكون نوعا من الميتافيزياء العقلية تتناول الأصل ، وتبحث في المصير . وكما أن المثل الأعلى الأخلاقي يجب أن يكون عدم التقيد بأية قاعدة قطعية ثابتة عامة ، كذلك يجب أن يكون المثل الأعلى



للدن عدم التقيد بقاعدة دينية ثابتة . والاتجاه إلى حرية الفكر .  
وحذف كل إيمان عقيدى مهما كانت الصـورة التي يختفي وراءها هذا  
الايان ، فبدلاً من أن نقبل عقائد جاهزة نصنع نحن أنفسنا عقائدنا .  
يجب أن نتخلص من كل تعصب ديني . إن الايمان وسادة الكسل .  
يجب أن يحل الغرض الميتافيزيائي محل العقيدة الدينية . المعرفة والفرص  
والتفكير والبحث . هذه هي الكلمات التي تعبر عن روح العصر . لم  
نعد في حاجة إلى عقيدة . وفي وسع الانفعال الميتافيزيائي السامى أن  
يساهم في سمو الحياة الانسانية أكثر من العقائد الدينية . فالتعاطف  
مع الطبيعة كلها . والبحث عن سرها ، وحب المساهمة في تحسينها .  
والخروج بذلك من الأنانية إلى الحياة الكونية . ذلك ما سيظل يفعله  
الانسان ، لأنه إنسان ، لأنه يفكر ويشعر . ومن الأمور التي ستبقى بعد  
زوال الأديان ، والتي لم تحققها الأديان حتى الآن - إلا في صورة ناقصة - ،  
اجتماع الأفراد بحرية للاشتراك في انفعال في رفيع أخلاقي . فذلك  
ما سيبقى من الطقوس الدينية ، ولكن هذا الانفعال يمكن ويجب  
أن يستقل عن الدين .

إن العلم والفلسفة والأخلاق تؤدي جميعاً إلى الشعر ، وتؤدي بالتالي  
إلى ما يشبه العاطفة الدينية ، وكلها ضعفت العقائد الدينية وجب على  
الفن أن يقوى ويسمو . إن في الأديان شعراً سيبقى بعد زوال عقائدها  
وسيحل محل الأنبياء فرديات متفوقة في كافة ميادين الفكر الانساني  
في الشعر ، في الفلسفة ، في العلم ، فيستطيع كل منا أن يختار من بينهم  
نبيه ، وأن يؤثر العبقرية التي تلائم ذكاه الشخصي وتتوسط بينه وبين



الحقيقة الخالدة خير أ من غيرها . سيخلق كل امرئ إلهه ، وسيخاق إنجيله ، وسيكون كاهن نفسه . وسيكون من الممكن أن تعيش هذه الاعتقادات المختلفة جنباً إلى جنب كما يمكن أن تعيش النباتات المختلفة في أرض واحدة .

إن يستغنى الانسان عن الفلسفة . إن يستغنى عن القفز في المجهول ، إن الفكر الانساني أشبه بطائر السنونو : لم تبتأ جناحاه لطيران يمس الأرض ، بل لا تتفاضة جريئة عالية في الفضاء الحر ، وإنما المهم إذاً أن ينهض ، وهذا شاق ولا ريب . إلا أن رنوه الأبدى إلى المثل الأعلى لا يني يضع تحت جناحيه هواء . وسيزداد هذا التطلع إلى المثل الأعلى قوة حين يتخلص من الدين . ولقد كانت الأديان تقوم بوظيفة تربوية ، فتعمل على صيانة الشعب المختار ، وحماية التراث القومي ، وواجب التربية الحديثة أن تقوم بهذه الوظيفة ، وهي المحافظة على العريق والعمل على تقدمه ، وهكذا تكون التربية عوناً للفن والأخلاق والدين في هذه النظرة الحياتية الأخلاقية الاجتماعية ، ويمكن أن يعرف علم التربية بأنه ( فن ملاممة الأجيال الجديدة مع شروط أقوى حياة وأخصبها بالقياس إلى الفرد ، وإلى النوع ، فللتربية غاية اجتماعية وغاية فردية ، وليس لها من غرض إلا البحث عن الوسائل التي توفّق بين أقوى حياة فردية وأوسع حياة اجتماعية ) .

إلى هنا وينتهي رأى جويو في تصويره لمستقبل الدين . ويخيل إلينا لأول وهلة أنه لم يتعمق في نظرتة للدين ، وإمامه به إماماً قوياً ، وفهمه لجوهره وغاياته ، والظاهرة التي تتراءى لنا من دراسة جويو للدين أنه



كغيره من المفكرين الذين ناهضوا الدين . قد نظروا إلى العقيدة الإلهية ، وإلى الديانات نظرة لا تخلو من قصور . لأنهم فسروا الأديان على ضوء ما أضيف إليها من أباطيل وترهات ، وما نسج حولها من خرافات وأساطير ، ولأنهم لم يفهموا الدين جملة موحدة ، وإنما فهموه أجزاء متفرقة مشتتة يناقض بعضها بعضاً في غالب الأحيان ، وهذا هو الخطأ بعينه الذي ارتكبه رجال الدين أنفسهم وارتكبه هذه الفرق الضالة الكثيرة العدد التي كانت تلتمس لوجودها عوناً في بضع آيات من التنزيل نزلت لتعالج شئونها خاصة ، وليست من المبادئ العامة في شيء . فتفسرها على هواها ، وما يتفق وأغراضها . حتى أصبحت كل فرقة في تناحر شديد ، وتصارع مستمر مع غيرها مما كاد يقضى على سماحة العقيدة وبساطتها وسموها .

فلو قدرنا ونحن ندرس الديانات عمل البيئة . وحكم الوضع الجغرافي ، وطبيعة الظروف التي نزلت فيها الديانات أول ما أنزلت . ولو لاحظنا أن للديانات مبادئ عامة ، وغايات محدودة لا تتبدل ولا تتغير ، وإنما هي باقية ما بقى الزمن وما بقى الانسان ، وإن لها بعد ذلك الوسائل التي اصطنعتها لتحقيق هذه المبادئ ، والوصول إلى هذه الغايات ، وأنها كيفت هذه الوسائل حسب ما كانت تملية عليها طبيعة البيئة ، وحكم الظروف التي كانت تحيط بما أنزلت عليهم من أمم غابرة ، وأن المعوّل دائماً ليس في المحافظة على الوسائل ، وإنما على تحقيق المبادئ ، والوصول إلى الأهداف . . . ! إذا قدرنا كل ذلك ، ونحن نتعرض لدراسة الديانات لما وجد من يجرؤ على أن يقول مثل جويو « إن الدين صائر للزوال » .



والحقيقة أننا نجد في آراء جويو هذه ليس قصر نظر فحسب ، وإنما تناقض شديد ، واستنتاج غريب لا يتفق في شئ مع حقيقة الطبيعة البشرية ، ولا مع سنة التطور والارتقاء للإنسان ، والأشياء ، والكائنات . فإذا قضينا نحن كما يقول « جويو » على عقائدنا الدينية الراقية النظيفة التي آمنت بها عقولنا ، واطمأنت إليها قلوبنا وأفدتنا لنصطنع عقائد جديدة لأنفسنا وفق النظريات العلمية . والاحساسات المتدافقة المتناقضة في نفوسنا كان ذلك هو مبدأ الحيرة ، والقلق ، والاضطراب ، ومنتهى الخطر على الجنس البشرى التعس ، ذلك أن طبيعة إحساساتنا البشرية ضعيفة عمياء تتأثر ، وتتفعل ، وتتغير دائماً من النقيض إلى النقيض لأنها تخضع في حياتها لعوامل أخرى خارجة عن إرادتها تكيفها حسب ما تشاء . ولأن عقائدنا البشرى يتميز بالعجز والقصور عن الكمال . فلا سبيل له إلى الكمال المطلق أبداً الأبدية ، وإلا لوقفت المعرفة الإنسانية عند حد معين لا تتعداه وليس ذلك من سنة التطور ، ولا من طبيعة الحياة في شئ . وإلى هنا ندرك مدى القلق المروع ، ومدى الحيرة والفرع الشديد الذى سيقع فريسته الجنس البشرى ويكاد يقضى على ما بقى له من أمل في الحياة . ولقد اعترف « جويو » بأن استئناس الإنسان وخروجه من حياته الفردية البدائية المتوحشة الأولى . إلى حياته الجماعية المنظمة التى أوجبت له حقوقاً ، وفرضت عليه واجبات . كان ذلك أثر من آثار العقيدة الدينية ، وأصبح الدين ملازماً لهذه المجتمعات يتشكل معها بأشكال مختلفة حسب ما كان يتفق لها من وعى وإدراك . فهل نستطيع أن نقضى على هذا العامل الخطير في حياة الجماعات البشرية إلا إذا أردنا أن يرجع



الانسان القهقري يعيش كما كان يعيش أخاه في الغابة تتسلط عليه الغرائز الفردية المتذبذبة وتغشاه الأناية المعرّبة القاتلة ، وهل ذلك يتفق في شيء مع طبيعة التطور في الانسان والكائنات . . ! ثم يعيب «جويو» بعد ذلك على الأديان إيمانها بالغيبيات ، ويتنبأ بأن إنسان المستقبل سيتخلص منها ، وهذا هو النظر السطحي بعينه . . ! فهل نستطيع نحن أن نبرىء الفلسفة المادية ، والكثير من العلوم الطبيعية من الغيبيات . . ! إن كثيراً من هذه الفلسفة والعلوم تقوم في أصولها على الفروض والتخيّلات فإذا لم نسمّ هذه الفروض والتخيّلات نوعاً من الغيبيات فماذا نسميها إذا . . !

ونختتم تعقيبنا على «جويو» بما قاله «كالفين» : «إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ما وهبنا من نعمة الله» . وبما قاله الكاتب الايطالى «ماتزيني» : « . . ليس هناك انتصار للروح أو خطوة ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعها عقيدة دينية راسخة ، فللدين قيمة سيكولوجية خطيرة في ضمير الكون وفي أعماق النفس البشرية . إنه سلام للقلب . وراحة للنفس . إنه رصيد كبير من المقاومة لدفع اليأس والقلق الذى يؤدي إلى هدم الانسان وتحطيمه . فلنكن كما قال مفكر غربي «كن كما شاء لك القدر أن تكون مسلماً . . أو مسيحياً . . أو يهودياً . . أو بوذياً . . ولكن لا تنس أن لك ديناً تبرع إليه ، وعقيدة تحرص عليها ، وواجباً نحو الله تؤديه ، فإن هذا مصدر القوة ، والأمل في الحياة» .

وبعد : فما هي عقيدة الاسلام ؟ ماهيتها ، وطبيعتها ، ماذاتيها الخاصة التى تنفرد بها . . ؟ هل جاءت بتصحيح لما سبقها من عقائد إلهية فى الديانات



الوضعية والسماوية ؟ بماذا تصورت الكون ، وتصورت الناس والأشياء ؟  
ما التكييف الذي أضفته على حقيقة الوجود وصلته بالعالم ؟ ما التراث  
الذي خلفته وحظه من القوة والضعف . . ؟

والشيء الخطير الذي لا يمكن أن نغفله عندما نتحدث عن كل ذلك .  
هذه الصلة القوية التي تربط التطور البشرى ، مع التطور في الديانات  
فما لاشك فيه أن النضوج في الديانات يسير جنباً إلى جنب مع النضوج  
في الانسان ، ونستطيع أن نقرر هنا بدون تحفظ إن الديانات تنقل لنا  
صورة صادقة من طبيعة العصور والأمم التي نزلت فيها واستعدادها لتقبل  
التصحیح لفكرة الألوهية على وضع آخر يخالف ما تصورتها عنها فيما  
سبقها من ديانات .

وإذا كان الفيلسوف الانجليزي المتصوف « ألدوس هكسلي » يقول  
في كتابه : « الفلسفة الدائمة » . . . أن جميع الأديان يجمعها رباط واحد ،  
وتستمد وجودها وحياتها من نبع واحد وتتفق وما تدعو إليه من حب  
وإيثار ورحمة للانسان .

فالإسلام يقول : ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه )  
والمسيحية تقول : ( عامل الناس كما تحب أن يعاملوك ) واليهودية تقول :  
( لا توقع ما يؤذيك بالناس ذلك هو لب التوراة وبقيته تعليقات ) ،  
والبوذية تقول : ( لا تفرض على الناس ما يؤمك ) والكنفوشيوسية تقول :  
( لا تنزل بالناس ما لا تحب أن ينزلوه بك ) ، والهندوسية تقول :  
( لا تتحدث بالناس ما قد يسبب لك الألم إذا حدث لك ) انتهى .  
وقد علقنا نحن على ذلك في كتابنا ( هذا هو الاسلام ) بقولنا :



ولكن (١) ذلك كله لن يحملنا على أن نعتقد أن الأديان جميعها صور مكررة في جوهرها ومبادئها . ومناهجها . ودعواتها لشيء واحد . لأن ذلك يقتضينا أن نلغي التاريخ ، وأن نلغي سنة التطور البشرى . بل نلغي عقولنا فلا نستطيع أن نحكمها فيما كانت تستسيغه البشرية وتمضممه في طور من حياتها بعد طور آخر . ومن تطور في الوعي والإدراك إلى تطور نحو المعرفة . والنضوج العقلي .

وأصدق ما نقوله في هذا الموضوع أننا لا نستطيع أن نغفل من مراحل التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما تحمله من مبادئ ونظم . وعقائد وآراء ، لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنباً إلى جنب مع المراحل التي كان يمتازها البشر في طريق تعقلهم وتحضرهم .

ولقد اصطنعنا نحن هذا الأسلوب العلمى المعتمد على التاريخ في بحثنا عن كيفية تطور العقيدة في الانسان . واستنتجنا معتمدين في ذلك على الأساطير . وعلى التاريخ : استنتجنا أن العقيدة كانت تنشأ كل في الانسان . وتميز فيه بمقدار ما بلغه من وعى وإدراك ورفق .

هذا وإن كان ذلك لا يمنعنا من أن نعترف بأنه يوجد بعض الشبه في التخيلات والصور التي رسمتها الديانات ، وخصوصاً فيما دعت إليه من غيبيات ، كما يوجد شبه آخر بينها ضمناً في بعض التعاليم والعبادات ، وتصور الخير والشر ، ولكن حقيقة العقيدة الالهية ، وطبيعة الدين وغاياته

(١) راجع ذلك بتوسع في كتاب « هذا هو الاسلام » للؤلف ص ٧١٠٧٠



وما يهدف إليه تختلف اختلافا كبيرا في كل منها عن الأخرى . . . .  
والاسلام نزل بعد أن سبقته ديانتان سماويتان هما اليهودية والمسيحية  
وديانات أخرى وضعية عقدت فكرة الألوهية ، وأضفت عليها من  
الآراء الفلسفية والتأويلات اللاهوتية . ما جعلها تخرج عن طبيعتها  
السهلة البسيطة . القوية الناضجة . فجاء الاسلام ليقضى على الوثنية  
والمجوسية وليواجه في الوقت نفسه اليهودية والمسيحية فيصحح فكرتهما  
عن حقيقة الوجود وعن صفات الله العليا . . . !

والظاهرة الواضحة التي نلمسها في الاسلام هي التوحيد المحض . هي  
الوعي التام الناضج لحقيقة الإله ( قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد  
ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ) - ( هو الأول والآخر والظاهر  
والباطن وهو على كل شيء قدير ) فصفة الخالق في العقيدة الاسلامية هي  
الكمال المطلق للاله ( الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في  
السماء وهو السميع العليم ) - ( ليس كمثله شيء ) - ( لا تدركه الأبصار  
وهو يدرك الأبصار ) ( والله المثل الأعلى ) . وهذا هو غاية  
ما يتصوره العقل الناضج . ويصل إليه الإدراك البصير لحقيقة الله جل  
وعلا . وإذا كان هذا هو الكمال المطلق بعينه في التصور لحقيقة الله .  
والذي سيظل ملازماً لذاته العليا بدون تبديل أو تغيير إلى أبد  
الأبدن .

فلم يكن هناك بد من أن يترتب على ذلك أن دعوة الإسلام جاءت  
دعوة علمية . وكانت هي الخاتمة النهائية للدعوات السماوية على الإطلاق .  
والذاتية التي يمكن أن نطلقها على الإسلام أنه الدين الذي جاء ليواجه



العقل البشرى . ويحاجه في كل شيء ، وأنه الدين الذى آمن بالفرد ، وما كمن فيه من وعى وتطور نحو الرقى والسكالم ، فالقرآن يقول ( ولقد كرّمنا بنى آدم ) ومبلغ الدعوة الإلهية يؤمر من قبل ربه ( قل إنما أنا بشر مثلكم ) . ولو تتبعنا نحن ما توحى به الدعوة الاسلامية . وتصوره من مبادئ وغايات لوجدنا أنها جاءت لتتمشى مع الواقع فلم تدع إلى مثاليات لا تتفق مع طبيعة البشر ، وإنما وعت تماماً الناحية السيكولوجية التي تختمر في نفس الإنسان ، وتكمن في ضمير التطور البشرى ، ففرضت لكل شيء فروضه ، وعالجت كل أمر وما يتفق وطبيعته ، ولا يعزب عن الوصول إلى تصحيحه ، ولذلك نجدها في شئون كثيرة لم تحرم ما كان في الاستحالة المادية تحريمه ، وإنما جعلت فيه تضيقاً يكاد يشبه التحريم فيما يتأتى لمستقبل العالم من اتساع أفق الحياة وتعدد مشاكلها . . . ! وذلك مثل الرق الذى أتى الإسلام فوجده دعامة قوية من دعائم النظم الاقتصادية والاجتماعية . ولم يكن قد تمهاً بعد في نفوس الارقاء الاستعداد النفسى . والتكافؤ الشخصى للحرية حتى يقضى عليه دفعة واحدة . وإن كان قد فتح له أبواباً كثيرة يتلاشى فيها مستقبلاً بما ورد بكثرة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية . . . ! ولكنه مع ذلك حرم تحريماً قاطعاً الرق الذى يأتى عن طريق النخاسين بالقنص والتصيد والاختطاف . . . ! وكذلك مثل تعدد الزوجات . فبالرغم من أنه أعطى الفرد حرية الزواج من أربعة . وذلك لأغراض نفسية واجتماعية كان يعيها تماماً مثل القضاء على العلاقات الجنسية غير المشروعة التي كانت سائدة حينذاك . ولعدم الاكتفاء الجنسي الذى كاد يسود العالم بطريقة خطيرة في العصور الأولى كما يفهم من حديث عائشة رضی الله عنها :



قالت (١) : « إن النكاح في الجاهلية كان أربعة أنحاء . فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليتسه أو بنته فيصدقها ثم يتسكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسل إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة منه في نجابة الرجل ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر . يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومرو عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع منه الرجل ، والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملت إحداهن ، ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم أحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ، ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، انتهى .

إلا أن الاسلام مع إباحته تعدد الزوجات أعطاه شيئاً من التضييق فقد قال تعالى : ( وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ) . . .

وما يقال عن الرق وتعدد الزوجات يقال أيضاً عن الطلاق الذي أحله الاسلام لايكون كما يمثل اليوم في مجتمعنا الاسلامي بتلك الطرق الشائنة ، وإنما جعله منفذاً للخروج من الحياة غير المتحملة لتنافر

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح .



الطباع ، واليأس من السعادة الزوجية . ولذلك نرى الرسول عليه السلام يقول في كراهية الطلاق إلا للضرورة القصوى ، والاضطرار الذي لا مفر منه ( إن أبغض الحلال عند الله الطلاق ) .

وهكذا نرى أن التصوير الكامل لحقيقة الوجود . وفكرة الألوهية في الإسلام استتبع أيضا الوعي الكامل لسيكولوجية النفوس . ولطبيعة الأشياء ، فنراه في كل شيء يواجه الواقع ، ولا ينأى أبته عن الحقيقة ، ولا يعزل البشر عن طبيعتهم فيصمر لهم مثلا عليا لا يبلغونها . ويدعوهم إلى تعاليم لا يهضمونها . فتقرير الحق ، ومخاطبة العقل ، والإيمان بالفرد ، والسمو بالأخلاق الانسانية ، والارتفاع بالكرامة البشرية ، وارتباط السلوك الانساني بالإيمان بالله هي الأسس القوية التي قام عليها الإسلام .

يقول القرآن الكريم : ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) . ( وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ) . وهذا هو منتهى الإيمان بالفرد ، والتقدير لحرية البشرية .

وإذا كان لنا أن نستطرد في الكلام عن العقيدة في الإسلام أكثر من ذلك ، فلا مانع من أن ننقل هنا فقرات أخرى مما كتبناه عن صفة من صفات الإسلام الذاتية في كتابنا ( هذا هو الإسلام ) حيث قلنا :

والصفة (١) العاشرة من هذه الصفات . أن الإسلام حارب

---

(١) راجع ذلك بتوسع في كتاب ( هذا هو الإسلام ) للمؤلف ص ١٢٩ .



الكهنوتية . والسلطة الدينية . فلكل إنسان نير البصيرة . ناضج العقل  
الحق في طرق باب الاجتهاد . ولو كان من عامة الناس .

وهذه الصفة تقتضيها أن نراجع ما قررناه في غير موضع من هذا  
الكتاب . وهو ربطنا بين العقيدة وتطورها في الانسان ، وبين تطوره  
هو في قوة مداركه وسير تحضره . . ! فليس هناك شك في أن الإيمان  
بالفرد ، والاعتراف بذاتيته ، وحرية ، هما من الدلالات القوية على  
تحضره ، وقوة إدراكه ، ووزنه الصحيح للأمر ، والاسلام جاء بعد  
أن سبقته ديانتان سماويتان ، وديانات أخرى لا حصر لها . ولكنها  
جميعاً لم تبرأ من النظام الكهنوتي ، ومن قيام السلطات الدينية التي كانت  
حائلاً شديداً منيعاً بين الانسان وبين حرية الفكرية ، وإرادته العقلية ،  
والتي قيدت الانسان ليس في حياته الاجتماعية فقط ، وإنما في همساته .  
وخفقاته ونجواه مع نفسه ، وليس ذلك إلا إيمان منها بقصور الانسان ،  
وعجزه ، وعدم اعترافها بحريته ، وتقديرها لذاتيته . . . ! ولكن الاسلام  
جاء والانسان حائر مضطرب ، يحاول أن يستنقذ نفسه من حياته هذه ،  
وأن يثب إلى الدخول في طور آخر من أطواره فهد له الطريق ، وأخذ  
بيده نحوه فآمن بذاتيته ، وأخذ يخاطبه في كل ما دعا إليه من مبادئ  
بالعقل والمنطق دون ضغط أو تعسف ) .

والشيء الذي لا يمكن أن نغفله هنا أن العقيدة الاسلامية تصورت  
الكون والعالم تصوراً كاملاً ناضجاً يكتمل معنى العقيدة عن فكرة  
الألوهية . وعن غاية الدين للبشر وذلك فيما سبقها من ديانتين سماويتين  
هما اليهودية ، والمسيحية . ولذلك نرى الاسلام يدعو إلى الإيمان .



والتصديق بما جاء به موسى وعيسى والنبيون من قبلهما من الوحي الإلهي فالقرآن يقول : ( قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . وما أنزله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ) ، باعتبار أن هاتين الديانتين دعما إلى التوحيد الصحيح قبل أن يلاحقهما ما حدث فيهما من تغيير .

فما لاشك فيه . وبما يختلف فيه أي مؤرخ من المؤرخين أن الأسفار الخمسة التي تمثل العهد القديم لديانة بني إسرائيل كتبت بعد موت موسى عليه السلام بعدة قرون ، ولم يعرف كاتبها الحقيقي ، وبعضها كتب في الأسر ؛ ولذلك دخلت فيها عناصر غريبة عنها من الديانة البابلية .

وإذا كنا قررنا أن كل ديانة ينطبع فيها ما كان يسود العصر الذي وجدت فيه من طبائع وأشياء ، فإن هذه الظاهرة واضحة في الديانة اليهودية وضوحاً بديناً ؛ فهي تدعو إلى الأثرة والتعصب ، وتشيد بمبدأ القوة والغلبة ، والتعطش إلى سفك الدماء ؛ وحب الانتقام ؛ حتى أنهم كانوا ينتظرون خلاصهم من الأسر على يد طاغية غاز جبار . إلى أن تنبأ لهم نبيهم زكريا في رؤياه . بأن خلاصهم سيكون على يد ملك عادل وديع مسلم حيث قال : « ابتهجى جداً يا ابنة صهيون . اهتفي يا بنت أورشليم . هوذا ملكك يأتي إليك : هو عادل ومنصور وديع . راكب على حمار . على جحش بن أتان » .

وهكذا نرى أن الديانة اليهودية كانت بمثابة نقطة تحول في العقيدة



من فكرة التعدد في الآلهة إلى وحدانية الله . وإن كان تصور اليهود لم يخل من التفكير الساذج في صفات الله ، وفي علاقة الخالق بالخلق ، فلقد نسبوا إلى ( الإله ) أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة ، وأنه كان يصارع ، ويأكل ويشرب ، ويخشى مركبات الجبال وأنه دفن موسى حينما مات في موآب) ولم تذكر كتب العهد القديم أي شيء عن خلود النفس ولا عن الجزاء ، والعقاب يوم البعث ، وإنما جميع الأيتام تأوى بعد الموت إلى مكان سفلى سحيق يسمى «الجب» (٢) أو شيول هي الهاوية التي تأوى إليها الأيتام بعد الموت ، ولا نجاة منها لميت . . . . « وأن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد » .

وإذا وقفنا وقفة قصيرة عند الدعاء الذي وجهه (الملك) (٣) «ازيكياس» وهو مريض إلى إلهه وجدناه يقول له فيه « اشفى » لأنه ليس شؤول هو الذي يمدحك ، ولا الموتي هم الذين يثنون عليك . فإن الذين ينزلون في الحفرة لا يعتمدون على وفائك ، وإنما الأحياء هم وحدهم الذين يمدحونك كما أفعل أنا اليوم) . وهذا من غير شك يصور ما ذهبنا إليه ، وهو أننا لا يمكن أن نغفل ألبيته مقدار التطور في الديانات وصلته الوثيقة بالتطور البشرى ، وأن كل ديانة من الديانات تؤرخ في الواقع حقيقة العصر الذي نزلت فيه ، وأخلاق البيئة وطباعتها التي نبتت فيها .

وغاية ما نقوله عن العقيدة في الديانة اليهودية أنها كانت ديانة محلية

(١) كتاب الله للعقاد ص ١١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) « الفلسفة الشرقية » للأستاذ محمد غلاب .



قاصرة تحتاج إلى تكملة ، وإلى امتداد ، ولذلك ظل اليهود زمناً طويلاً ينتظرون نبياً جديداً إلى أن بعث فيهم المسيح عليه السلام .

وهكذا نزلت المسيحية للعالم فكانت ثورة أخلاقية ، وروحية ، هزت الضمير الإنساني من ركوده وغفلته « جئت لألقى ناراً فإذا على لو اضطربت النار ، والظاهرة التي نلاحظها بارزة في الديانة المسيحية هي الدعوة إلى الروحانية الصافية الخالصة . هي التحقير من شأن السعي للدنيا ، وتغليب الجانب الروحاني في الإنسان على الجانب المادي لأن العالم في ذلك الوقت لم يكن ينقصه تنظيم وسائله المادية التي برع فيها علماء اليهود والإغريق ، والرومان ، وإنما كانت تنقصه يقظة الضمير ، ويقظة الروح التي كان ضارباً بينها وبينه سداً منيعاً . فجاءت الديانة المسيحية لتعالج المشكلة من ناحيتها الطبيعية ، فتغالت وأسرفت في الدعوة إلى الروحانية لتخفف من حدة المادية وسيطرتها وخطورتها فتتكيف أعمال الإنسان جميعها بمراقبة الضمير ، وتغذية الروح ولذلك نرى المسيح يقول ( ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله ) .

ويقول أيضاً من خطبة له لمريديه وهم على الجبل :

( طوبى (١) للساكنين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطشى إلى البر لأنهم يشبعون . . . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون . . . قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تقتل . ومن قتل يكون

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس .



مستوجب الحكم ، وأما أنا فأقول لكم . إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدمت قربانك إلى المذبح وتذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فترك هناك قربانك ، كن مرضياً لخصمك ... سمعتم أنه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك . ويأخذ ثوبك . فترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . سمعتم أنه قيل تحب قريبك ، وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينكم . أحسنوا إلى مبغضيك ، وصلوا للأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكتفونوا أبناء أبيكم الذي في السموات فإنه يشرق شمسك على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم . فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ، وإن سلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا ؟ فكونوا أتم كاملين كما أن أبائكم الذي في السموات هو كامل .

وكان يخاطب اليهود فيقول لهم : ( لو كان لكم إيمان حكمة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها ، وتتغرس في ماء البحر فتطيع ) وكان يصور قيمة الحياة كلها ، وكيان الإنسان نفسه في تقوى الله ومراقبته ، والإحساس الدائم اليقظ بوجوده . وأن الإنسان الذي ينبعث من وجدانه في تصرفاته وأعماله حب الله ، والعمل لمرضاته هو كل شيء . ولا يعادله أى كائن آخر في الحياة ( ما ذا ينفع الإنسان لو



ربح العالم كله وخسر نفسه ، وماذا يعطى الإنسان فداء عن نفسه ) .  
( أعطيك (١) مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على  
الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحمله على الأرض يكون  
محلولا في السموات ) .

هكذا نزلت المسيحية بعد اليهودية لتكفي حياة العالم تكيفاً آخر  
فتقرر أن الفضائل هي في الرحمة ، والإيثار ، والحب ، وأن كسب الحياة  
هي في إحياء الوجدان البشرى ، وتحريره من كل شيء عدا الله . وقتل ما في  
الإنسان من أنانية فردية . فكانت بمثابة رد فعل عنيف لما كان يسود  
المجتمع اليهودى من تأصل النفعية المادية فيه ، ومن قتل للأناية الفردية  
المتغترسة التي أصبحت غريزة فيه تتكفي بها حياته . . . !

ولن نستطيع هنا أن نغفل الرد على من يزعمون أن الديانة المسيحية  
لم تع في دعوتها حقيقة الطبيعة البشرية ، وخضوع الإنسان لظروف  
الحياة المادية ، وإلى أن يكون له حقوق قبل المجتمع الذى يعيش فيه كما  
أن عليه واجبات ... وردنا على هؤلاء أنه ما كان للديانة المسيحية مفر من  
أن تسلك غير هذا الطريق الذى يتفق كل الاتفاق مع طبيعة الأشياء ،  
لأنها نزلت فوجدت المجتمع اليهودى غارقاً في الماديات إلى أذنيه . قائماً  
سداً مثنياً بينه وبين كل شيء فيه معنى الروح ، أو معنى الضمير ، حواسه  
كلها متجهة إلى الأناية الفردية القاتلة . والتعصب الأعمى البغيض للتغالى  
والإسراف فى الشيء يستلزم حتماً التغالى والإسراف فيما يضاده ليحدث  
التأثير المطلوب ، وتتحقق الغاية المرجوة .



وبعد . فلعلنا نكون قد أعطيناك صورة صادقة عن العقيدة في الديانتين الكتابيتين قبل الإسلام ، وهما اليهودية والمسيحية لتتحقق من صدق نظريتنا ، وهي أن التطور في الديانات السماوية يسير جنباً إلى جنب مع التطور البشرى .

وأصدق ما نقوله في هذا الموضوع . أن العقيدة في الديانة اليهودية كانت تحولاً بالعقيدة الدينية من فكرة التعديد إلى فكرة التوحيد .  
وأنها كانت بمثابة إرهاب لما سيأتي بعدها من ديانات . . !

وأن العقيدة في المسيحية حولت العالم من طريق الأنانية وحب الذات والتعصب الأعمى إلى طريق الإيثار والمحبة والرحمة فكانت بمثابة علاج لما انتاب العالم من مرض مزمن متأصل فيه .

أما العقيدة في الإسلام ف جاءت لتقرر الحق المطلق في أى صورة من الصور الكونية ، واعية تماماً حقيقة الإنسان وطبيعته . مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطت بين سلوك الإنسان وإيمانه الصحيح ، برباط قوى مكين . حتى أننا لا نبتعد عن الحقيقة لو قلنا إنها استوعبت السكالم المطلق بكل معنى من معانيه . !

هذا رأينا صورناه لك معتمدين على المنطق وعلى التطور التاريخي للأديان ، ولعل من الأوفق هنا أن نقرئك رأياً مضاداً لرأينا مع احتفاظنا بالتعقيب عليه حتى نكون قد أكملنا بذلك الأسس المنهجية التي اصطنعناها لأنفسنا في مثل هذه البحوث ، وهي عرض الرأى وما يضاده من آراء .



وما ننقله هنا من آراء هي للمستشرق الألماني « جولد تسيهر » قال :  
« إن الإسلام (١) ، كما يبدو عند اكتمال نموه ، هو نتيجة تأثيرات  
مختلفة تسكون بعضها باعتباره تصوراً وفهما أخلاقياً للعالم ، وباعتباره  
نظاماً قانونياً وعقيدياً ، حتى أخذ شكله السنن النهائي ، وعلينا كذلك أن  
نتحدث عن التيارات التي أثرت في اتجاهات نهر الإسلام ، لأن الإسلام  
ليس مذهباً واحداً ، بل حياته التاريخية تتأكد فيما نشأ فيه من  
اختلافات ، وهناك نوعان من التأثيرات التي تحدد الاتجاه الذي يسير  
فيه أي نظام من النظم مهما كان نوعه ولونه ، هنالك أولاً ما في النظام  
نفسه من قوى داخلية ذاتية تعجل نموه التاريخي ، وهناك ثانياً التأثيرات  
الروحية التي ترد عليه من الخارج ، وتضيف إليه ثروة جديدة ، وتجعله  
خصباً ، كما تعمل على أن يسير في طريق التطور . حقا إن فعل التأثيرات  
الأولى قد أحس به بلا شك في الإسلام وتاريخه ، ولكن أثر الضرب  
الثاني من هذه التأثيرات ، أي التأثيرات الروحية التي جاءت من غيره ،  
واستوعبها وتمثلها هو الذي يميز أهم عصوره في رأي الباحثين .

ويبين ذلك إذا عرفنا أن نمو الإنسان مصطبغ نوعاً بالأفكار  
والآراء الهلينية ، ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني ؛  
ونظامه السياسي ، كما تكون في عصر الخلفاء العباسيين ، يدل على عمل  
الأفكار ، والنظريات السياسية الفارسية ، وتصوفه ليس إلا تمثلاً لـ  
لتيارات الآراء الهندية ، والأفلاطونية الجديدة الفلسفية . على أن من  
الحق أن نقرر أن الإسلام في كل هذه الميادين قد أكد استعداداه

(١) راجع كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٤ .



وقدرته على امتصاص هذه الآراء وتمثلها ، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها في بوتقة واحدة ؛ فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حللت تحليلا عميقاً ، وبجثت بحثاً نقدياً دقيقاً .

وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادته فمحمد مؤسسه لم يبشر بمجديد من الأفكار كما لم يمدنا أيضاً بمجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره وباللأنه نهاية . لكن هذا وذاك لا ينتقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية .

ويستطرد بعد ذلك فيقول في مكان آخر من الكتاب :

« من (١) الخطأ الخطير أن ننسب للقرآن أكبر القيم في بيان طابع الإسلام بوجه عام ، كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده المقدس لدى الأمة الإسلامية ، والواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا في خلال العشرين سنة الأولى من نموه . ففي خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن في رأى أتباع دين محمد عملاً أساسياً محترماً باعتباره موحى به كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظهر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية ، ولكن بالرغم من أن الإسلام في أطوار نموه التالية قد اتخذ القرآن أساساً - وهو أمر طبعى - وبالرغم من أنه كان يوزن به جميع منتجات العصور المتأخرة ، وبالرغم من أن كل شيء قد تصور أنه متفق معه أو حوول تصور ذلك - بالرغم من هذا كله

---

(١) العقيدة والفريضة في الإسلام ص ٣٣ ، ٣٤ .



فإننا لا يمكن لنا أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكنى وحده  
لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية .

إن الرسول نفسه قد اضطر بسبب تطوره الداخلى الخاص ، وبحكم  
الظروف التى أحاطت به . إلى تجاوز بعض الوحي القرآنى . إلى وحي  
جديد . فى الحقيقة . وإلى أن يعترف أنه ينسخ بأمر الله ما سبق أن أوحاه  
الله إليه ، فإذا كان الأمر كذلك فى عصر النبى ، فمن الأولى أن يكون  
كذلك - بل أكثر من ذلك - عندما تجاوز الإسلام حدود البلاد  
العربية ، وتأهب لكي يصير قوة دولية .

إننا لا نفهم الإسلام بلا قرآن ولكن القرآن وحده بعيد عن أن  
يكفى لمواجهة العقلية الإسلامية التامة فى سيرها التاريخى .

ويختتم « جولد تسهر » تصوره للعقيدة الإسلامية بقوله :

« من (١) العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً عقيدياً موحداً  
متجانساً ، وخالياً من المتناقضات ، ولم يصلنا من المعارف الدينية الأكثر  
أهمية وخطراً إلا آثار عامة نجد فيها ، إذا بحثناها فى تفاصيلها ، أحياناً  
تعالم متناقضة ، ورسالة النبى الدينية تنعكس فى روحه بألوان مختلفة ،  
باختلاف الاستعدادات السائدة فى نفسه . إذاً كان لزاماً على علم الكلام  
المنسق أن يتولى منذ أول الأمر حل الصعوبات النظرية الناشئة عن مثل  
هذه المتناقضات .

ويبدو فضلاً عن ذلك أنه ، فيما يتعلق بمحمد نفسه ، شرع منذ القدم

(١) انظر ص ٦٨ ، ٦٩ من العقيدة والشريعة فى الاسلام .



في البحث عن تناقضه فيما بشر به ، ولا غرو فقد كان وحى النبي ، حى في حياته معرضاً لحكم النقاد الذين كانوا يحاولون البحث عما فيه من نقص ، وكان عدم الاستقرار ، والطابع المتناقض البادى في تعاليمه موضع ملاحظات ساخرة ، ولهذا فبالرغم من إصراره على القول بأن الله أوحى « قرآنا عربيا غير ذى عوج » سورة الزمر : ٢٨ ، ويراجع أيضا سورة الكهف : ١ ، وسورة فصلت : ٢ فقد اضطر إلى الاعتراف في الوحي المدنى بأن القرآن : ( منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » انتهى .

هكذا يقرر هذا الباحث العالم . ويلقى أحكاماً بدون تمحيص ، ولا سند ولا تعمق مما لا يتفق في شيء مع صفات الباحث المدقق الذى ينشد الحق ، ولا يتأثر بأى عامل آخر مهما كانت قوته وسيطرته . . . والشئ الذى نحب نحن أن نقرره هنا قبل أن نأخذ في ردنا على « جولد تسيهر » أولاً : أن كثيراً من هؤلاء العلماء الغربيين يضعون الدين على مشرحة النقد كأى علم من العلوم التاريخية ، أو الفلسفية ، دون وعى لأوجه الاختلاف الشديد ، في كل منهما ، وما يميز به من سمات وطبائع وغايات . ثانياً : أنهم يعقدون مقارنات بين الديانات في بعض تعاليمها وما قررته أو دعت إليه ، ثم يلتمسون شبهاً بينها فيحكمون بلا تحفظ بأن هذه الديانة قد نقلت عن تلك كذا وكذا من التعاليم ، أو تصور الكون والحياة الأخرى . . وهذا هو الخطأ الجسيم الذى ما كنا



نحب أبدأ أن يتورط فيه أمثال هؤلاء العلماء الأفذاذ...! لقد قررنا عند الكلام في تطور الديانات السماوية أن الصفة البارزة فيهما جميعاً أنها نزلت لتكيف حياة المجتمع الذي نبتت فيه ، وأنها في حقائقها الأولى وقبل أن يضاف إليها شيء صورت السكون والوجود ، ووضحت معنى الحياة بأسلوب يتفق ومقدار ما اجتازته قافلة الإنسانية من تطور وإدراك . ! غير أن هناك حقائق أزلية . وأسس ناموسية تهادنت على الأخذ بها جميعاً . فإتاهم ديانة من الديانات بأخذها من الأخرى سواء أكان المأخوذ عنها ديانة وضعية أم سماوية هو منتهى التحيز والمغالطة ، والإسراف في الاتهام بدون دليل ، ومع ذلك فإن هؤلاء السادة من العلماء لو تعمقوا قليلاً في دراسة النفس البشرية — ولا نقول نفس الرسول الموحى إليه — لتبين لهم أن هناك شيئاً مما يسمى الإيحاء الذاتي ، والإيحاء النوعي ؛ كثير مما يعطى الإنسان القدرة على تخيل شيء لم يقرأ عنه أو يسمع به قبلاً . . . نالنا : لا يفرق هؤلاء العلماء بين الدين في حقيقته المنزلة . وبين ما أضفتم عليه الفرق المتعددة المتناقضة المذاهب التي نشأت بعد عصره الأول ، وإنما يأخذون ذلك على أنه من الدين ، وهذا هو المنكر الذي لا يقرهم عليه أي منصف ، فالحقيقة أن الدين ليس مسئولاً ألبتة عما أضيف إليه من آراء جديدة هدامة نسجتها حوله فرق كثيرة ضالة وسمتها ديناً وما هي من الدين في شيء . . . رابعاً : أنهم لا يأخذون آيات التنزيل الحكيم على أنها شيء لا يتجزأ ، وأنها يكمل بعضها بعضاً ، وأن هذه الآيات لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما نزلت في فترات متباعدة لتصوير مسائل عامة ، وتعالج مشاكل طارئة أمام تكوين المجتمع الديني ، وإنما



يفهمونها ويضمونها مستقلة بعضها عن بعض دون أن يراعوا الظروف  
والمناسبات ، وهذا للأسف هو الخطأ بعينه الذي وقع فيه كثير من  
علماء الدين .

وعلى ضوء كل ذلك سنعقب بكلمة قصيرة على ما أثاره « جولد تسيهر »  
مما ذكرناه لك آنفاً . وأول شيء في الشطر الأول الذي يعتمد عليه  
« جولد تسيهر » فيما يذهب إليه التأثيرات الخارجية التي أتت إليه من  
الخارج وهي ما سماها بالتأثيرات الروحانية مثل وجود الفرق المتعددة  
التي نشأت في الإسلام بعد عصر الخلفاء الراشدين ، واصطنعت فيه  
مذاهب متعددة متغايرة المعنى والأسلوب ، وهذا المنهج في الدراسة ،  
والاستنتاج الذي يذهب إليه « جولد تسيهر » يدل على مغاظة شديدة  
لأننا مع تسليمنا بحدوث هذه التأثيرات الخارجية التي حملتها الفرق  
المتعددة إلى الإسلام إلا أننا لانغفل أنها كانت شرأ وبلاء ونقمة على  
المسلمين ، وأنها كانت تحمل في طياتها عناصر الانحلال لوحدة الإسلام  
ومقوماته ، وأنها التمسث لوجودها ظروفاً مهيأة لا يسأل الإسلام عنها  
ألبتة ، ولاتنال في شيء من قدسية الكتاب الكريم وكلامه . ! ففهم القرآن  
كجزء لا يتجزأ ، وكمجموعة عناصر يكمل بعضها بعضاً . هو كمال العقيدة  
في الإسلام . ! أما فهمه بغير ذلك فهو الانحراف الذي لا يقره الإسلام ،  
ومع أن الظروف التي هيأت الجو لوجود هذه الفرق ، وبالتالي لإحداث  
هذه التأثيرات نشأت في أول أمرها دينوية - أي نشأت من النزاع على  
الخلافة - بين علي ومعاوية الذي ارتبط به نشوء الخوارج ، والقدرية ، والمرجئة  
والشيعة وغيرهم من الفرق الكثيرة المتعددة التي تفرعت عنها . نقول بالرغم



من أن هذا الباعث الأول دنيوى . فإننا ندلل هنا بما لا يدع مجالاً للشك على أن العقيدة الإسلامية كملت وازدهرت في عهد النبي ، وقبل أن يرفع إلى الرفيق الأعلى ، وأن طبيعة الدين الإسلامى ذاته في بساطته ووعيه لواقع الحياة تنفر من التأويلات اللاهوتية التى حاربها الإسلام فى أول أمره ، وهى التى اصطنعتها الفرق ، وعلم الكلام فى الإسلام .

ويظهر أن « جولد تسيهر » فى غفلته أو تغافله اعتمد فيما يذهب إليه من أن النبي لم يبشر بجديد من الأفكار على ما أوجده هذه الفرق من مذاهب ، هى فى الغالب جملة معارف كهنوتية من ديانات فارس وبابل والصين والهند .

ونحب أن نقول « لجولد تسيهر » ولمن ينحو منحاه من المستشرقين ، فيقسمون الإسلام ويسمونونه بتسمية هذه الفرق . ! أنهم حتى بمجرد نسبتهم هذه الفرق للإسلام يظلمون الحق ويحاربون الصواب . . لأن الإسلام بعيد عنها فى روحه وتكليفه لمعنى الحياة ، وأن من يريد أن يعرف الإسلام فليعرفه من مصادره الأولى فقط ، وقبل أن توجد هذه الفرق التى كانت سبباً فى الانحراف بالمسلمين عن الطريق القويم الذى شرعه الله ورسوله ... ! وإن من مفاخر القرآن أنه أتى بجملاً ليتفق مع سنة التطور التاريخى للأشياء والإنسان والكائنات . فلا تتعارض نصوصه ، وتعاليمه مع واقع الحياة أبداً ، ثم ليترك مجالاً للعقل لايستخدم التأويلات اللاهوتية فى فهم معانيه . وإنما ليفصل ما أجمل ، ويرسم السبل لتحقيق ما دعا إليه من أهداف محددة .

وهذا الحديث الذى رواه البغوى عن معاذ بن جبل يصور ما نذهب



إليه . وهو أن الرسول عليه السلام لما أرسله إلى اليمن قال : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال أقتضى بكتاب الله . قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسوله . قال : فإن لم تجد في سنة رسوله ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو . قال : فضرب رسول الله على صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله . . .

ثم إن القرآن والنبي الذي أتى به من عنده ، ظلا في قلوب المسلمين حتى في عصر انحرافهم عن الإسلام ، يحتلان مكان القدسية ، والسمو ، والكمال المطلق فيروى عن يزيد بن معاوية أنه لما حملت إليه رأس الشهيد الحسين بعد موقعة كربلاء المشهورة قال لجلسائه وهو يقرب الرأس بشيء في يده ، أتدرون من أين أتى هذا ؟ إنه قال : أبي علي خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحاجّ أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فيما عدلاً ولا ندأ ، ولا سكتة أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . . .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التماس سند في فرع من الفروع دون نظر إلى أصل من الأصول المعلومة . أو استهداء غاية من الغايات المرسومة . وهذا هو أصل التفكير المنحرف الهدام في فهم العقيدة في الإسلام . . .



أما ماثيره في الشطر الثاني من أن القرآن لا يكفي وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية ، وأن الرسول بسبب تطوره الداخلي ، وبسبب الظروف التي أحاطت به فحمله - حسب تعبيره - إلى تجاوز بعض الوحي القرآني إلى وحي جديد ، فيستدل من ذلك على أنه إذا كان حدث هذا في عصر النبي القصير فالقرآن لا يستطيع أن يواجه وحده عمر الإسلام الطويل... ورددنا على ذلك أنه كان يجدر بالمستشرق النزيه أن يدرس تطور المجتمع الإسلامي في عصر النبي ليظهر له أن هذا النسخ وتجاوز بعض الوحي إلى وحي آخر جديد لم يحدث إلا لأن المجتمع الإسلامي كان في طور التكوين ، وهو خاضع بحكم الظروف لما يطرأ عليه من مشكلات ، ويعترضه من مسائل... وبدلاً من أن يحمده للوحي وللرسول هذا الصنيع لمروته ، وعدم هروبه من واقع الحياة يحمل ذلك على عدم التكافؤ في القرآن لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية . ونسى أن هذا النسخ والتجاوز عن بعض الوحي انقطع بعد أن تم تكريم المجتمع الإسلامي وأصبح المسلمون أمة لها مقوماتها ، وكيانها الخاص ، وبعد أن كمل الوحي ، وتم الدين بنزول هذه الآية الكريمة : ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ) .

ثم يأتي الشطر الأخير من كلامه ، ويقرر فيه أننا لا يمكننا أن نستخلص من القرآن رأياً عقيدياً موحداً خالياً من المتناقضات ، ولم يصلنا من المعارف الدينية إلا أكثر أهمية إلا مسائل عامة لو بحثناها في تفاصيلها نجد أن تعاليمها يناقض بعضها بعضاً ، وأن النبي مع إصراره على القول بأن الله أوحى إليه « قرآناً عربياً غير ذي عوج ، فقد اعترف بأن القرآن



، منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، الخ . . . ولست أدري سر هذا التخييط الشديد والأحكام التي تلتقي على عواهنها بدون سند أو دليل عما ليس من سمات العلماء والباحثين في شيء .

وأغلب الظن أنه يشير إلى مسألة القضاء والقدر في القرآن فيصفها بالتناقض ، وبأنها تحمل المعنى وما يضاده . . . ولقد زهبتا نحن فيما تقدم في هذا الكتاب ، على أن انحراف هؤلاء المستشرقين ومن وجد قبلهم من الفرق الإسلامية عن الفهم الصحيح للعقيدة في الإسلام ، أنهم يفسرون التنزيل الحكيم كأجزاء مستقلة بعضها عن بعض ، وأنهم لا يعنون بدراسة المناسبات والظروف التي اقتضت في حينها نزول الوحي الإلهي . وأنهم بعد ذلك كله يتغاضون عن الإمام بحياة الرسول عليه السلام . وكيف كان ينظر إلى هذه المسألة ويكيف بها حياته ، وحياة أتباعه من المؤمنين ، فيربطون بين ذلك كله وبين ما يجب أن تكون عليه نظرهم الصحيحة لمسألة الجبر والاختيار في القرآن ، وسنتحدث عنها بإسهاب في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

أما الشبهة الثانية من الشطر الأخير وهي أن القرآن فيه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، والتي يستدل بها على عدم العقيدة الموحدة في القرآن . . . فكأن هذه الآية الكريمة كانت تنبأ عن دعوى هؤلاء المستشرقين ومن سلك طريقهم من قبل من الضالين العابثين ( فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . . . ) الخ .



فالقرآن صور جوهر العقيدة تصويراً واضحاً بيناً جازماً ، وحدد في مبادئه وتعاليمه حدوداً مستقيمة غير معوجة لما أباحه ، وما حرّمه ، ثم نزلت بعد ذلك آيات من التنزيل لتصوير مسائل خاصة لظروف طارئة تفهم على مقتضى أصول الدين الثابتة ، وما يتفق وجوهره الخالد الذي لا يتغير ، والذي « لا يأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه تنزیل من حکیم حمید » .

وأخيراً أعلننا نسكون قد أعطيناك صورة واضحة صادقة عن العقيدة في الاسلام وما رسمته للإنسان من تصور للسكون ، وفهم لمعنى الحياة... وإذا كان لنا أن نعرف بعد ذلك الأدوار التي مرت بها ، والتطور التاريخي لها . ثم ما وقف أمامها من حواجز وأشياء وعوامل رجعية كادت تخرجها عن طبيعتها السمحة الصافية . القوية الخالصة . فلننتقل معاً إلى الفصل الثاني من الكتاب حيث نمر مروراً سريعاً بالمراحل التي اجتازها الاسلام .



## المخال التي اجتنتها الاستلاب

يقع ضيقنا المنهج العلمي في هذا البحث أن نذكر هنا الانبعاثات الخاصة ،  
والروح القوية التي اكتسفت الإسلام ، وسيطرت سيطرة تامة على  
أسسه الرئيسية ، وأصوله العامة التي قام عليها كدين سماوي ، وكدعوة  
عالمية للجنس البشري جميعه .

ثم نمر بعد ذلك مروراً سريعاً بما كان يعتور حياة شبه الجزيرة  
العربية ، وبما كان يعتور حياة العالم كله وقتئذ من عوامل ودوافع نحو  
الخير أو الشر .

وأول شيء نحب أن نسجله هنا : أن الإسلام في كل أسسه ، وأصوله  
يكمل بعضه بعضاً بحيث لو عطل أحد هذه الأسس والأصول كان في  
ذلك هدم لبقية الأسس ، والأصول الأخرى . . !

ثانياً : أن التعاليم . والأحكام . والعبادات . وكل الأوامر . والنواهي  
التي تفرعت عن هذه الأسس ، والأصول . لم تثبت . وتفرض على المسلمين  
دفعة واحدة ، ولم تأخذ شكلها النهائي إلا بعد أن توفرت للمسلمين  
مقومات الدولة في كافة شؤون الحياة ، وبعد أن تحققت لهم إمكانيات  
خاصة تتفاعل ، وتستجيب ، ويتحقق بمقتضاها ما فرضه الإسلام من  
واجبات وأحكام وما نهى عنه من منكرات ومحرمات . . والشئ الذي



لم يختلف فيه أحد حتى الآن أن تشريعات الإسلام . وأحكامه لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما نزلت بالتدرج مسيرة مصالح المجتمع . مراعية تماماً ما كانت تتطلبه احتياجات الدولة ، ومطالب الأمة ، وما يتزاحم أمام تكوينها من المشاكل ، وما يطرأ عليها من المقتضيات التي تتطلب حلاً وعلاجاً . وفق الروح العامة للإسلام .

ثالثاً : أن التعاليم والمقومات التي جعلت للمسلمين كياناً خاصاً لا يمكن أن يفصل بعضها عن بعض ، وبالتالي لا يمكن أن يؤخذ ببعضها ويترك البعض الآخر ، وإلا خرج المسلمون عن طبيعة دينهم ، ولونوه بلون آخر غريب عنه ، فوجهة نظر الإسلام في تنظيم مسائل الحياة ، وفي معالجة المشاكل الاقتصادية ، والاجتماعية ، إذا لم يأخذ بها المسلمون جميعها لا بالإيمان فقط ، وإنما بالعمل والتطبيق لا يمكن أن نطلق عليهم الإسلام بمعناه الكامل الدقيق .

رابعاً : أن الروح التي سيطرت على الإسلام في كل ما أقامه من أسس ، واعتمد عليه من أصول ، أنه كان يسعى دائماً إلى تحقيق الجوهر ، والوصول إلى الغايات في كل ما جاءت تنشده تحقيقه ، وإقامته رسالته الخالدة . ! دون أن يتمسك بالوسائل التي كثيراً ما تتغير وتختلف بحكم الزمن ، وطبيعة البيئة .. وهنا تبرز لنا هذه الروعة العميقة في مرونته ، وهي حرصه دائماً على سعادة البشر ، وعدم إغفاله واقع الظروف ، ومطالب الانسان الحياتية ، فكان النسخ الذي حدث في أحكامه ، وقضياه ، وأوامره وذلك في مدة نزول التشريع الاسلامي وهي تبلغ ما يقرب من اثنين وعشرين عاماً وبضعة شهور .



خامساً : هذا الرباط القوى المكين في انسجام . واتفاق بين المادة والروح . بين حياة الانسان الدنيوية ، وحياته الأخروية ، حتى أننا نلح في سهولة ويسر هذه الصلة المتينة التي لا تنفصم أبداً بين الأمور التعبدية . والسلوك الانساني . . ! فكل ما فرضه من عبادات ، هو في الواقع تغذية للانسان ، وتربية لنفسه وروحه جميعاً لتكون ، ثمرة أعماله طيبة . وليكون ذلك ثمناً يقدمه لفوزه بالآخرة ، فليست نظرة الاسلام أن ، اعطوا ما لقيصر لقيصر واعطوا ما لله لله ، كما دعت المسيحية إلى ذلك . وإنما أن تأخذ الحياة جميعاً ، أن يرتبط الايمان والعبادة بالعمل والخلق . والجهاد المستمر في مشا كل الحياة كلها ، فالرهينة ، والتقشف والزهد في الحياة ، والعبادة ليل نهار ، والتحقير من شأن السعي في الدنيا ، وعدم الحرص على النشاط المادى المشروع كما يدعو إلى ذلك رجال الصوفية اليوم ، وبعض علماء الدين . ! ليس كل ذلك مما يقره الاسلام في شيء . ولنسجل هنا شواهد ناطقة تقرر هذا المبدأ الخطير في العلاقة بين الدين والانسان في حياته التي يحياها ، وما يحيط به من وقائع ضرورية ، والتزامات حياتية لنعلم أن الاسلام جاء متفقاً تماماً مع ما ركب فيه من غرائز ، وإحساسات ، واستعدادات . فلم يدعه إلى مثل عليا ليس من طبيعته أن يبلغها ، وإنما وعى تماماً في كل مادعاه إليه الناحية السيكولوجية في حياته وفي طبيعة السكون الذي يعيش فيه فلنستمع إلى القرآن الكريم وهو يقص علينا ( ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمسائلين



وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا  
والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا  
وأولئك هم المتقون .

والنبي عليه السلام يقرر ارتباط العبادة بالسلوك الانساني عندما  
جاءه وابصة بن معبد يسأله عن معنى البر فقال له النبي عليه السلام : « جئت  
تسأل عن البر ؟ قال نعم قال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس  
واطمأن إليه القلب ، والاثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن  
أفتاك الناس وأفتوك ، وقال في موضع آخر في الحديث الذي رواه أبو ذر  
الغفاري عن النبي قال عليه السلام : « هل لي أن أقول لك ما هو العمل  
الأكثر إقيمة وفضيلة من جميع الصلوات والصوم والصدقات ؟ هو  
الإصلاح بين عدوين ، وروى أبو هريرة أن بعض الناس تحدث إلى النبي  
عليه السلام عن امرأة معروفة بصلواتها وصومها وصدقاتها ، لكن لسانها  
كان يجرح من حولها فقال عنها النبي : « إن مصيرها إلى النار » وأجاب  
عن سؤال « بأن أفضل الاسلام هو إطعام الجائع ، ونشر السلام بين  
عرفت ومن لم تعرف » .

وهكذا نرى أن نظرة الاسلام فيما أوجبه وفرضه من أمور تعبدية  
ليست هي العبادة لذاتها فقط ، وإنما لتكون بمثابة إيماءات قوية لقلب  
الانسان ، وهمسات متواصلة في ضميره ليتمثل في كل أعماله وتصرفاته  
بالعدل ، والحق ، والاستقامة ، وليجعل صلواته بغيره صلوات التعاون  
 والمحبة والسلام ، وليتكون ثمرة إنتاجه فيما يبلوه من الحياة النفع والخير  
لبنى جنسه من البشر أجمعين . ١



هذه الأشياء الخمسة التي ذكرناها ، وما ينطوى تحتها من سمات  
وصفات لا يحصيها العدد كانت بمثابة نقطة تحول كبير في حياة العالم .  
وكانت بمثابة ثورة خطيرة في التفكير البشرى ، وفي علاقات المخلوقات  
بالحالق ... ! فلنستعرض حياة الجزيرة العربية ولنتخلل صفوف العالم  
لنرى ماذا كان يسوده من نظم ، وما كان يكيف به حياته من مبادئ  
وذلك قبيل ظهور الاسلام .

ونظرة يسيرة لأحوال الجزيرة العربية تظهر لنا بوضوح لا يقبل  
الشك هذه الحياة الجاهلية الغاشمة التي كان يحياها عرب الجزيرة . فكان  
قانونهم السلب ، والنهب ، والاعتداء ، والاغارة على المستضعفين الذين  
لا يملكون وسائل القوة لدفع الضرر والأذى عن أنفسهم ، وأعراضهم  
وأموالهم ... ! وكانت حياتهم الاجتماعية في منتهى الفوضى والانحطاط .  
فوأد البنات خشية الاملاق سائد بينهم ، والصلات الجنسية غير  
المشروعة ليست محرمة عليهم بقانون ، ولا عرف ، ولا تقاليد ... !

وأصدق شيء يصور حياة العرب في الجاهلية ما نقله عن بعض  
المصادر الوثيقة التي بين أيدينا ، وهي أنه لما هاجر المسلمون إلى الحبشة  
خوفاً من اضطهاد قريش لهم خشى زعماء قريش مغبة هذه الهجرة .  
وخطر ما عليهم فبعثوا برسولين إلى نجاشي الحبشة ليعمل على رد هؤلاء  
المهاجرين إلى ديارهم وقومهم ، وكان الرسولان هما : عمرو بن العاص ،  
وعبد الله بن أبي ربيعة فجمع النجاشي المهاجرين في مجلسه مع الرسولين  
ليعلم حجة كل من الطرفين . واستمع إلى عمرو بن العاص وهو يعرض  
رأى قريش فقال : « أيها الملك . إنه قد ضلّى إلى بلدك منا غلمان



سفهاء ، فارقوا دين قومهم . ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين  
ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف  
قومهم من آباؤهم ، وأعمامهم ، وعشائرتهم . لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم  
عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

فالتفت النجاشي إلى المهاجرين يسألهم : « ما هذا الدين الذي فارقتم  
به قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ، ؟  
قام جعفر بن أبي طالب يوضح له فقال : « أيها الملك . كنا قوما أهل  
جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع  
الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . . فكنا على  
ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ،  
وعفافه ، فبدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ؛ ونخلع ما كنا نعبد نحن  
وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ،  
وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم  
والدماء ؛ ونهانا عن الفسواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ،  
وقذف المحصنات ؛ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ؛ وأمرنا  
بالصلاة والزكاة والصيام . . . الخ .

وروى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : « كنا نعبد الحجر ،  
فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد  
حجراً ، جمعنا حشوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فخلينا عليه ثم طفنا به .  
وقال السكبي : « كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار



فنظر إلى أحسنها فاتخذته رباً ، وجعل ثلاثاً أسافى لِقَدْرِهِ ، وإذا ارتحل تركه .

هذه كلها صور تبين لك مدى الجهل ، والانحطاط ، والإسفاف الذى كان مسيطراً على العرب مؤثراً فى حياتهم الدينية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والنفسية ، فإذا بالإسلام يأتى فيرسم لهم طرقاً أخرى فى الحياة ، فيخرجهم من حياتهم هذه المظلمة القائلة إلى حياة سامية ممتازة ، تعطيهم القوة والكفاءة لقيادة العالم البشرى فى طريق السمو ، والنضوج والكمال .

وهكذا رأينا هؤلاء البدو الرحل غير المستقرين ، والذين كانوا فى شبه عزلة عن العالم ، والذين كانت معيشتهم فى منتهى القسوة والشظف لطبيعة بلادهم القاحلة الجذباء ، الفقيرة فى كل مصدر من مصادر الثروة ، وفى كل منبع من منابع الإنتاج . . رأينا هؤلاء العرب البدو بعد أن لمس الإسلام قلوبهم ، واتصل بشعورهم الواعى ، وسيطر على آفاق تفكيرهم ، ومجرى حياتهم يعطون للعالم أروع المثل فى الخلق الكريم ، والعدل المطلق ، واليقظة التامة ، والارتفاع بالكرامة البشرية التى كانت متهنة مهيضة ، تكاد تلفظ نفسها الأخير . فالإيمان بالمبدأ ، والاستشهاد فى سبيله ، والحرص على إقامة الحق ، وإحياء العدل ، وعدم الاعتداء على الغير ، وإنما رد العدوان فقط ، وعدم الاكراه فى الدين هى الإيحاءات القوية ، والأوامر الصريحة التى ما قىء القرآن يرددها ويدعو إليها أتباعه .



قال المستشرق المعروف أميل درمنغم :

« وفي (١) الغالب يقابل بين وضع المسلمين الأولين ، والنصارى الأولين . أجل إن في دعاء الشهيد النصراني الأول القديس اتيان لجلاديه ما يثير العجب أكثر مما يثيره الشهيد المسلم الأول خبيب بن عدى الذى دعا على قاتليه بقوله : ( اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً ) ، ولكن كلا الرجلين قد مات في سبيل إيمانهما راجعين نيل الشهادة ، وهذا مع النظر إلى اختلاف الأحوال في الأمرين لا في المبدأ . فأما في الدولة الرومانية الكثيرة التمدن ، فقد كان قدماء النصارى العزل من السلاح من أبناء بلاد ذات حكومة منظمة ، وإن شئت فقل : كانوا من رعايا قيصر الذى أمر عيسى بأن يعطى له ماله . فكان يحكم عليهم كما حكم على سقراط ، وأما في جزيرة العرب التى كانت أمور الناس فيها فوضى ، والتى كان أهلها مفرقين إلى قبائل وعشائر محارب بعضها لبعض فكان الانسان لا يخرج فيها من منزله إلا حاملاً سيفه أو حربته ، فكان المسلمون يدعون إلى الحرب دعماً بفعل منطق الهيبة وسير الأمور ، وكانوا إذا ما حاربوا فلحقهم في الدفاع المشروع عن أنفسهم .

لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف فى القرآن : ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ) ، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال ، وبألا يبدأوا بالاعتداء ، وما تجده فى القرآن من الآيات المبثوثة فى سورة على غير ترتيب حول الجهاد ، فتشير إلى حوادث ذلك الزمن

(١) حياة محمد لأميل درمنغم ترجمة عادل زعيتر ص ١٦٦ .



الراهنة . وإلى ما كان يجب على محمد أن يسلكه هو وأصحابه في المغازى تبعاً لتبديل الأحوال ، ولذلك نرى أنه ليس من الشريعة شمول تلك الآيات واستخراج مبدأ عام منها ، وذلك إلى ما كان يقع من اختلاط المصالح المادية بأمور الإيمان . وطفو تلك على هذه عند العمل في الغالب ، وتحول الجهاد من وسيلة إلى غاية . والتضحية بالروحي من أجل الزمى .

وكان بعض المسلمين منذ زمن محمد . لا يرون في الجهاد غير وسيلة لأخذ المغنم . فكانوا إذا لقوا في طريقهم إلى غزوة ، رجالاً قتلوهم من غير أن يتثبتوا ، عادين إياهم من المشركين تسويغاً لما صنع بهم . فجاه القرآن ينهى عن ذلك ويدفعه بشدة ، وإذا كان محمد يفرط في القسوة عند اشتباك الفريقين ، وإذا كان يقابل العدوان بالعدوان . والمكر بالمكر ، فإنه قلما كان يقسو في حالة دعتيه ، بل كان يبدو معتدلاً إلى الغاية ، كما يشهد بذلك أمره حين فتح مكة . فقد أبدى في أثناء هذا الفتح من الكرم وعظمة النفس ما لا تجد مثله في التاريخ إلا نادراً .

وكان محمد يوصى جنوده بأن يرحموا الضعفاء والشيوخ والنساء والأولاد ، وكان ينهى عن هدم البيوت ، وإهلاك الحرث ، وقطع مشمر الشجر ، وكان يأمر بالآيسل مسلم حسامه إلا عند أقصى الضرورة ، وسنرى أنه أنهى باللائمة على بعض رجاله (١) فعوض بالمال عما اقتترفوه

---

(١) يعنى بذلك خالد بن الوليد الذى كان من أشجع قواد المسلمين . والذى اطلق عليه بحق سيف الله المسلول ، وذلك عندما أخذ بثأر قريب له من بنى جذيمة فأمنح فيهم قتلاً بقتسوة ، وصرامة . ولم تأخذه بهم شفقة ، ولم يراع في ذلك =



وهو الذي كان يرى أن النفس الواحدة خير من كل الغنائم ، انتهى .

هذه هي حياة العرب وأخلاقهم قبل الاسلام . وما صارت إليه بعده . والبحث يقتضينا قبل أن نستطرد في الكلام عن المراحل التي أمسك فيها الاسلام بقيادة السفينة البشرية فأدار دقتها نحو الحق ، والعدل ، والسمو بالانسان ، إلى أن تحولات من يده إلى يد أخرى ، لظروف خارجة عن إرادته ..! نقول البحث يقتضينا قبل ذلك كله أن نستعرض هنا حالة العالم من الواقع التاريخي لتصوره ، لنرى ما كان يتفاعل فيه من عوامل الخير والشر ، وما كان يسيطر عليه من دواعي القلق والاضطراب ، أو الهدوء والاطمئنان .. لنرى ماذا أفاد العالم أو خسره بتأثير هذه الرسالة الجديدة الخالدة في مجريات حياته ، وفي أعماق نفسه ..!

والواقع التاريخي يقرر لنا أن العالم خلال القرنين السادس والسابع الميلادي كان في حالة مفزعة من الجهل ، والتأخر وتناحر الطبقات ، حتى أن القانون الروماني الذي يعتبره كثير من المؤرخين

---

= الحدود التي رسمها النبي في القتال . ولا آداب الحروب التي كان يأخذ بها المسلمون في حروبهم في الغزوات ، فلما نبى النبي بما صنع خالد استقطع عمله . وظهر عليه الغضب والاشمئزاز ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال في جم غفير من المسلمين : « اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد » منسكراً عليه هذه الروح الجاهلية الفاسدة التي لم تراع عرضاً ، ولا طفلاً ، ولا شيخاً . وهذا ما يتنافى بدون شك مع آداب الحروب الاسلامية التي تنهى عن الحيانة ، والعدو ، وعن التمثيل بالقتل ، وعن التعرض لشيخ قعيد ، أو امرأة ، أو طفل ، بل حتى عن العبث في منابع الرزق للأعداء المحاربين التي تتمثل في قيمهم المنقولة أو غير المنقولة .



مفخرة البشر ، والذي كان مؤثراً في حياة معظم العالم وقتئذ كان لا يخلو من الظلم ، وعدم الاعتراف بالمساواة ، والعدالة العالمية .. وإذا ما لاحظنا أن الفلسفة ، والتفكير الإغريقي قد هذب من هذا القانون بعض الشيء . وقد خطا به خطوات كبيرة نحو الإيمان بالحق ، وعدم التلون مع الأغراض إلا أننا نجده حتى بعد أن طعم بهذا التفكير الإغريقي الذي قام على المحبة ، والعدالة ، كان يبرر السيادة على الأمم الضعيفة ، واستعبادها وكان يحدد بالمساواة العالمية لأن الله خلق العالم طبقتين كما تذهب إلى ذلك الفلسفة الإغريقية . طبقة الأسياد وهم الإغريق . وطبقة العبيد وهم غيرهم من الأمم الضعيفة .. وإذا ما نظرنا إلى نوع من العدالة تكيف به القانون الروماني في تطوره التاريخي وجدناه لم يكن مدفوعاً إلى ذلك من تلقاء نفسه ، أو من تلقاء القائمين عليه حباً في الحق والعدالة . وإنما كان مضطراً إلى ذلك اضطراراً بفضل ضحاياهم العديدين من أبناء الشعب الذين كان ينصب عليهم من أسيادهم الظلم ، والاستعباد كما أشبع ما سجلته الإنسانية في تاريخها الطويل .. ولنذكر هنا من واقع التاريخ صوراً تفضح قصور هذا القانون وعيوبه بالرغم من أنه ما زال مؤثراً في حياة البشرية إلى وقتنا هذا ، ! وهذه الفقرات نقلها من مؤلف ظهر حديثاً بعنوان « أساس العدالة في القانون الروماني » ، وقد نقل مؤلفه عن العلامة « تيت ليف » ، ما يلي :

قال « نارت نائرة (١) العامة لأنهم يحاربون في سبيل حياة روما

---

(١) راجع كتاب أساس العدالة في القانون الروماني للدكتور علي حافظ



وسياستها وهم مع ذلك عبيد أذلاء في المدينة ، وقد أوقد هذه العداوة شيخ كبير ، اندفع إلى « الفورم » يئن بما به من بلاء ، وكان ثوبه ملوثاً بالأقذار ، وكان جسده شاحباً منهوك القوى ، وكان مغفر الشعر ، واللحية ، فكشف عن الجراح التي لقيها في القتال ، ولما سئل ما باله يهيم مشوهاً على وجهه . وقف بين الناس كأنه خطيب سياسي ، وشكى جذب أرضه التي اكتسحها العدو ، وهدم داره التي حرقها ، وضياع ماله الذي سلب ، وما فرض عليه من جزية في زمان عسير ، وما تراكم عليه من رباً أكل حقه الموروث عن أبيه ، وجده ، وذهب بسائر ماله ، وامتد الربا كالوباء إلى جسمه . فلم يسقنه الدين إلى العبودية وكفى ، بل طوقه بالأغلال ، والأصفاد ، وساقه إلى السجن والتعذيب . ثم كشف عن آثار السوط المعلمة في ظهره ، فتصاعدت عند ذلك صيحات الساخطين إلى كبد السماء ، ولم ينحجز الثائرون « في الفورم » ، ولكنهم انقضوا يجتاحون المدينة ، وأكروها القناصل والأشراف أن يبتوا في أمره . وأحاط بالمدينة خطر خارجي يهددها ، فألزم « السنات » تحت هذا التهديد من الداخل والخارج أن يقرر أنه لا يحل لأحد أن يضع في السجن والأغلال مواطناً رومانياً حتى لا يمنعه من أن يقيده اسمه في سجل الجند لدى القناصل ، ولا يحل لأحد أن يحوز أو يبيع مالا لجندي طالما كان تحت السلاح ، ولا أن يقاضى أبناءه ، ولا أحفاده ، ولم تكن هذه الصورة إلا مثلاً لذلك النضال يوم صارت العامة قوة متجمعة في المدينة يشاركون في بناء سلطان روما بمالهم ودمائهم وهم مع ذلك مستضعفون يحملون أعباءً ثقلاً . . . فقد ناموا بالديون والربا ، ولم



تسكن لهم حماية من الدائنين لأن الانسانية يومئذ كانت تأخذ الغريم  
بدينه ، وذلك بأن الغرماء لم تسكن لهم أموال ترد عنهم ديونهم فضمنتها  
أبدانهم ، والمدين الذى لا يرد دينه يسمى هبداً لدائنه ، فيبيعه ، ويعذبه ،  
ويملك فيه حق الحياة والموت ، وكان تاريخ القروض فى ذلك الزمان  
تاريخاً لآلام الانسان وجهاده فى سبيل حريته ، ولسنا نملك برهاناً على  
مدى آلام العامة من ديون تفرضها المدينة على العامة ، ويستدينها العامة  
من الأشراف كأنما يدفعها الأشراف باليمين ليأخذوها بالشمال ،  
ويدخلون المدينين المعسرين فى ملكيتهم الخاصة ، ولم يكن للربا حد  
معلوم ، ولم يكن للعامة قضاء على الأشراف ، ولم يكن لهم عاصم من  
العذاب . وقد أبقى لنا المؤرخون والفقهاء حديثاً مشهوداً فى تاريخ هذه  
الحقوق . فقد جمعت الآلام كلمة العامة فاعتزلوا روما ، وأووا بجموعهم  
إلى الجبل المقدس حتى تقر لهم المدينة بحقوق ظاهرة معلومة تكون  
بينهم وبين الأشراف عقداً مكتوباً ، وهداً لا يتعداه الدائنون ، واعترف  
الأشراف بطرف من الحقوق فى قانون الاثنتى عشرة لوحة ، ومع ذلك  
لم تسكن هذه الحقوق إلا خطوة ضيقة فى سبيل حرية الانسان ، وهى  
أدنى إلى تخفيف العبودية من إقرار الحرية للعامة . فقد نالوا حينئذ أن  
لا يتجاوز الربا ١٢ ٪ فى السنة . وأن يستبقى الدائن مدينه ٦٠ يوماً قبل  
أن يبيعه عبداً ، أو يقطعه إرباً . . . .

واستمر أشراف روما سادرين فى بيعهم وظلمهم ووحشيتهم التى  
لم يرو التاريخ لها مثيلاً حتى استطاع العامة المضطهدون أن يغيروا هذا  
القانون ، وأن يفكوا الأغلال التى ظلوا مصفدين فيها أزمنة طويلة



سحيفة في البعد ، وكان ذلك « بفعلة (١) رجل من المرابين ، وكان فظاً غليظ القلب ذا شهوة دنيئة ، فاستسلم لأغلاله شخص يدعى « بوليبيوس » ليكفل دين أبيه ، وكان « بوليبيوس » فتى جميلاً أهلاً لأن يستدر بحماله وشبابه الرحمة ، ولكنه أوقد جذوة الشهوة والحطة في نفس ذلك المرابي فحسب أن زهرة ذلك العمر ثمرة دائمة لدينه ، فطفق يعزى هذا الفتى بكلام فاحش ، فتصام الفتى عن الغنى فحمل عليه المرابي بالذير والوعيد ، وجعل يذكره بأصله ، وسوء حاله ، ولكن الفتى أصر على أن يستمسك بذكر ما وهبته الطبيعة من سمو ، واحتقر الأقدار التي أردته ذليلاً ، فأمر به المرابي أن يعزى ، وأن يجلد ، فمزقت الشياطين جسده ، فانطلق في المدينة يستصرخ الناس من فحش ذلك المرابي ، ومن وحشية قلبه ، فتبعته أفواج من الناس تراثى لشبابه ، وتستنكر ذلك الظلم ، وخافوا أن يمسهم هم وأبناؤهم مثل ما أصاب ذلك الفتى ، وجمعوا جموعهم في « الفورم » ، وعدوا إلى مجلس « السنات » ، وباغتوا القنصلين بشورة قائمة ، ف عقد مجلس « السنات » ، وكلما جاء شيخ من أفراد « السنات » وقع الثائرون على قدميه باكين ، وكشفوا له عن ظهر ذلك الفتى الممزق ويومئذ قضت مظلمة فرد على أغلال المعاملات ، وشرع يومئذ قانون حرم أن يوضع فرد في الأصفاد ، والأغلال ، إلا من ارتكب جرماً حكماً فيه القضاء بحكم يستوجب الأغلال ، والأصفاد ، وحرم أن يجعل لدائن سبيلاً على أشخاص المدينين ، فليس لهم حق إلا على أموال

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .



المدينين . فحلت أغلال المدينين جميعاً ، وحرّم بعدئذ أن يغل مدين ، انتهى .

هذه هي حياة الدولة الرومانية في تشريعاتها ، ونظمها الاجتماعية والاقتصادية ، وهي التي انتقلت بدورها فيما بعد إلى روما المسيحية . وبذلك تلونت روما بلون جديد ، واصطبغ قانونها بالصبغة المسيحية . والظاهرة التي نلمسها بعد أن سيطرت المسيحية على روما ، وأصبحت هي الدين الرسمي لها أن السلطات التي كان يزاولها قياصرة روما انتقلت إلى يد البابوات ، ورجال الكنيسة ، وبذلك أصبح القانون الروماني موقوفاً على خدمة أغراض المسيحية فقط ، وتدخلت المسيحية في خاصة الشؤون الخارجية والداخلية للأهم التي تدين بالمسيحية . ! حتى إن البابا استخدم نشاطه الديني الملحوظ للتحكم في تيجان الملوك والأمراء :

« فهنرى (١) الرابع » ملك الرومانيين الذي توج إمبراطوراً ، وهو أقوى ملوك المسيحيين بأساً ذهب ذليلاً خاضعاً إلى ( كانوسا ) سنة ١٠٧٧ م لاستعطاف البابا « جريجوار » السابع ، واسترضائه ، لما أنذره البابا بأنه إذا لم يحضر إلى روما للتوبة عن خطاياها وعن سوء حكمه خلعه .

هذا الإذلال الذي بقى فيه هنرى الرابع في الثلوج عارى القدمين في فناء محكمة « السكونتس ماتلدا » بالقرب من ريجيو في جبال أنباين منتظراً إذن البابا بالدخول إليه ليغفر له ذنوبه لم يبق بعده هيبية للتاج ،

---

(١) واجبع القانون الدولي العام لعلى ماهر باشا ص ٥٩ ، ٦٠ .



ولم يتمكن بعده للإمبراطور أن يدعى أنه الرئيس الأعلى في العالم ، ولا أنه غير مسئول إلا أمام الله ، وعلى الضد من ذلك ادعى البابا النيبابة عن الله في الأرض ، ومزج العملاقة الروحية بالسلطان . كما ادعى أن الجنس الإنساني رعاياه . وأن الملوك مسئولون أمامه ، وأن له خلقهم لأنه هو الذى يوجدهم . . . . في مثل هذا الجو الخائق المقيد للحريات لفظ القانون الرومانى نفسه الأخير ، وأوقف تطوره التاريخى نحو إقامة الحق ، والمحافظة على العدل الإنسانى ، ومحاولة تكميل النقص ، ومحو الظلم الذى كان يزرع تحته ، عندما كان يخضع لحكم أشرف روما القديمة ، والمصادر التى بن أيدينا تذكر فى وضوح أن الانحلال الخلقى ، والقلق الاقتصادى بلغ نهايته فى الدولة الرومانية فى القرنين السادس والسابع الميلادى . فبالرغم من القضاء على الحرية الفكرية والنشاط العقلى ، ووقوف المعرفة حول مناقشات دينية متناقضة فى طبيعة المسيح وهل له طبيعة واحدة وهى الطبيعة الإلهية التى تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية أو طبيعتين وهى ازدواج طبيعة المسيح بطبيعة الإله .

بالرغم من كل ذلك فقد « بلغ (١) الانحلال الاجتماعى غايته فى الدولة الرومانية الشرقية على كثرة مصائب الرعية ، وازدادت الإناوات ، وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يتدمرون من الحكومة ، ويمقتونها ممتاً شديداً ، ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، وكانت الإيجارات والصادرات ضعفاً على إباله ، وقد حدثت

---

(١) راجع كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد أبى الحسن



لذلك اضطرابات عظيمة وثورات ، وقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة وحدها ، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة . أسرف الناس ، ووصلوا في التبذّر إلى أحطّ الدرجات ، وأصبح لهم الوحيد اكتساب المال من أى وجه ، ثم إنفاقه في التظرف والترف وإرضاء الشهوات .

لقد ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق ، حتى صار الناس يفضّلون حياة العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية ، وكان العدل كما يقول ( سيل ) يباع ويساوم عليه مثل السلع ، وكانت الرشوة والخبانة تنالان من الأمة التشجيع .

يقول ( جيبون ) وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحه عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولا .

هذه هى حالة الدولة الرومانية في القرنين السادس والسابع الميلادى وإذا كنا قد أسهبنا فى دراستها بعض الشيء ، وعرضنا عليك صوراً لتشريعاتها القانونية ، وحياتها الاجتماعية والخلقية . فذلك لأن هذه الدولة التى ورثت حضارة الإغريق . كانت فى الواقع تمثل الحضارة الإنسانية أصدق تمثيل .! ولولا ظروف قاسية اعترضتها فوجهتها وجهه أخرى بانتقال كل السلطات الدينية والدينية إلى أيدي الكنيسته ، مما أوقف القانون والفكر لخدمة أغراضها أول الأمر ، ثم من استشهاده



بين يديها آخر الأمر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع الميلادي كانت في حالة خطيرة من الفساد ، والانحلال الشديد . . . ! نقول : لولا هذه الظروف القاسية التعسة لكان للعالم البشري شأن آخر غير ما رزح تحته من الظلم والجهل والانحطاط حقباً طويلة .

وإذا ما وجهنا نظرنا إلى أمم أخرى من العالم ، بمن ينطبق عليهم معنى الدولة ، ومقوماتها وقيمتها . نجد دولة الفرس ، والصين ، والهند . وهذه الدول بدورها كان يسودها الفساد الخلق ، والتفاوت الطبقي ، والإفلاس في الوعي بحقائق الحياة كأدق ما يفهم من هذه الكلمة . فالملوك الذين تداولوا حكم فارس كانوا يعتقدون بأنه يجري في عروقهم الدم الإلهي . وكانت رعيتهم تعتقد معهم في ذلك فكانوا يُكفرون لهم عن ذنوبهم ، وينشدون في احتفالاتهم الأناشيد الدينية بألوهيتهم باعتبارهم فوق البشر . . . والمجتمع الإيراني الذي يمثل عهد الساسانيين كان يشوهد نظام طبقى شديد القسوة يحمل في طياته التفاوت المفزع في الحقوق والواجبات ، وحظوظ الحياة لأفراد المجتمع . لأنه كان مؤسساً على اعتبار النسب والحرف وما تستحقه كل طائفة من حقوق لا تتعداها ، ومن منزلة لا تطمع في الارتفاع إلى أرقى منها . . . فكانت (١) الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه إياه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفته من

(١) المصدر السابق .



وظائفهم . وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع .

أما الصين فإنها قد تخلفت دون الأمم القديمة عن أن تؤثر في حياة العالم بنظم وتعاليم جديدة لأنها كانت فقيرة في ذلك كل الفقر حيث لم يبعث فيها نبي أو رسول . وإنما كان زعمائها الدينيون وهم غالباً من المعلمين يقفون عند رسم السلوك الإنساني فقط ، ولا يتعدون في تفكيرهم وتعاليمهم هذه الحدود .

وإذا ما دققنا النظر في عقائد الصين الساذجة نجد أنها لم تتخط المرحلة البدائية لحياة الإنسان الأول ، فلم يتوفر لها أي شيء من الوعي في فهم حقيقة الكون ، ومعنى الوجود ، وإنما كانت دياناتها ديانات محلية محدودة لم تتخط حدود الدولة الصينية إلى غيرها من الأمم والشعوب لأنها في حقائقها ، وأصولها لم تحمل شيئاً جديداً للعالم ، ولم تختبر فيها عناصر قوية ، وبواعث ارتقائية تضيف إلى ثروته في الوعي بحقيقة الوجود شيئاً ، أو تخطو به خطوات نحو التقدم والرقى .

وأظهر الديانات التي كانت تسود الصين حتى القرن السابع الميلادي هي ديانة « لادتسو » - « والسكونفو شيسية » وبالرغم من أنهما اتفقتا في عبادة الأوثان إلا أنهما اختلفتا في تعاليمهما وتكليفهما لمعنى الحياة .

فأتباع « لادتسو » كانوا زاهدين متقشفين يستمرنون حياة الذلة والمسكنة ، واحتقار النفس البشرية ، فلا يتزوجون ، بل يحرمون النظر إلى النساء والاتصال بهم على أي وضع من الأوضاع .



أما أتباع « كونفوشيوس » فكانوا على النقيض من ذلك يحتفلون بالحياة المادية ، ويعملون المنفعة الملموسة هي وحدها أساس اعتقاداتهم . فالتفكير الميتافيزيقي ، والبحث فيما وراء الحس لم يحتل أدنى حيز في تفكيرهم ، وإنما تكونت عقائدهم من جملة آراء ، وتعاليم لمعلمهم « كونفوشيوس » حتى انتهى بهم الأمر أخيراً إلى عبادته ، وإقامة التماثيل له بعد موته ثم التقرب إليها زلفى . . . ! ومن هذا نرى أن التطور في الديانات لم يصل إلى البيئة الصينية ، وإنما وقفت عقائدها جامدة لم ينلها شيء من سنة التطور والارتقاء . ولذلك ظلوا أزمنة طويلة يعبدون الأسلاف والأبطال ، وكانت أرواح (١) أسلافهم مقدمة بالرعاية على جملة الأرواح التي يعبدونها ، ويمثلون بها عناصر الطبيعة . أو مطالب المعيشة ، ولا يقدر الصيني قرباناً هو أعلى في قيمته ، وأحب إلى نفسه من قربانه إلى روح سلفه المعبود ، وهو يحتوي الأغذية ، والأشربة ، والأكسية ، والطيوب ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلى كل شيء كانت تحتاج إليه وهي في عالم الأجساد .

والخير والشر عندهم هو ما يرضى الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم ، فما أرضى السلف فهو خير ، وما أسخطهم فهو شر . وقد يختارون فرداً من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ، ويزدلفون إليه ، ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد .

(١) كتاب « الله » لبقاد ص ٧٩ .



أما الهند فكانت تمثل في ذلك الوقت منتهى التأخر والانحطاط الذي سجله التاريخ في كل عصوره المختلفة ، فمن آلهة كثيرة متعددة تسمى بأسماء القوى الطبيعية المختلفة مثل إله المطر ، وإله النار ، وإله النور وإله الريح ، وإله البحار ، إلى استخدام بعض الديانات لخدمة الأغراض الجنسية المنحطة ، فلقد كانت بعض الفرق الدينية في الهند « تعبد (١) النساء العاريات ، وكانت النساء يعبدن الرجال العراة ، وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يرزءون الراهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيبته . »

وإذا كانت الديانة البرهمية ، وهي التي سادت الهند ، وما زالت مسيطرة على عقائدها حتى الآن ، قد تحللت ، من عبادة الأسلاف ، والأوثان ، ووصلت إلى التوحيد على نحو ما ، فإنها لم تخل من التعصب الأعمى ، والحقن الدفين ، وتبرير النظام الطبقي على أبشع صورة ، حتى أن البوذية التي بشر بها « بوذا جوتاما » قبل المسيح بخمسة قرون ، والتي قامت في أساسها على تبسيط العقائد البرهمية وتلطيفها ، لم تستطع أن تصمد طويلا أمام تغالى البرهمية ورجعيتها ، على الرغم من أنها لم تنقض أصلا من أصولها ، أو تنقض على ركن من أركانها . وإنما تميزت عنها فقط « في تبسيط (٢) العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون في المحاريب إلى المدرسة

(١) كتاب ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لسيد أبي الحسن الندوى .

(٢) كتاب الله للعقاد ص ٧٤ - ٧٥ .



والبيت وصفوة المريرين ، ولا تعتبر البوذية إضافة في صميم العقائد الدينية ، بل إضافة في آداب السلوك ، وفلسفة الحياة ، وإضافة في عرض الآراء على غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمخرب « .

ولكن الشيء الذي يسترعى التفاتنا أكثر أن النظام الطبقي الذي طبق في الهند واستمد عناصر وجوده من أصول الديانة البرهمنية قد قسم العالم إلى أربعة أقسام :

( ١ ) البراهمة : وهم طبقة الكهنة ، ورجال الدين .

( ٢ ) شترى : وهم رجال الحرب .

( ٣ ) ويش : وهم رجال الزراعة والتجارة .

( ٤ ) شودر : وهم رجال الخدمة .

وهذا التقسيم قائم على أساس أن الإله خلق لمصلحة العالم « البراهمة (١) من فمه ، وشترى من سواعده ، ويش من أخفافه ، والشودر من أرجله ، ووزع عليهم فرائض وواجبات لصالح العالم . فعلى البراهمة تعليم « ويد » أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس ، والتصديق ، وتقديم النذور ، ودراسة « ويد » ، والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة ، والقيام بخدمتها . وتلاوة « ويد » ، والتجارة والزراعة ، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث » .



« وقد منح القانون الهندي طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقهم بالآلهة ، فقد قرر أن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق وأن ما في العالم هو ملك لهم ؛ لأنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ولهم أن يأخذوا من مال عبدهم شودر — من غير جريرة — ماشاءوا ؛ لأن العبد لا يجوز له أن يملك شيئاً وكل ماله لسيده . »

هكذا قطعنا هذه المرحلة في تصوير حياة الجزيرة العربية ، وفي تصوير حياة العالم أجمع لنتبين موقف الإسلام ، ونستظهر مكانته وسط ذلك كله . ثم نمضي معه في طريق نموه ، وسيطرته على العالم بما أقامه من أصول حضارية ، وما دعا إليه من مبادئ وتعاليم ، وتصوير للعلاقة بين الخالق والمخلوق ، أو بين المخلوقات بعضهم بعضاً ، وما شرعه لهم من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية بلغت في وعيها ، ونضجها ، وهضمها للواقع الطبيعي ، وللتقدم البشري المثل الأعلى للحياة .

ولكننا نحب قبل أن نمضي في رحلتنا تلك فنجتاز مع الإسلام المراحل التي قطعها مؤثراً في حياة العالم ، مكيفاً له نظراته ، وحكمه على الأشياء ، والأمور والناس وكل كأن آخر من الكائنات إلى أن وقفت أمامه عقبات صلبة ، وطرات عليه عوامل خارجية حالت بينه وبين التقدم والازدهار ، ثم زحزحته آخر الأمر عن مكان قيادة البشرية إلى يومنا هذا . . . نحب قبل كل ذلك أن نرجع أولاً إلى ما سجلناه أول هذا الفصل من خصائص ذاتية للإسلام لنرى كيف واجه بها العالم الذي أريناك صورة صادقة لما كان يعتمده من عوامل الجهل ، والتأخر ، والانحطاط .



وأصدق ما ينبغي أن نقرره هنا أن الإسلام أحياء الوجود البشري وحرره من جميع البواعث الاستعبادية سواء كانت متسربة إليه عن طريق العقائد الموروثة أو متسلطة عليه بحكم الأوضاع الاجتماعية ، والاقتصادية .. وليس بصحيح ما يذهب إليه بعض الفلاسفة والمستشرقين الغربيين من أن الإسلام صور العلاقة بين الخالق والمخلوق بالعبودية فرسخت بذلك في نفوس المسلمين مشروعيتها ، وانحطت من جراء ذلك حريات الإنسان ، ومداركه ، وعزة نفسه ...! ويستنتج هؤلاء من ذلك أسباباً لضعف المسلمين يرجع معظمها إلى فقدانهم الحرية الشخصية ، وتأخرهم باستمرارهم حياة العبودية لحكامهم الذين كانوا يزعمون استمداد سلطاتهم من الله مباشرة .

وجوابنا على هؤلاء أنهم لم ينفذوا إلى معرفة الأهداف الرائعة والحقائق السامية فيما صوره الإسلام في الوحي المقدس ، وفي الأحاديث النبوية الكريمة من العلاقة والصلة التي تربط العالم بالإله خالق الكون ، ومنظم الوجود بحكمة خبير بصير .

فالواقع التاريخي ، والحكم الصحيح على الأشياء والنفسيات والأمور جميعاً يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن تصوير الإسلام للعلاقة بين الخالق والمخلوقات كانت في جملتها وتفصيلها على الضد من ذلك في كل شيء ، لأن الإسلام نزل ، والوعي الإنساني لم يكن قد بلغ مرحلة الإيمان بالمساواة المطلقة بين الجنس البشري ، وأن الناس جميعاً خلقوا من طينة واحدة ، لأنهم كانوا يؤطون من بينهم أفراداً ، أو يعتقدون أنهم من فصيلة أرقى منهم وأزكى وأطهر . وهذه الآيات التي أتى بها الوحي الكريم في



الكتاب المقدس مثل «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، . ومثل « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » . ومثل « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ... » ، هذه الآيات التي خاطب الله فيها الناس بكلمة عبادة هي في الواقع تحرير للإنسان ، وارتفاع بكرامته البشرية ، وتخليص له من كل ما كان مسيطراً على عقله ، وتفكيره وضميره . فالإنسان حر ، قوى غير خاضع لشيء ولا لأي كائن من الكائنات مهما كانت سطوته وجبروته . فقوى الطبيعة بمظاهرها العظيمة التي كان يقف أمامها مندهشاً مهوراً فيعظمها ويؤهلها مُسَخَّرَةً له ، وباستطاعته أن يقهرها ويستخدمها في خدمة أغراضه ومنافعه ، وغيره من الناس مهما امتلكوا من المال، والسلطان ، والجاه لا يزيدون عنه ، ولا يفضلونه بشيء ، وإنما هو وسواه من أفراد الجنس البشري سواء في الخلقة وفي الحقوق والواجبات . وأفضلية بعضهم على بعض لا تأتي إلا عن طريق الخلق النبيل ، والعمل الصالح ، والإنتاج المفيد لخير الإنسانية .

فالخضوع ، والذلة ، وقتل الحرية ، والكرامة البشرية التي كانت سائدة العام عن طريق الوراثة ، وعن طريق العادات ، والتقاليد التي نشأت في أول أمرها من عبادة الأسلاف ، والأوثان ، والتي انحدرت إليه من عهود الجهل ، والظلام ، وبدائيته الأولى . مما لم يستطع أن يتخلص منها في جميع أطواره التاريخية حتى بعد أن سادته العقائد الراقية ،



والفلسفات المهذبة ، لأن بني إسرائيل كانوا يعطون لأنفسهم الفضل على غيرهم باعتبارهم شعب الله المختار .

والفلسفة الإغريقية التي سبقت نزول المسيحية ، وازدهرت ، وأثرت في تاريخ العالم ، وكيفت حياته تكييفاً آخر كانت بدورها تجحد بالمساواة ، وتقسم العالم إلى سادة وعبيد ، ثم نزلت المسيحية ، ولكنها لم تتخلص من الكهنوتية الدينية ، التي شرّعت الاعتراف ، ومنحت القسس والرهبان سلطة التوبة ، وغفران الذنوب ، وتقدير الجزاء والعقاب ، ومنح السعادة في الآخرة .

كل ذلك قضى عليه الإسلام بتقريره العبودية لله وحده قضاء لاهوادة فيه .

فتقرير الصلة بين الإنسان وخالقه في القرآن هي أرقى وأروع ما وصل إليه الاعتزاز بالإنسان ، وإشعاره بكرامته وقوته لأنه ليس هناك من شيء مهما عظم بمستطيع أن يخضعه أو يذله ، أو يستعبده ، فتحرير وجدان الإنسان وعقله ، ونفسه من تقديس أى شيء ، والذلة والخضوع له ، وإهدار إنسانيته في سبيله . هي الإيحاءات القوية ، والأسس القويمة التي أقامها الإسلام لتصوير العلاقة بين الإله والإنسان فليست تصوير العبودية هنا قائمة على الملكية ، والخوف ، والبطش ، والرهبنة ، كما فهم ذلك بعض المستشرقين ، والمنحرفين من رجال الصوفية ، وإنما هذا التصوير ، وهذا التحديد للعلاقة في الإسلام لا تفيد إلا تخليص الإنسان من الذلة والخنوع ، والخضوع لأى شيء ، ولأى



كائن مهما كانت قوته وجبروته عدا الله الذي يتساوى أمامه الكل ،  
والذي يرعى المحسن الصالح ، ويحبه ، ويكون أقرب إليه من حبل  
الوريد ، وينأى عن المسمى المفسد ، ويغضب عليه ثم يحاسبه على  
ما ارتكبت يده من إثم وظلم وفساد . . .

فكلمة عبادى هنا ليست مرادفة لكلمة العبودية والاستعباد الذى  
مثل على مسرح البشرية قبل نزول الإسلام بصورة قاسية مفزعة فيها  
امتهان مروع للكرامة البشرية ، والقيم الإنسانية بدليل قوله تعالى  
« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » وقوله « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ  
الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » . . . ثم انظر إلى هذه  
الظاهرة الرائعة العميقة المعنى ، وهى أن تكرير كلمة عبادى ، وعباد التى  
جاءت فى آيات التنزيل لم تكن موجهة لغير المتقين المؤمنين القريبين من  
الله . وهذه الظاهرة إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الله تكفل  
برعايتهم ، وشملهم بعطفه وحبه ورضاه . وما يوضح ذلك ويزيده قوة  
ويقيناً هذه الآية الكريمة التى نزل بها الوحي لتقرر للناس « بِأَنَّ اللَّهَ  
مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ » .

ولنسق إليك هنا نماذج مما سجلها التاريخ لتعلم إلى أى حد ارتفع  
الإسلام بالإنسان ، وآمن بذاتيته ، وحرية ، ونهض بوجوديته وتعلم  
من ناحية أخرى كيف سيطر على النفوس بروعته وجلاله ، ومبادئه  
المثالية ، وتعاليمه الناضجة .

يروى عن أبى موسى أنه قال : « انتهينا إلى النجاشى وهو جالس فى



مجلسه ، وعمر وبن العاص عن يمينه وعمار عن يساره والقسييسون جلوس  
سماطين ، وقد قال له عمرو وعماره إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا  
بدرنا من عنده من القسييسين والرهبان : اسجدوا للملك . فقال  
جعفر : لا نسجد إلا لله .

« وأرسل سعد بن أبي وقاص قبيل معركة القادسية ربيعي بن عامر  
رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا  
مجلسه بالتمارق والزرابي الحرية وأظهر اليواقيت واللاكي الثمينة العظيمة  
وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب  
ودخل ربيعي بشباب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس  
بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل عليه  
سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه ، فقالوا له ضع سلاحك ، فقال إنني لم  
أتكم وإنما جئتكم حين دعوتوني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ،  
فقال رستم : انذروا له . فأقبل يتوكأ على رمح فوق التمارق فخرق عامتها ،  
فقالوا له : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد  
إلى عبادة الله . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى  
عدل الإسلام . »

« وقال شداد بن الهاد ! جاء رجل من الأعراب إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فأمن به واتبعه فقال أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ،  
فلما كانت غزوة خيبر غم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقسمه ،  
وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء  
دفعوه إليه فقال ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه



وسلم ، فأخذه فجاه به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ! ما هذا يا رسول الله ؟ قال قسم قسمته لك ، قال ما على هذا تبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا — وأشار إلى حلقه — بسهم فأمرت فأدخل الجنة ، فقال إن تصدق الله لي صدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقتول فقال أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال صدق الله فصدقه . ثم اقرأ هذه القصة التي سجلها الطبري عن أبي عثمان المهدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في أجازته ، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لها ونهم ، فأقبل المغيرة بن شعبه . والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة ، لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما تواسى . وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتموني ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ما لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول . »

ولا يظاوعنا القلم أن نمضى دون أن نزيدك أمثلة ، ونشخص لك صوراً من هذه النماذج السامية البالغة حد الروعة والكمال ، والتي تصور في الواقع الإسلام تصويراً دقيقاً في كل ما دعا إليه من مبادئ راقية ، واستحدثه



من نظريات جديدة لحياة العالم ، فكان في هدوئه الظاهري يحمل ثورة خطيرة هزت النفس البشرية من أعماقها ، وأيقظت الكرامة البشرية بعد أن كانت شبه معدومة . . . والواقع أن هذه النماذج الموثوق بصحتها ، والتي نسجلها هنا . ١ - سترينا إلى حد بعيد مقدار الوعي الذي أضفاه الإسلام على حياة العالم فيما أوجده من دعائم خلقية واجتماعية ، وما أقامه من أسس اقتصادية وسياسية جديدة ، تبرزها في وضوح هذه النماذج التاريخية فيما تتميز به من صفات ، وسمات ، وإيحاءات .

خرج (١) المقوقس ليلا من الحصن ، والمسلمون محاصرون له ، وعبر النيل إلى جزيرة الروضة ، ثم أرسل إلى عمرو وجماعة كان منهم أسقف بابليون ، فلقبهم عمرو وأكرمهم ، فأدوا رسالتهم . فقالوا : « إنكم قد ولجتم في بلادنا وألحتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا ، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلمتكم الروم ، وجهزوا إليكم ، ومعهم من العسدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وإنما أنتم أسارى في أيدينا . فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلهله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ، ولعلكم أن تنسدموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء . »

فلم يبعث عمرو جواب ما أتوا به ، وحبس الرسل عنده يومين حتى

(١) انظر كتاب « الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي إلى الفاطميين » للأستاذ عبد الرازق حيمه .



يروا حال المسلمين ، إذ أبيع لهم أن يسيروا في العسكر ويروا ما فيه . ثم بعث عمرو برده مع الرسل وقال : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا : وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين ، .

وعاد الرسل وقد وقع في نفوسهم ما عند العرب من بساطة وإيمان فقالوا : « رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدكم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدكم من الرفعة . ليس لأحدكم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم ، .

فأقسم المقوقس : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقوى على هؤلاء أحد ، وإن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم .

وأرسل المقوقس إلى عمرو كي يرسل إليه وفدًا للمفاوضة فأرسل إليه جماعة فيهم عبادة بن الصامت ، وكان أسود شديدًا ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث .



فركب العرب السفن إلى الروضة ، فلما دخل عبادة على المقوقس  
هابه وقال : « نحوا عن ذلك الأسود ، وقدموا غيره يكلمني » فقال  
العرب جميعاً : « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً ، وهو سيدنا وخيرنا  
والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمر-ير  
دوننا ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . ثم قالوا فكان قولهم عجباً عند  
المقوقس : إن الأسود والأبيض سواء عندهم لا يفضل أحد أحداً إلا  
بفضله وعقله وليس بلونه ، فدعا المقوقس عبادة أن يتكلم برفق حتى  
لا يزعجه ، فقال له عبادة :

« إن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود ، كلهم أشد سواداً  
منى . . . وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلوني جميعاً ،  
وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله ، واتباع  
رضوانه ، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ، ولا طلب  
للاستكثار منها . . . لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها ، يسد بها  
جوعه ليله ونهاره ، وشملة يلتحفها . . . لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ،  
ورخاؤها ليس برخاء ، إنما النعيم والرخاء في الآخرة . »

وقال أبو يوسف : « حدثني (١) عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء  
قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم  
فوافوه ، فقام وقال : يا أيها الناس إنى أبعث عمالي هؤلاء ، ولاة بالحق  
عليكم . ولم أسئتمهم ليصيبوا من أبحاثكم ولا من دمائكم ولا من

---

(١) مستقى من كتاب : «العدالة الاجتماعية في الإسلام» للاستاذ سيد قطب .



أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم . قال : فما قام من  
الناس يومئذ إلا رجل واحد ، فقال : يا أمير المؤمنين . عاملك ضربني  
مائة سوط ، فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقنه منه ، فقام  
إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على  
عمالك كبر عليهم ، وكانت سنة يأخذ بها من بعدك ، فقال عمر : ألا  
أقيدته منه ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيد من نفسه ؟  
قم فاستقنه . فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه . قال فقال : دونكم . قال  
فأرضوه بأن اشترت منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين ا .

« وغنم المسلمون أبراداً يمانية فخص عمر بن الخطاب منها برد ،  
وخص ابنه عبد الله برد — كماى رجل من المسلمين — ولما كان  
الخليفة في حاجة إلى ثوب فقد تبرع له عبد الله ببرده ليضمه إلى برده ،  
فيصنع منهما ثوباً . ثم وقف يخطب الناس وعليه هذا الثوب . فقال :  
أيها الناس اسمعوا وأطيعوا ، فوقف رجل فقال : لا سمع لك علينا ولا  
طاعة . قال عمر : ولم ؟ قال الرجل : من أين لك بهذا الثوب ، وقد نالك  
برد واحد وأنت رجل طوال ؟ قال : لا تعجل ، ونادى يا عبد الله  
فلم يجبه أحد . قال : يا عبد الله بن عمر . قال : لبيك يا أمير المؤمنين .  
قال : ناشدتك الله البرد الذي ابتزرت به أهو بردك ؟ قال : اللهم نعم .  
قال الرجل : الآن مر . نسمع ونطع . »

وهذا أبو بكر رضى الله عنه كان قبيل أن يتولى الخلافة « يحلب  
للضعفاء من حوله بالسنج أغنامهم ؛ فلما ولي الخلافة سمع جارية تقول :



اليوم لا تحلب لنا منائح دارنا ؛ فسمعها فقال : بلى لعمرى لأحلبينها لكم  
فكان يحلبها ، وربما سأل صاحبها : يا جارية ! أتحبين أن أرغى لك أم  
أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرح . فأى ذلك قالته  
فعل ! .

« وكان عمر بن الخطاب - في خلافة أبي بكر - يتعهد امرأة  
عمياء بالمدينة ، ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها ألفاها قد قضيت  
حاجاتها ، فترصد عمر يوماً ، فإذا أبو بكر هو الذى يكفيها مؤوتها ،  
لا تشغله عن ذلك الخلافة وتبعاتها . عندئذ صاح عمر حين رآه : أنت  
هو لعمرى ! . »

« وهذا عثمان بن عفان - قبل الخلافة - تردعير له من الشام في  
وقت نزل فيه البرح بالمسلمين من الجذب ، فإذا هى ألف بعير موسوقة  
برأوزيتاً وزبيياً . فيجيبه التجار يقولون : بعنا من هذا الذى وصل  
إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس . . فيقول : حبا وكرامة . كم تربحونى  
على شرائى ؟ فيجيبون : الدرهم درهمين . فيقول : أعطيت أكثر من  
هذا . فيقولون : يا أبا عمرو . ما بقى فى المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا  
إليك أحد ، فمن الذى أعطاك ؟ فيجيب : إن الله أعطانى بكل درهم  
عشرة . أعندكم زيادة ؟ فيقولون : لا ، فيشهد الله على أن هذه وما حملت  
صدقة لله على المساكين والفقراء من المسلمين . »

ونختم هذه النماذج السامية البالغة حد الروعة والسكال بهذا النموذج  
الأخير ، فقد روى ابن جرير بسنده عن ابن أبي زيد قال :



دعا (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي ؟ قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول أبي بأبي أنت وأمي ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ! فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي علي بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال : أنت القاتل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يأويك ظله ، ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله ، فقال يا للخزرج ، ابني يمنعي بيتي ، فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه ، فاجتمع إليه رجال فكلوه . فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله ، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال : اذهبوا إليه فقولوا له خله ومسكنه ، فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم .

والآن ماذا نستشف من وراء كل هذه النماذج التي قدمناها إليك ؟  
نستشف منها : -

أولا : إيمان الإسلام بالوجود الإنساني ، وبعث الكرامة البشرية .  
ثانيا : المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات ، وفي تكافؤ الفرص بين الناس بعضهم بعضا .

---

(١) ذكره الطبري في سياق تفسيره للقرآن الكريم .



ثالثاً : التحرر الكامل للإنسان من ضغط الضرورات سواء نشأت عن اعتبارات اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو نفسية . . . ولذلك نرى أن الإسلام بهذه الإيجامات جميعاً التي سيطرت على عقل المسلم وقلبه وشعوره في المرحلة الأولى من الدعوة لم يكن في حاجة إلى مجهود كبير يبذله في سبيل نشر راية الإسلام ، ولم يكن في حاجة إلى مناقشات جدلية ومحاورات منطقية . وإقناع عقلي يبذله في سبيل التبشير برسائله الجديدة للعالم . . . والشئ الذي لا يمكن أن نتجاهله أن الإسلام لم ينشر بالسيوف وتحت ضغط الضرورات - ونحن نغنى هنا الإسلام الصحيح الصادر عن الإيمان بالقاب ، والاعتناع بالعقل - كما نشر بالإعجاب ، والدهشة الرائعة ، والسمو الرفيع الأسر للقلوب والعقول جميعاً ، والذي كان يتجلى بقوة ووضوح في سلوك المسلمين الأول ، وفي صفاتهم النفسية ، والعقلية التي كانت تظهر في بساطة وروعة بين غيرهم من الأمم التي كانوا يسعون إلى غزوها . . . كما أنه لم ينشر - إلا في حدود ضيقة - نتيجة لمواعظ ، وإرشادات ، وتبشيرات بالدين الجديد .

فانتشار الإسلام في قوته وكثرته وعنفه لم يكن في الواقع إلا عن طريق هذه المشاهد والصور التي كانت تظهر بوضوح في سلوك أتباعه ، ومعاملتهم بعضهم بعضاً ، وفي تخلفهم بصفات سامية نبيلة بثها الإسلام في نفوسهم وحملوها هم إلى غيرهم من الأمم سواء عن طريق الغزو ، أو التجارة ، أو الرحلات .



وقد ذكر الكونت دي كاستري في كتابه : « الإسلام (١) » خواطر  
وسوانح ، أن الإسلام لم يكن له دعاة مخصوصون يقومون بالدعوة  
إليه ، وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية ، ولو أنه كان للإسلام أناس  
قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع . . . ! فإنا شاهدنا  
الملك « شارلمان » يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من  
القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد  
باشرفتح المدائن ، والأقاليم ، بجيوشه التي كان يصلح بها الأمم حرباً  
تجعل الولدان شبيهاً ، ولكننا لا نعلم للإسلام مجعاً دينياً ، ولا رسلاً  
وأخباراً وراء الجيوش ولا رهينة بعد الفتح فلم يكره أحد عليه بالسيف ،  
ولا باللسان . .

هذا هو الإسلام أعطيناك صورة صادقة عنه في كل ما أقامه من  
دعائم وأسس ونظريات لحقيقة الوجود ، وحياة العالم .. والشئ الذي  
نحب أن نعرفه بعد ذلك كله : إلى متى ظل الإسلام مؤثراً في حياة العالم  
بدعائمه الاجتماعية ، وأسسها الاقتصادية ، ونظرياته الأخلاقية باعتباره  
الدين الوحيد الذي آخى بين الدولة والدين ، والذي ربط الأمور  
التعبدية بالسلوك الشخصي للإنسان ، والذي وسع الحياة جميعها بما فيها  
من روحانيات وماديات ، فمزج بينها جميعاً بطريقة لم تكن معروفة  
للعالم من قبل . ٣

وبما لا شك فيه أن التطور الذي صاحب الإسلام منذ عهد النبي

---

(١) منقول عن كتاب « مصر في فجر الإسلام » للدكتور سيد إسمايل كاشف



حتى آخر عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب كان يجرى في مجراه الطبيعي مسيطرًا ومؤثرًا في سلوك الدولة كما في سلوك الفرد ، فكانت كل الانبعاثات والتصرفات التي تصدر عن الهيئة الحاكمة أو الحكومة تأتي وفق جهاز الدعوة الدقيق فيما رسمته من دعائم اجتماعية ، وأسس اقتصادية ، ونظريات أخلاقية شأنها في ذلك شأن أي دعوة علمية وسعت العالم جميعه ، ولكننا نلاحظ أن التوفيق الذي لازم الإسلام في تطوره قد انخرق عن طريقه المرسوم في الإسلام إلى طريق آخر لا يتفق في شيء مع الأهداف المثالية التي جاء الإسلام ليحققها ويثيرها بقوة واندفاع في ضمير الإنسان وشعوره ، وهذا التحول الذي طرأ على الإسلام ابتداءً في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وإن كان ظهر في حدود ضيقة لم تسترِع نظر الخليفة في خطرها ومساوئها ، وما تحمله من بذور الفسوق عن السير في طريق الإسلام الصحيح الذي أتى في نهاية الأمر بكارثة عظيمة للإسلام كدولة لها قوتها وشكيمتها وتأثيرها في العالم ، وللمسلمين كأمة اتابها الضعف ، والانحلال والانحطاط ، وفقدت كل إمكانيات الحياة الخصبية الراقية القوية .

وكما بسطنا هنا غير مرة نظرية الإسلام في استخدامه الفروض التعبدية كوسيلة فعالة لتقوية بناء دولته الاجتماعى ، والاقتصادى ، والأخلاقى ، فمن البديهي أن يترتب على ذلك أن التفريط في أي ركن من هذه الأركان هو تفريط في الواقع للواجبات الدينية ، والفرائض التعبدية ، لأن الإسلام متصل ببعضه ببعض اتصالاً وثيقاً قوياً ، فالأخذ بجزء منه ، وترك أجزاء أخرى فيه هدم للأجزاء جميعها سواء منها المأخوذ والمتروك ،



ذلك لأن طبيعة هذه الأجزاء التي يشملها جميعها ، والتي أقام بها أركانها كدين وكدولة معاً تنفعل ببعضها ، ولا تؤتي ثمرتها إلا بالأخذ بها جميعاً .

والإسلام أقام دعائه الاجتماعية على أساس المساواة المطلقة في الحقوق ، والواجبات ، والأجزاء ، والعقاب ، وتكافؤ الفرص للمسلمين جميعاً ، وما وجد في الظاهر ولم يكن وفق هذا الأساس كانت له ظروف خاصة لم يغفلها هذا الدين الذي جاء متفقاً مع واقع الحياة ، وطبيعة الظروف والأشياء ، فعدم إلغائه للرق دفعة واحدة لا يمكن أن نحمله على أنه نقصان من جانبه في خصائص المساواة المطلقة لأنه بالرغم من أنه جاء فوجد الرق أساساً من أسس اقتصاد العالم فإن نفوس كل الرقيق لم يكن توفر لها بعد التكافؤ الشخصي ، والاستعداد النفسى للانتفاع بهذه الحرية ، ومع ذلك فقد فتح له أبواباً كثيرة جمة يتلشى فيها بعد حين ، فضلاً عن أنه أعطى الرقيق حقوقاً تتساوى مع حقوق الحر بل مع حقوق أسيادهم . ١ . في الحديث الشريف : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » ...

ثم تأتي بعد ذلك وجهة نظر عمر بن الخطاب في عدم أخذه بمبدأ المساواة في الأعطيات ، وقوله هذه الجملة المأثورة لما روجع في ذلك : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » ... ومع عدم موافقتنا على وجهة نظر عمر رضي الله عنه في ذلك ، إلا أننا لا يمكننا أن نتصور أبداً أن عمر كان يحدد بالمساواة المطلقة ، وكان يقر



النظام الطبقي لأن خصائص عمر في تصرفاته ، وطباعه النفعية ، وما أخذ به نفسه من أشياء ، وما حكم فيه من أفضية كل ذلك ينفي ميل عمر إلى الأخذ بعدم المساواة التامة ، أو إقراره أي وضع - مهما كان ضئيلاً - من أوضاع النظام الطبقي .. ونظرة يسيرة إلى ما يرويه التاريخ عنه من أنه فرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف وفرض لابنه عبد الله ألفين . ولما راجعه عبد الله في ذلك وقال له إنه شهد من الغزوات ما لم يشهد أسامة ؟ كان رده على ابنه « أن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ، وأبوه أحب إلى رسول الله من أبيك ، ثم موقفه من جيلة (١) بن الأيهم وعمر بن العاص وحرصه على إخضاعهما لمبدأ المساواة المطلقة كل ذلك ينهض دليلاً لا يقبل الشك على أن نظرة عمر إلى الأعطيات لم تمس أبداً جوهر المساواة المطلقة التي جعلها الإسلام دعامة قوية من دعائمه الاجتماعية ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أنها لم تكن إلا تمجيداً للذكرى الرسول عليه السلام ، ولم تكن إلا عاطفة صادقة نبيلة لذاته الكريمة في أشخاص أحبائه ، والمقربين إليه . وهذه كما ترى حدودها ضيقة موقوفة تنتهي بوفاة هؤلاء الصحابة الأجلاء الذين صدقوا الله ورسوله ؛ ومع ذلك فقد ارتآى عمر في أخريات عهده أن يسوى في العطاء بين المسلمين غير أن المنية عاجلته فلم يحقق ما أراد .

هذه كلها أشياء يقتضينا دراسة التطور التاريخي للإسلام أن نشيرها

---

(١) تكلمنا عن ذلك بإسهاب في كتابنا « هذا هو الإسلام » ص ١٥٩ -



هنا لنعلم أن التوفيق الذي لازم تطور الاسلام التاريخي لم يتخل عنه إلا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان بعد مبايعته خليفة للمسلمين بستة أعوام على وجه التقريب .

ونحن نقرر هنا قبل كل شيء أننا لا نتهم عثمان في إيمانه القوى ، ولا في أخلاقه الرفيعة وإنما نعتقد أن سيرة عمر بن الخطاب في قوة شخصيته ، وفي صرامته في الحق ، وفي عدله المطلق ، وفي عقليته الجبارة هي التي قتلت عثمان لعدم ملته المكان الذي كان يشغله عمر ، ولعدم تكافؤ شخصيته مع المشا كل الجسسية ، والتطور السريع الناتج في قوة اندفاع الدعوة وانتشارها بسرعة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ، وما ترتب على كل ذلك من وجود آفاق جديدة للحياة لم يكن يعرفها العرب من قبل وذلك فيما سيطر عليه الإسلام من بلاد شاسعة ، ومن أمم وشعوب ذات حضارات قديمة وذات طباع متنافرة ، وأخلاق متباينة ونظرة للحياة متغايرة .

وسنرى أن عثمان في عدم وعيه لحقائق الأمور . وفي عدم موهبته فهم النتائج التي تترتب دائماً على المقدمات قد تغاضى في عهده عن فتح ثغرة — ولو كانت ضئيلة غير كالحجة الوجه — في هيكل النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي بناه الاسلام ، إلا أنها قضت في نهاية الأمر على ما أقامه من دعائم اجتماعية ، وأسس اقتصادية وفق نظراته الخاصة .

قلنا في غير هذا المكان أن الإسلام أقام دعائم دولته على أسس دينية محضة باعتبار أن دعوته وسعت كل مشا كل الحياة الروحية والمادية معاً .



وكل ما يتفق مع التطور الطبيعي للانسان ، والحوادث ، والأشياء جميعها . فلم يحدث أى شذوذ فى التأخى بين كل ما هو مادى ، وكل ما هو روحانى وإنما شملها الانسجام التام ، والتفاعل المحمود النتائج ..! من أجل ذلك كان الإسلام مصيباً وموفقاً فى تنشئة دولته وإقامتها معتمداً على دعوته الروحانية ، بجانب نظمها ، وتشريعاته المادية لحياة الإنسان .

وما نريد أن نقوله هنا : هو أن الدولة ابتدأت أول الأمر . وفى حدود ضيقة فى آخر عهد عثمان — أن تضع العراقيل أمام سير الإسلام فى مجراه الطبيعى ، فحولته عن وجهته الصحيحة فى إقامة نظمها الاجتماعية والاقتصادية إلى طريق آخر ، وصبغته بصبغة أخرى لم يعهدا فى عهد النبى عليه السلام ، ولا فى عهد الخليفين السابقين ، غير مشفقة عن النتائج الخطيرة التى ترتبت نتيجة لذلك كله ، مما سنسهب الآن فى شرحه وكشف الستار عنه .

فالإسلام عندما جاء كان أول شىء دعا إليه فى إلحاح وإصرار قتل العنجهية العربية فى نفوس العرب ، والتفاخر بالأنساب والألقاب ، ففضى بذلك فى غير هوادة ولا تودة على التفريق والتمييز فى الحقوق ، والواجبات بين الناس بعضهم بعضاً .

يقول القرآن الكريم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُرُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ » ، ويروى عن النبى عليه



السلام أنه قال : « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، وقال أيضاً :  
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقد تحققت هذه الدعوة إلى المساواة المطلقة بكل صورها في عهد  
النبي وعهد خليفتيه أبو بكر وعمر ، أما في عهد عثمان بن عفان فقد أصبح  
الركن الاجتماعي مهدداً فرجع العرب إلى عنجهيتهم الجاهلية العاشمة .  
وأصبحوا ينظرون إلى غيرهم من الشعوب نظرة التحقير . وعدم المساواة  
لهم في الحقوق ، وفرص الحياة ! ونحن هنا نترجم عن شعور المسلمين  
من العرب كافة . وإنما نترجم عن شعور الدولة ونمثليها فقط سواء في  
الأمصار أو في الجزيرة العربية .

وهناك بعض المؤرخين ممن يلتمسون عذراً لعثمان في تركة هذه  
العصية العربية تنمو ضد الموالي ، وتزداد الكراهية تجاههم وتأخذ  
طريقها الإيجابي على مر السنين حتى نجدهم بعد وقت قصير وقد فقدوا  
مكائهم الاجتماعية في الدولة ، وقد حرما المساواة التامة بينهم وبين  
العرب ، وذلك لأن استشهاد الخليفة الثاني كان نتيجة لمؤامرة فارسية ..!  
فوقوع هذه الحادثة وضعف الطبيعة البشرية هما المسئولان إلى حد كبير  
عن الاضطهاد الذي وجد الموالي أنفسهم فيه ...! ولكن مهما يكن من  
الأمر ، ومهما بلغت هذه الحادثة في بشاعتها وخطورتها فلم يكن يجوز  
لعثمان أن يتهاون بالتضحية بركن خطير من أركان الإسلام وهو الركن  
الاجتماعي . لأنه ترتب فيما بعد على ذلك نتائج في منتهى الخطورة تجاه  
التطور التاريخي للإسلام وتحوله عن مجراه المرسوم .



ويكفي أن تعلم أن المسألة لم تقف عند المساواة أو عدمها فقط . وإنما أصبح الموالي لما وجدوا حقوقهم الاجتماعية مهضومة في الدولة ، هم المسيطرون على الحركة الفكرية في الجزيرة العربية ، وفي الأمصار يملكون وسائل التأثير في توجيهها نحو الخير أو الشر ، وقد كان منهم المخلصون للدين وهم القلة ، وغير المخلصين وهم الكثرة ، وهؤلاء الآخرون لم يقف شرهم عند حد إحداث الفتن والقلق والدسائس لتفتيت الوحدة الإسلامية ، وإنما أرادوا أن ينالوا من الاسلام والمسلمين بطريق آخر وهو اصطناع أحاديث كثيرة لا تتفق ألبيته مع روح الاسلام وأهدافه المثالية في شيء .

ولكن يجب ان نفرق هنا بين الدولة - أى الهيئة الحاكمة وحاشيتها - وبين جمهور المسلمين من العرب في معاملة الموالي والنظرة إليهم ، ومكانتهم في نفوسهم لأننا إذا وجدنا العرب قد سادوا المسلمين بحكم ما في أيديهم من سلطات ، فإننا نجد المخلصين من الموالي للاسلام قد احتلوا في نفوسهم من جهة اخرى مكان السيادة والتقدير لهم وورعهم ، ونشاطهم في خدمة الدين فيروى عن ابن الصلاح في رحلته أنه قال :

« رويانا (١) عن الزهرى أنه قال : قدمت على عبد الملك بن مروان فقال من أين قدمت يا زهرى ؟ قلت من مكة . قال : فمن خلفت بها

---

(١) مقدمة لحدابنجش في كتاب « الحضارة الاسلامية » تأليف فون كريمر ،

وترجمة الدكتور مصطفى طه بدر .



يسود أهلها؟ قال : قلت عطاء بن أبي رباح . قال : فمن العرب أم من  
الموالي؟ قلت : من الموالي . قال : فيما سادهم؟ قلت بالديانة والرواية ،  
فقال : إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا الناس ، قال : فمن  
يسود أهل اليمن؟ قلت : طاووس بن كيسان ، قال : فمن العرب أم من  
الموالي؟ قلت : من الموالي ، قال : فيم سادهم؟ قلت : بما سادهم به عطاء  
قال : من كان كذلك ينبغي أن يسود الناس . قال : فمن يسود أهل مصر  
قلت : يزيد بن أبي حبيب . قال : فمن العرب أم من الموالي؟ قلت : من  
الموالي ، فقال كما قال في الأولين ، ثم قال : فمن يسود أهل الشام؟  
قلت : مكحول الدمشقي ، قال : فمن العرب أم من الموالي؟ قلت : من  
الموالي ، عبد نوبى اعتقته امرأة من هذيل ، فقال كما قال ، ثم قال : فمن  
يسود أهل الجزيرة؟ قلت : ميمون بن مهران ، قال : فمن العرب أم من  
الموالي؟ قلت : من الموالي . فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل  
خراسان؟ قلت : الضحاك بن مزاحم ، قال : فمن العرب أم من الموالي؟  
قلت : من الموالي ، فقال كما قال ، ثم قال : فمن يسود أهل البصرة؟  
قلت : الحسن بن أبي الحسن ، قال : من العرب أم من الموالي؟ قلت :  
من الموالي ، قال : ويلك ، فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت : إبراهيم  
النخعي ، قال : من العرب أم من الموالي؟ قلت : من العرب ، قال :  
ويلك يا زهرى ، فرجت عنى ، والله لئسودن الموالي على العرب حيث  
يخطب لها على المنابر ، وإن العرب تحتها ، قال : قلت يا أمير المؤمنين  
إنما هو أمر الله ودينه فمن حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط .

وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصح فمما لا شك فيه أن الموالي



اتجهوا بكليتهم إلى البحوث الدينية، وإلى رواية الحديث فسيطروا بذلك على الحركة الفكرية في البلاد الإسلامية، بينما شغل العرب بالحروب الكثيرة، والهجرة إلى الأمصار للتجارة، وارتجاع الأموال الضخمة...

ولكن السؤال الذي يلاحظنا قبل أن نمضي فيما نحن فيه هو: هل كانت سيطرة الموالى على الحركة الفكرية في البلاد الإسلامية خيراً أم شراً بالنسبة للإسلام كدين وكدولة معاً؟ أما جوابنا نحن فإنها كانت شراً أصيب به الإسلام ديناً ودولة... ديناً لأن الموالى اضطروا إلى أن ينضموا إلى الحزب الهاشمي الذي كان يناوىء دولة الأمويين، وينكر عليهم الخلافة، ويرى أنه أحق بها منهم، وقد كان من جراء اصطناع الأمويين لأحاديث منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبرر عدم مساواة الموالى بالعرب، بالرغم من أن المساواة مبدأ أساسى نزل به الوحي، وتحقق في صور عديدة شتى في حياة الرسول عليه السلام بالرغم من كل ذلك فقد وجد الموالى أنفسهم أمام أحاديث موضوعة تستند عليها الدولة في هضم حقوقهم الاجتماعية، فأدلوهم الآخرين بدلهم في هذا السبيل، وقد كانوا كما ذكرنا يملكون السيطرة على الحركة الفكرية، فاصطنعوا أحاديث كثيرة توحى بأحقية آل البيت في الخلافة، وبالتالي تسم قيام الدولة الأموية على الغصب، والاعتماد على حق آل البيت من الهاشميين... ونحن وإن كنا لا نبرىء ذمة الموالى من ذلك، إلا أننا نحمل المسؤولية جميعها على الدولة الأموية لأن موقف الموالى رغم شططهم كان بمثابة دفاع عن النفس أمام ضياع حقوقهم، وفقدان منزلتهم في المجتمع العربي.



والشر الذي أصيب به الإسلام كدين جاء من سيطرة الموالى على التوجيه الفكرى للمسلمين ، فبعد أن كانت العقيدة سهلة بسيطة ليس فيها شىء من التعقيد أصبحت بفضلهم عسيرة معقدة بفعل التأويلات الكثيرة لآيات القرآن الكريم ، وبفعل الأحاديث الموضوعة والمبثوثة هنا وهناك لأغراض سياسية مما نوهنا عنه سابقاً ، ونعقد أن قيام الفرق الكثيرة المتناقضة المذاهب والمبادئ التي زعزعت كيان المسلمين وكانت إلى حد كبير عنصراً خطيراً فى التطور التاريخى للإسلام ، وتحويله عن منحاه الطبيعى إلى منحنى آخر . ١ . نعتقد أن ذلك كان أثراً قوياً من سيطرة الموالى على الحركة الفكرية فى عهد الأمويين . فالإنحراف فى فهم الإسلام ، والشر الذى تجسم وراء ذلك كله يرجع أولاً : إلى موقف الأمويين من الموالى ، وثانياً : إلى سيطرة الموالى على الحركة الفكرية ، فلو اعترف للموالى بمكائنتهم الاجتماعية ، ومنزلتهم السياسية فى الدولة ، ولو عوملوا على أساس المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ، وكل فرص الحياة ، وهى التى جعلها الإسلام أهم أساس أقام عليه بناء دعوته ... ! لو عوملوا كذلك بالرغم من قيادتهم للتوجيه الفكرى للمسلمين لما كان لهم سند ، وباعث يعتمدون عليه فى استحداث التأويلات لآيات القرآن المجيد ، وفى وضع الأحاديث الكثيرة المنسوبة بهتاناً وزوراً إلى رسول الله عليه السلام ... وإن كنا لا نغفل أنه كان لمن أسلم من اليهود سواء أكان من يهود المدينة أو من نزح إليها واستوطنها نشاط جم فى خلق هذه التأويلات وفى ابتداع الأحاديث الموضوعة حتى أننا نرى ابن خلدون يذكر فى مقدمته :



« أن العرب (١) لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وإنما غلبت عليهم  
البدواة والامية . وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس  
البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما  
يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم وهم أهل التوراة من  
اليهود ومن تبع دينهم من النصرارى ، وأهل التوراة الذين بين العرب  
يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل  
الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلبوا  
بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها  
مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثن والملاحم . وأمثال ذلك  
وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم  
فامتلات التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخبار  
موقوفة عليهم وليست مما ترجع إلى الأحكام فتتحرى في الصحة التي يجب  
بها العمل ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملاوا كتب التفسير بهذه  
المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ، ولا  
تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم ، وعظمت  
أقذارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتملقت بالقبول  
يومئذ » انتهى .

وقد ذكر أيضاً ابن كثير في تفسيره عن كعب الأحبار أنه  
« لما أسلم (٢) كعب في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضى الله عنه

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ .



فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده من غث وThin ، . وقد تنبه عمر آخر الأمر إلى كذبه فحرم الأخذ عنه ، ونهاه عن الرواية عن النبي وإلإنفاه . . ١ ولكن بالرغم من دخول كل هذه الاسرائيليات في التفسير ، وفي اصطناع الأحاديث ونسبتها إلى النبي فإننا نعتقد أن ضررها كان محدوداً بالنسبة لضرار الموالى البليغ لأنهم لم يكتفوا بالتوجيه الفكري فقط ، وإنما ملكوا ناحية التأثير العقلي ، والتوجيه العملي بقيام الدولة العباسية .

أما الشر الذي أصيب به الإسلام كدولة من جراء هضم حقوق الموالى الاجتماعية والسياسية فإن الموالى كانوا شوكة دائمة في جنب الدولة . وكانوا يعملون في الخفاء للقضاء عليها قضاء لا هوادة فيه فمشغلوها بالحروب الداخلية ، وبما كانوا يشيرونه حولها من القلاقل والفتن التي حدثت من نشاطهم في الغزو والفتوحات في أنحاء المعمورة وهي التي كانت تسيير بخطى واسعة في عهد النبي وخليفته وفي الست سنوات الأولى من عهد عثمان بن عفان . . . ١ وإن من يقرأ قصة الحجاج الثقفي وسعيد ابن جبير يتبين له أنه لم يكن يقف أمام الموالى في سبيل القضاء على دولة بني أمية ، أي اعتبار من الاعتبارات ، فلقد خرج ابن الأشعث على الحجاج وانضم إليه سعيد ، ولما قبض عليه وجيء به إلى الحجاج قال له : «يا شقي (١) ابن كسير . أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى فجعلتكم إماماً . ؟ قال : بلى . قال : أفما وليتكم القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري ، وأمرته

---

(١) الكامل للبرد .



أن لا يقطع أمراً دونك ؟ قال : بلى . قال : أو ما جعلتك في سمارى  
وكلهم من رموس العرب ؟ قال : بلى . قال أو ما أعطيتك مائة ألف درهم  
لتفرقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها ؟ قال : بلى . قال فما  
أخرجك على ؟ قال بيعة كانت لابن الأشعث في عنق . فغضب الحجاج ،  
ثم قال : أما كانت بيعة أمير المؤمنين عبد الملك في عنقك من قبل ؟  
والله لأقتلنك .

وهكذا كما ترى كان من نتيجة تهاون عثمان في تهديد ركن خطير من  
أركان الإسلام ، وهو الركن الاجتماعى الذى يتمثل فى المساواة التامة  
بين المسلمين جميعاً أن أوقف تطور الإسلام عن طريقه الطبيعى المرسوم ،  
ووجه إلى طريق آخر لا يتفق ، ومارسه الإسلام من دعائم اجتماعية ،  
وقوانين خلقية .

وإذا كانت الدعائم الاجتماعية للإسلام قد هددت فى عهد عثمان كما  
رأيت ، ثم قضى عليها القضاء الأخير فى عهد الأمويين ومن تلاهم من  
عباسيين وفاطميين وغيرهم ممن نصبوا أنفسهم خلفاء للمسلمين ... ! نقول  
إذا كانت هذه الدعائم ابتداء التفريط فيها فى عهد عثمان ، فهناك ما هو أشد  
من ذلك خطراً ، إذ ابتدأت الأسس التى بنى عليها الإسلام نظريته  
الاقتصادية تتزحزح هى الأخرى عن مكانها ، وتتحلل من الروح  
الإسلامية التى سيطرت عليها ابتداء من عصر النبى عليه السلام حتى آخر  
عصر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فهما لا شك فيه أن الإسلام احتفل  
بالتنظيم المالى لحياة الإنسان المعيشية ، فأعطى له حقوقاً كما أوجب عليه  
مسئوليات تجاه المجتمع الذى يعيش فيه . فهو إذا كان لم يحرم الملكية



الفردية باعتبارها ضرباً من ضروب النشاط ، ودافعاً قوياً للاستشارة في العمل . وإذ كاه الحيوية في الإنسان ، واستنهاض كل طاقاته البشرية للسعى في الحياة وتوفير كل الإمكانيات الحياتية مما يرقى به ويسعده هو والمجتمع الذي يعيش فيه ، إلا أنه عندما أباح هذه الملكية الفردية سواء في المال أو في الثروات المنقولة أو غير المنقولة ، أو في غير ذلك من كل ما يقوم بمال لم يجعلها مطلقة غير مقيدة بشيء أو خاضعة لمصلحة المجتمع وإنما أحاطها بقيود جعلتها مثل الوظيفة الاجتماعية التي يزاؤها الفرد لمصلحة المجموع ، فملكية الإنسان للمال أو ما يقوم به ليست ملكية أصيلة ، له أن يتصرف فيه كما يشاء ، لأن هذا المال الذي كونه وارتجعه ساهمت فيه البيئة وساهم فيه المجتمع بطريق غير مباشر ، لأنهما المجال الحيوي الذي زاول فيه نشاطه ، وارتجع منه هذا المال ، فمن العبث والظلم أن يستبد به ويعطله ولا يوظفه في البيئة التي استثمره منها . ومن الإجحاف والجحود والأنانية أن ينفقه في الترف والمذات ، والشهوات الدنيئة التي تصيب المجتمع بأبلغ الأضرار ... ! ومع كل ذلك لو بحثنا في أصل هذا المال أو ما يقوم به من ثروات منقولة أو غير منقولة ، أو غير ذلك وجدناه في النهاية يرجع إلى أنه ملك لله وحده الذي خلق البشر ، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ، ورزقهم من الطيبات ، فالقرآن الكريم يقول : « وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ويقول في موضع آخر بشأن حث المسلمين على إعطاء المسكاتيين من الأرقاء المال لينعموا بالحرية . « وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ » فهذه الآيات صريحة في أن المال وكل ما يقوم به من ضرورات الإنسان الحياتية هو ملك لله وحده والناس فيه خلفاء عن الله ... !



فانظر معى إلى هذه الروعة البالغة فى تصوير الإسلام للبسال ،  
وتفسيره له هذا التفسير المحدد على أنه من الأشياء العامة للبشر ، ومن  
المنافع الطبيعية مثل الماء والهواء وكل ما هو ضرورى لحماية الإنسان ،  
وهنا يختلف الإسلام مع التفسير الماركسى للمال وقيمه وما يكيف به  
حياة الإنسان من خير أو شر ... !

فالنظرة الماركسية إلى المال وقيمه ، وما يتفاعل فيه من عوامل لحماية  
الإنسان ، نظرة ضيقة وقفت بالإنسان عند الدائرة المادية فقط بجعلها  
الحياة كلها خاضعة للتفسير المادى للتاريخ ... !

أما الإسلام فنظرتة إلى المال ، وما يقوم به ، نظرة أوسع وأشمل  
فلم يجعل الإنسان مستعبداً له ، ولم ينظر إليه إلا على أنه وظيفة يزاوها  
من يحسن القيام بها لصالح المجتمع البشرى ... ! بدليل قول الله تعالى  
فى مكان آخر : « وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الضَّالِّينَ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا لَكُمْ قِيَامًا ، ... ونرجو أن ننبه هنا على أن معنى الآيات  
الكريمة التى تفيد بأن « المال ملك لله » ، والتى تحت على « أن ينفق فى  
سبيل الله » ، أن معنى هذه الماكية لله أنه من المنافع العامة الشائعة التى  
يشارك فى الانتفاع بها البشر جميعاً كل بقدر كفايته واستعداده  
واحتياجه فهو كالأشياء الطبيعية التى لم يتواضع العالم منذ أقدم العصور  
على أن يملكها فرد وحده أو ينفرد بالتصرف فيها لإنسان مطلق الإرادة  
كما أن سبيل الله هنا هو مسرح الحياة للمجتمع الذى وجد فيه هذا المال ،  
فيجب أن ينفق لسد حاجاته الضرورية ، وما يتفرع عنها من مستلزمات  
ثقافية وإنشائية .



فالإسلام يحرم تحريماً قاطعاً تجمع الثروات في أيدي واحدة، وتعطيها عن العمل كما يحرم الاحتكار على أي وجه من الوجوه، فالقرآن الكريم يقول: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»، ويقول الرسول عليه السلام: «أى مال ذهب أو فضة أو كى عليه فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه في سبيل الله».

ويقول أيضاً: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، والذي نفسى بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول في أخريات خلافته: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لأخذت فضول أموال الأغنياء فوزعتها على الفقراء».

هذه هى نظرية الإسلام الاقتصادية، وقد تحققت على أكمل صورة في عصر أبى بكر وعصر عمر رضى الله عنهما، فأبو بكر كما هو معروف كان يعيش من عمله في التجارة قبل الخلافة، فلما أصبح خليفة للمسلمين استمر في عمله في التجارة ليوفر قوته وقوت عياله، ولكن المسلمين رأوا أن عمله في التجارة لا يتفق مع عبء الخلافة ومسئولياتها فقالوا له: «إن هذا الأمر لا يصلح مع التجارة»، فقال أبو بكر: «ومم أعيش إذا؟ فقالوا له: خذ كفايتك وعيالك من القوت من بيت المال، فقبل أبو بكر، وليكنه عندما حضرته الوفاة أوصى بأن يحصى



ما أخذه من بيت المال فيرد إليه من ماله الخاص وأرضه .

وهذا عمر بن الخطاب سئل وهو خليفة للمسلمين عما يحل له من مال الله ؟ فقال : « أنا أخبركم بما أستحل منه يحل لي حلتان : حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر ، وقوتي وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ليس بأغنمام ولا بأفقرهم ، ثم أنا رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم » .

هذا ولقد كان أبو بكر وعمر يخشيان أن يفتن المسلمون عن دينهم وأن يغضوا النظر عما رسمه لهم من مثل عليا للحياة ، نتيجة للثروات الضخمة التي أخذت تترى عليهم من الفتوحات الكثيرة ، والانتشار السريع للإسلام في أنحاء المعمورة ، ولذلك منع عمر كبار الصحابة أن يهاجروا إلى الأمصار حتى لا يفتن بهم المسلمون ، وحتى لا تستهويهم من ناحية أخرى مظاهر الثراء والترف الذي كان سائداً في إمبراطورتي فارس والروم بطريقة شائنة مسرفة ، وهي التي خلفهم المسلمون عليها .

وكان عمر رضى الله عنه لا ينفل عن محاسبة عماله في الأمصار فقد قال قاسم سعد بن أبي وقاص ماله عندما كان والياً على الكوفة وبعث بما أخذه منه إلى بيت مال المسلمين ، وكتب إلى عمرو بن العاص عامله في مصر يقول : « إنه فشت لك فاشية عن متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر » ، فرد عليه عمرو يقول : « إن أرضنا أرض مزروع ومتجر ، فنحن نصيب فضلاً عما تحتاج إليه نفقتنا » ، فكتب إليه عمر بن الخطاب يقول : « إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى وكتابتك



إلى كتاب من أقلقه الأخذ بالحق ، وقد سنت بك ظنا ووجهت إليك  
محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك فاطلعه طلعة ، واخرج إليه ما يطالبك ،  
واعفه من الغلظة عليك ، فإنه برح الخفاء .

هذه كلها نماذج لم يكن لنا بد من تسجيلها هنا لنعلم أن التطور  
التاريخي للإسلام قد انحرف عن سيره الطبيعي منذ عهد عثمان بن عفان  
بالقضاء على ركنين خطيرين من أركان الدعوة هما الركن الاجتماعي  
والاقتصادي ، وقد أوضحنا بما لا مزيد عليه كيف هددت الدعائم  
الاجتماعية في عهد عثمان ثم انهارت تماماً فيما تلاه من عهد ، وهانحن  
أولاء بعد أن ذكرنا هنا الأسس الاقتصادية وفق نظرة الإسلام ،  
وكيف تطورت متمشية في سيرها الطبيعي في عهد الخليفة أبي بكر  
وعمر نرى أنها وجهت وجهة أخرى ابتداء من عهد عثمان ، لأننا نجد  
أن ما كان يخشاه أبو بكر وعمر من فتنة المسلمين بالمال قد تحقق في  
عهد عثمان ، والمراجع (١) التاريخية التي بين أيدينا تذكر أن عثمان كان له  
يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم غير  
ضياعه بوادي القرى وحنين التي قدرت بمائتي ألف دينار كما خلف إبلا  
وخيلا كثيرة ، والزيير بن العوام ترك عند وفاته من الأموال العقارية  
ما تقدر قيمته بين خمس وثلاثين ، واثنين وخمسين مليوناً من الدراهم  
على اختلاف في الروايات ، وأنه كان يملك في المدينة وحدها  
إحدى عشرة داراً غير ما كان يملكه من الدور في البصرة والكوفة  
والفسطاط والاسكندرية .

(١) ابن خلدون . طبقات ابن سعد .



كما قدرت ثروة طلحة بن عبيد الله بمائة كيس من الجلد يشتمل كل  
كيس منها على ثلاثة قناطير من الذهب ... ١

وإن كانت هذه المراجع لم تغفل شدة عطف عثمان والزبير وطلحة على  
الفقراء والمساكين وإطعام الجائع وابن السبيل والتصدق بالمال الكثير... ١  
غير أننا نعتقد أن النظام الاقتصادي في الإسلام لم يقم على الصدقات  
وإعطاء السائل والمحروم ، لأن ذلك كان متروكاً لوجدان الإنسان في  
عهد الإسلام الأول ، أما بعد أن أصبح المسلمون كدولة لها مقوماتها  
ولها تأثيرها الخطير في حياة العالم كله ، فإن احتياجات الفرد ومسئوليته  
أصبحت في ذمة الدولة ، وأصبح التكافل الاجتماعي بين المسلمين منوطاً  
بالتزامات بيت المال تجاه فقراء المسلمين ، ولولى الأمر أن يأخذ ما يشاء  
من رموس الأموال ليحقق التكافل ، ويوجد التوازن بين المسلمين كما  
كان سيفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فضلاً عن أن الإسلام كما  
قلنا يحرم اكتناز المال وتجمعه في أيدي واحدة ، ويعمل على تفتت  
الثروات . ١ فهو يحرم الاحتكار على أية صورة من الصور ، كما يحرم  
أن يقوم نظامه الاقتصادي على أساس الإقطاع بأي نوع من الأنواع  
أو وجه من الوجوه... ١ كما أن الإسلام ينهى أن يقوم أي بناء في مجتمعه  
على المسألة « فاليد العليا خير من اليد السفلى » ، وهذا عمر بن الخطاب  
يذهب يوماً لزيارة أهل الصفة الذين اتخذوا مسجد رسول الله عليه السلام  
مأوى لهم يتعبدون فيه ليل نهار ، بعد أن حالت بينهم الشيخوخة ، وحال  
بينهم العجز عن الخروج إلى الغزوات ، والسعي في الحياة ، فلما صلى  
بهم عمر العصر سأهم : مم يعيشون ؟ فعلم أنهم يعيشون على الصدقات ،



فانكر عليهم ذلك ، وقال لهم هذه الجملة التي تلخص دستور الإسلام الاجتماعي والاقتصادي : « ليس في الإسلام سولة » .

والرسول عليه السلام يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ويقول أيضاً : « انكحل نبي رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » ، ولا يعني بالجهاد هنا الغزوات والتبشير بالإسلام فحسب وإنما يعني كل ما يفيد المجتمع الإسلامي من جميع أوجه النشاط الثقافي والصناعي ،

وهكذا نجد أن هذا التهاون من عثمان عفا الله عنه قد كانت له نتائج جد خطيرة في عهد الأمويين ، وما تلا عهدهم من عهود ، لم تهدر فيها الدعائم الاجتماعية ، والأسس الاقتصادية فحسب ، وإنما قضى على الاعتبارات الخلقية التي جعلها الإسلام عنصراً خطيراً من عناصر دعوته ، ويكفي أن نعلم كيف اغتصبت المبايعة ليزيد بن معاوية لندرك قوة الحواجز الصلدة التي وقفت حجر عثرة أمام تيار الإسلام الصحيح . وندرك عوامل الانحلال التي أخذت تعمل في جسمه الحى بقوة وقسوة ... ! فالمصادر التاريخية الوثيقة تذكر أن معاوية ذهب إلى مكة ودعا زعماء المسلمين عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن علي وقال لهم : « قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم ، يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد



باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال  
وتقسمونه .

فأجابہ عبد الله بن الزبير ، وخيره بين أن يصنع كما صنع رسول الله  
إذ لم يستخلف أحداً ، أو كما صنع أبو بكر ، إذ هدد إلى رجل ليس من  
بني أبيه أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم  
أحد من ولده ولا من بني أبيه .

فقال معاوية مغضباً : « هل عندك غير هذا ؟ » .

قال : « لا ... »

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلاً : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير .  
فقال متوعداً : « أعذر من أنذر ! .. إني كنت أخطب فيكم فيقوم  
إلى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك وأصفح ، وإني  
قائم بمقالة ، فأقسم بالله لن رد على أحدكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع  
إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا  
على نفسه ا » .

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل  
واحد منهما سيف ، وقال له : إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق  
أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما » .

ثم خرج بهم إلى المسجد ورق المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :  
هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم ، ولا يقضى



إلا على مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وباعوا ليزيد فباعوه على اسم الله .  
فباع الناس . وهكذا تمت البيعة ليزيد ... !

حتى إننا إذا ما تركنا العصر الأموي إلى ما تلاه من عصور أخرى نجد الانحراف عن الإسلام يزداد قوة واتساعاً ، ويصطبغ بصبغات دخيلة لا تتفق مع دعائمه وأسسها وأصوله في شيء ، بل إنه في الواقع حاربها في مهد نزوله بقسوة وصرامة ، فالعهد العباسي اصطبغ بالصبغة الفارسية . وبما كان يسود عهد الساسانيين من أوتقراطية مسرفة في الحكم ، ومن تكالب على الترف والشهوات ، وتفاق خبيث بين رجال البلاط ، ولعل أكبر شاهد على سيطرة الفرس على أدوات الحكم الفعلي للبلاد الإسلامية ، أن الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون كانت في الواقع انتصاراً للفرس على العرب ، ثم أصبحت الخلافة الإسلامية بعد ذلك تصطبغ بالصبغة التي تكون عليها حاشية الخليفة دون نظر لأي اعتبار من الاعتبارات الإسلامية ، فإنه (١) لما ولي المعتمد الخلافة ، وكانت أمه تركية أهمل العنصرين العربي والفارسي ، واعتمد على الأتراك وأستند إليهم مناصب الدولة كما فعل أخوه المأمون مع الفرس .

وقد بلغ من عناية المعتمد باقتناء الأتراك أن بذل فيهم الأموال ، وألبسهم الديباج ومناطق الذهب ، واستقدمهم من أسواق الرقيق من سمرقند ، وفرغانة ، ومن بلاد ما وراء النهر بوجه عام .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ، وتاريخ الخلفاء للنجار .



ولما ولي الخلافة ابنه الواثق استفحل أمر الأتراك ، واشتد نفوذهم  
وبما يذكر أنه بلغ من نفوذ الأتراك أن الخلفاء كانوا يقطعونهم الولايات  
الإسلامية على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة على نمط ما كان متبعاً  
في نظام الإقطاع في أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر ، ولم يكن  
من السهل أن يترك هؤلاء الأتراك دار الخلافة في بغداد أو سامرا  
وما فيها من نعيم وترف ، فكانوا يستخلفون بدورهم نواباً عنهم يحكمون  
هذه الولايات باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر ، وينقشون  
اسمهم على السكة بجانب اسم الخليفة .

غير أن الظاهرة التي يتميز بها عصر العباسيين ، وما تلاه من عصور  
هي الترف المسعور ، والتكالب على الشهوات في شراهة وإسراف ، حتى  
أننا نرى أن زفاف « بوران » بنت الحسن بن سهل إلى الخليفة المأمون  
« بما لم (١) يعهده المسلمون من قبل ، لقد نثر والد العروس في ذلك من  
الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا في إسلام - كما  
يقول المؤرخ المسعودي - فقد نثر على الهاشميين والقواد والكتاب  
بنادق مسك فيها رقاق بأسماء ضياع ، وأسماء جوار ، وصفات دواب  
وغير ذلك ... فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها فقرأ ما فيها  
فيجد على قدر حظه وإقبال مسعوده ... كما نثر على سائر الناس الدنانير من  
الذهب والدرهم من الفضة ونوافح المسك ، وبيض العنبر ، .

غير أن الأمر لم يقف عند هذا الحد من التحلل المسرف من مبادئ

---

(١) ملامح من المجتمع العربي للأستاذ عبد الغني حسن .



الدين ، ونظمه وأوامره ، وإنما سار الفساد إلى أبعاد أشواطه يفت في  
عضد الدولة الإسلامية ، حتى جعلها تلفظ النفس الأخير ، فمن يصدق أن  
عاصمة إسلامية كبغداد أيام العباسيين . والقاهرة أيام الفاطميين تقام  
فيها بيوت للإثم ، وتشيد دور للدعارة بإذن السلطان مع حمايته لها من  
جمهور الثائرين من المسلمين ... !

إننا نرى من « المواخير (١) » والحانات في عصر الرشيد والمأمون  
والمعتصم والمتوكل تنقلب إلى دور للدعارة في العهد البويهي ، وفي أيام  
« عضد الدولة بن بويه ، بالذات ، ثم يقر ذلك الوضع الشاذ الغريب في  
بلد إسلامي كالعراق الفارسي ، وترسم على هذه البيوت ضريبة تدخل  
حصيلتها إلى بيت المال . . . ثم تنتشر العدوى إلى مصر الفاطمية فنرى  
صاحب كتاب « الخطط » يشير إلى بيوت الفواحش التي كانت تجبى عليها  
الرسوم ، ويضمن تحصيلها ضامن ، تحت يده عدة صبيان ، وعليها جنود  
مستقطعون وأمرأه ، وكانت تشتمل هذه الضريبة - أو يشتمل تحصيلها -  
على ظلم شنيع ، وفساد قبيح ، وهتك قوم مستورين ، والهجوم على  
بيوت أكثر الناس ، وكان يختلط في تحصيل رسوم الدعارة الشريف  
مع غير الشريف ، ويستوى في شرور جبايتها الخبيث والطيب .

ومما يدل على إقرار الفاحشة في مصر الفاطمية والأيوبيية  
والمملوكية قول المؤرخ المقرئ في موطن آخر من خطه ... ومقرر

---

(١) المصدر السابق .



ما على كل جارية أو عبد حين زولهم بالحنانات لعمل الفاحشة ، فيؤخذ من كل ذكر وأنتى مقرر معين ، .

وإلى هنا ونقف فنراجع ما كتبناه في هذا الفصل لتبين أن التوفيق الذى لازم الإسلام فى تطوره التاريخى كدين ودولة تخلى عنه تماماً فى أواخر عهد عثمان بن عفان . وأن دفة الإسلام وجهت بعد ذلك وجهة أخرى مغايرة كل المغايرة لقواعده الاجتماعية والاقتصادية والخلقية ، واستمر هذا التيار الغريب عن روجه يتجاذبه ، ولم يقف إلا فترة وجيزة فى عهد عمر بن عبد العزيز لىكى يسترد أنفاسه فقط ، ثم واصل بعد ذلك السير فى هذا الطريق الذى أدى بنا كسالمين إلى الضعف والتأخر والانحلال ... ١

ولعل الدوافع التى دفعتنا إلى أن نسهب فى هذا الفصل من الكتاب تحقق الغاية المرجوة منها وهى تنبيه المسلمین إلى أن الإسلام لم يتحقق بقوته وشموله وسيطرته كدين ودولة معاً إلا فى عهد النبى وخليفته أبو بكر وعمر بن الخطاب فقط .

أما دولة الأمويين — عدا خلافة عمر بن عبد العزيز — وكذا دولة العباسيين والفاطميين وغيرهم من كانوا يحكمون باسم الإسلام فإننا لا نستطيع أن نؤمن بأنهم أقاموا خلافات دينية إسلامية بالمعنى الدقيق حسب نظرة الإسلام ، وبالتالي ليس الإسلام مسئولاً عن تصرفاتهم ،  
( ٨ — مستقبل الإسلام )



لأنهم فسفوا عن الطريق المستقيم الذي رسمه الاسلام لإقامة دولة  
يغذيها الدين ، فالمرآجل التي اجتازها الاسلام محققاً أهدافه المثالية  
كلها وقفت بانهاء خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

بقى بعد ذلك أن نبحث في العناصر الدخيلة على الاسلام والتي  
كانت عاملاً خطيراً من عوامل ضعف المسلمين وانهارهم ، فلنتقل  
إلى الفصل الثالث لندرس الفرق التي وجدت في الاسلام .



## الفرق في الإسلام

نحن نعلم أن عوامل الوعي ، وبواعث اليقظة والنهوض مهيأة الآن أمام العالم الإسلامي ، منفعة بها نفوس أبنائه في أنحاء المعمورة . . . بل أكثر من ذلك نرى أن رجال الفكر الغربيين قد اتجهوا إلى دراسة الإسلام وتتبع مراحل حتى عصرنا هذا باعتباره الدين الوحيد الذي قاد البشر في أحلك مراحل التاريخ . وباعتباره الدين الوحيد الذي خاطب الإنسانية جميعاً ، فكانت دعوته عالمية لم تقتصر على أمة دون أمة ، أو جنس من البشر دون جنس آخر . بل إنه الدين الوحيد الذي تعمق في دعوته وفيما بسطه من مبادئ إلى أعماق دخائل الإنسان ، فأخى بذلك بين الماديات والروحانيات بطريقة منسجمة رائعة لم يعرفها العالم من قبل سواء في الدعوات الإلهية أو البشرية ، فكون حضارة قائمة على إحياء وجودية الإنسان وإحاطتها بسياج من الخلق النبيل ، والاخاء الحميد ، والكرامة المصونة . . . ولكننا عندما نتتبع آراء هؤلاء العلماء الغربيين في الإسلام ، نراهم فريقين فريقاً يقف أمام الظواهر فيفسر الإسلام على ضوء ما يرى عليه المجتمعات الإسلامية الآن من تأخر وجهل وانحطاط أو على ضوء دراسة التاريخ الإسلامي منذ العهد الأموي حتى الآن . أو على ضوء ما ابتدعته الفرق المتعددة ، وعلم الكلام في الإسلام . . . ولكننا نقول لهذا الفريق إن الإسلام ليس مسئولاً عن كل ما توحى به هذه الظواهر ، لأنه في تطوره لم يسر في اتجاهه الطبيعي ، وإنما انحرف عن



بجراه في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان مما سنسهب في توضيحه في هذا الفصل من الكتاب . . . أما الفريق الآخر من العلماء الغربيين وهم هؤلاء المفكرون الأحرار غير المتعصبين ، الذين لا يقفون أمام الظواهر ، وإنما يسعون إلى استكناه ما وراءها فإنهم لا يعترفون بأن الاسلام كان يحمل للبشرية عناصر تقدم ، وارتقاء ، ومدنية فحسب ، وإنما يتنبأون بأن الاسلام سيمسك بقيادة الانسانية من جديد ، فيكفي للعالم حياته تكييفاً آخر ، يتفق ومبادئه في الإخاء والتعاون العالمي ، وما رسمه من دعائم اجتماعية وأسس اقتصادية ، وغايات مثلى لكل قيم الحياة . ونكتفي هنا برأى مفكر واحد من هؤلاء وهو «المستر جيب» حيث يقرر في كتابه «حيثما يكون الاسلام» (١) . . . إن الاسلام مازال في قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى في أفريقيا والهند وأندونيسيا بل وتلك الجامعة الاسلامية الصغيرة في الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة في اليابان لتبين كلها أن الاسلام ما زال له القدرة التي تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات . فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الاسلام لحسم النزاع .

ونحن هنا نكشف النقاب عن البواعث التي أوجدت الفرق في الاسلام باعتبارها كانت من عوامل الهدم التي وضعت في طريقه ،

---

(١) «الاسلام والنظام العالمي الجديد» تأليف مولاي محمد علي .



والتي انتكست بالمسلمين إلى الوراثة وبذرت فيهم بذور الفساد والاضمحلال الذي كان يزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ مداه في أول هذا القرن .

ولسنا في حاجة لأن نؤكد هنا ونحن نخوض هذا البحث الشائك الدقيق . إنما سنستظهر الحق ونسعى إلى الحقيقة وحدها غير ملتفتين إلى أي اعتبار آخر من الاعتبارات . فنحن نعلم أن كثيراً من الكتاب يشفقون من الخوض في هذه الفترة العصبية المضطربة من فترات الإسلام . ويخشون أيضاً بعث الخصومة والفتنة من جديد بين ما يسمى بالإسلام السني ، والإسلام الشيعي .

وإن كنا لا نعتزف نحن بهذه التسميات التي قسمت الإسلام إلى شيع وأحزاب يناقض بعضها بعضاً ، كما أنها مسؤولة إلى حد كبير عن الانهيار الذي طرأ على المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . . .

ولكننا رغم ما في الموضوع من خطورة سئدومه للمسلمين ، ولما يعنون بالدراسات الإسلامية من الكتاب الغربيين لأننا نعلم أننا نسهم بذلك في تغذية هذا الوعي الذي ظهرت بوادره الآن في آفاق العالم الإسلامي جميعه فيعرف المسلمون وغيرهم ممن يعنون بتاريخ تطور الإسلام ، كيف أن الإسلام في تعاليمه الخالدة المرسومة في الكتاب المقدس وفي الأحاديث النبوية الصحيحة التي يتفق روحها وروح القرآن الكريم . كان ضحية بين المسلمين طوال عصوره الماضية منذ خلافة عثمان إلى يومنا هذا ، وقبل هذا الوعي الذي نرى شمسَه تشرق علينا الآن وذلك نتيجة



للسذاجة والجهل من جهة ، وللعصبية العمياء ، والسياسة المتلونة العاهرة  
من جهة أخرى ... !

ولسكننا قبل أن نمضى مستعرضين هذه الفرق ، باحثين عن العوامل  
التي ساعدت على خلقها وتكوينها ، مستظهرين بعد ذلك الأهداف التي  
ترى إلى تحقيقها نحب أن نقرر هنا شيئين :

أولاهما : وجود العداء المستتر للإسلام في داخل الجزيرة العربية  
وفي غيرها من الأوصار التي فتحها المسلمون ، وهذا العداء المستتر أشد  
خطورة وأعمق شراً وإثمًا من العداء السافر حيث لا يمكن توقيه بالحدز  
والاحتياط منه لأنه ليس إلى العلم به من سبيل . وهذا العداء تجمعت  
خيوطه الأولى بعد فتح مكة وإخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام حيث  
سلبت سلطات الزعامة التي كان يتمتع بها زعماء قريش في العهد  
الجاهلي ، ولم تستطع حدة العداء للإسلام والنيل منه أن تتلاشى من  
نفوس هؤلاء الزعماء حتى بعد انتظامهم في زمرة المسلمين ، فيروى أن  
أبا سفيان كان يريد أن يحدث فتنة بين المسلمين بعد أن اتفقوا في اجتماع  
سقيفة بني ساعدة على مبايعة أبي بكر خليفة المسلمين فذهب إلى أسرة  
بني هاشم ونادى : يا علي ! وأنت يا عباس ! . . ما بال هذا الأمر في  
أرذل قبيلة من قريش وأقلمها ؟ والله لو شئتما لأملائها عليه خيلا  
ورجلا وأخذنها عليه من أقطارها ، فأسكتته على بهذا الرد الحاسم  
فقال : لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا



رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خيلناه وإياها ، ثم أراد أن يفضح مقصده  
ومرماه من وراء ذلك فقال : « يا أبا سفيان ! إن المؤمنين قوم نصحوا  
بعضهم لبعض ، وإن المنافقين قوم غششوا بعضهم لبعض . . متخاونون  
وإن قريت ديارهم وأبدانهم » .

أما في الأمصار وبخاصة فارس والعراق والشام ، فإن أهل هذه  
البلاد كانت لهم قدمة وسابقة في الثقافة والنشاط الفكري ، والعرب  
بدو خرجوا من الصحراء فاتحين هذه البلاد ، وهم يحملون معهم طباع  
البدو ، في بساطته وفطرته وسماحته ، فكان من السهل عليهم أن يتأثروا  
بما يثيره أهل هذه البلاد ورجال الدين منهم خاصة في علم الألوهيات  
والغيب ، وما وراء الطبيعة ، والجزء والعقاب ، والجنة والنار ، وغير  
ذلك مما كان باعثاً قوياً لاصطناع عقائد الفرق العديدة في الإسلام .

غير أننا نلاحظ فضلاً عن ذلك أن بعض من أسلم من أهل هذه  
البلاد لم يكن مخلصاً للإسلام كل الإخلاص ، وهذا هو موضع الخطورة  
كما أوضحنا ذلك سابقاً ، فبث سُمومه وأفكاره الهدامة في نفوس  
هؤلاء العرب البدو من الجنود الفاتحين دون أن يثير حوله شيئاً من  
الحذر أو الإنكار . . . ولعل هذا يعطينا فكرة واضحة عن أن منشأ  
الفرق في الإسلام لم يتعد فارس والعراق من كل البلاد التي كان  
يحكمها الإسلام يوم مولد أول هذه الفرق في آخر عهد عثمان .

ثانياً : أن علياً بن أبي طالب لم يسع للخلافة ، ويرى أنه أحق بها  
لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه القرابة وحدها



تعطيه الحق في أن يكون على رأس المسلمين إماما لهم وحاكما ، وإلا لما  
سكت على وبائع ورضى عن طريقة الحكم فيما تقدمه من الخلفاء الثلاثة  
أبي بكر وعمر وعثمان في سنوات حكمه الأولى ، ونحن نعرف صراحة  
على وحرصه على الحق والزود عنه فكان في جميع تصرفاته يصدر عن  
طبيعة صافية خالصة لا تعرف المواربة ، ولا التلون ، ولا الخداع ،  
ولا هذا النفاق السياسي الذي يسمونه الدهاء ! فيبطن غير ما يظهر ،  
ويتقصد شخصيات عديدة تبعا للظروف والمناسبات ..

ولكن علينا لم يكن في حياته كلها على حظ كبير أو ضئيل من هذا  
التلون ، والنفاق والدهاء الحقيق لأن نفسه الأبية الكبيرة تنفر من ذلك  
وتتأني عليه كل الأباء ولذلك كان ضحية في سياسته لهذه النفس الصافية  
الخالصة المترفعة عن الصغائر أمام معاوية الذي كان لا يتورع عن  
استعمال هذا السلام القذر من النفاق والخداع والخيانة ، وتبرير الوسائل  
المنحطة في سبيل الوصول إلى الغايات المطلوبة .

وينبغي أن تؤكد هنا معتمدين على استلزام الحوادث ، وطبيعة  
الأمور ، ودراسة النفسيات ، أن ما نسب إلى علي من أنه كان يرى  
أحقية بالخلافة من أبي بكر لسكونه ابن عم النبي أولا وزوج ابنته فاطمة  
ثانياً ليس له أى أساس من الصحة ، ولا يعتمد على سند قوى كما سنسهب  
في توضيحه الآن ... وما ذهب إليه كثير من المؤرخين من أنه وجد لعلي  
حزب يرى أنه أحق بالخلافة للأسباب التي ذكرناها منذ عهد أبي بكر ،  
ولكن هذا الحزب وعلى رأسه علي لم يستطع الجهر بدعوته تلك طيلة



خلافة أبي بكر وعمر ، والسنوات الست الأولى من خلافة عثمان لظروف خاصة منها إجماع المسلمين على انتخابهم وتأيد أهل الحل والعقد من أمة المسلمين لهم لما كانوا يمتازون به من تفان في خدمة الإسلام ، والمحافظة على تعاليمه ! . . .

أعتقد أن ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون لا يتفق أبداً مع علي بالذات . . . مع تسكوبينه النفسى ، وطباعه الذاتية التي تنفر من الرضوخ للضيم والتفريط فيما يراه حقاً كما يريد أن يصوره هؤلاء المؤرخون ! مع أننا رأينا فيما بعد شدته في الحق ، وتمسكه به بقوة وصرامة في موقفه من عائشة ، وطلحة ، والزبير في موقعة الجمل ، ثم موقفه بعد ذلك من معاوية والخوارج دون نظر إلى النتائج ما دام يرى أنه يعمل في سبيل الحق ، وإقامة العدل . . . ونعتقد أن المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء المؤرخون في أن علياً كان يرى أحقيته بالخلافة بعد الرسول عليه السلام هي مصادر الشيعة وحدها التي لم تحظ بتأييد من علي والتي بنت عليها الشيعة فيما بعد نظريتها في الخلافة ليكون من ذلك سنداً لها فيما تدعو إليه من أخذ أبي بكر وعمر وعثمان الخلافة غصباً من علي مع أن الدارس المتعمق يرى أن طبيعة الخلافة وطبيعة الحكم الإسلامى في عصوره الثلاثة الأولى وهي العصور التي سبقت خلافة علي كانت متقلة بالمسئوليات والجهد المضى والجهاد الشاق دون أن يقابل ذلك ميزات من ترف ، أو جاه ، أو مال ، أو رفعة وتمتع بسلطات أو تقراطية كما كان سائداً في العالم وفي العهود الكسروية والقيصرية بالذات ، وكما ساد بعد في عهد الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم إلى يومنا



هذا . ا فلم يكن تطالع هؤلاء الخلفاء إلى الخلافة إلا توضحية منهم  
يبدلوننا اصالح الإسلام والمسلمين دون أدنى شعور من الخليفة بالامتياز  
على جمهور المسلمين في أى شيء ، أو التطالع إلى حقوق لا تتوفر لغيره  
من رعاياه ، فهذا أبو بكر يصعد إلى المنبر عقب توليته الخلافة ، فيخطب  
جمهور المسلمين فيقول : «إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت  
فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » .

وهذا عمر بن الخطاب وهو خليفة للمسلمين يساوم رجلا من رعيته  
في شراء فرس ، ثم يركبه ليجربه ، فيعطب ، فيرده إلى صاحبه ، فيأبى  
أن يأخذه ، فيقول له عمر : اجعل بينى وبينك حكما ، فيرضى الرجل  
بقضاء شريح العراقي ، فتحا كما إليه ، فقال شريح بعد أن سمع حجة كل  
منهما : « يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت » ، فأكبر عمر  
هذه النزاهة من شريح وقال : « وهل القضاء إلا هكذا . ! » ، ثم أقام  
شريحا على قضاء الكوفة تقديرا لنزاهته وعدله .

فمنصب الخلافة في العصر الأول للإسلام كان كما قلنا ليس سعيا  
وراء مال أو جاه أو شهرة أو التمتع بساطات مطلقة ، وإنما كان يتميز  
بالبذل والتضحية والعرق والسهر في سبيل مصالح المسلمين دون أن يقابل  
ذلك شيء من متاع الحياة الدنيا . وكل ما كان يبتغيه أى خليفة من  
هؤلاء الخلفاء من وراء ذلك كله هو رضاء الله ورضاء رسوله الكريم  
في مشواه الأخير .

فمنصور أى حق من حقوق الخلافة لعلى من غير أن يبايعه جمهور



المسلمين ، أو يعهد إليه بها أهل الحل والعقد . شيء لم يقبله على بالذات  
عندما أثير في حياته ، لأنه بعيد عن روح الإسلام التي جعلت أساس  
الحكم شورى بين المسلمين ، ولم يجعله خاضعاً لحكم الوراثة أو القرابة  
أو العصبية .

لكل ذلك نعتقد أن علياً لم يكن يؤمن بأنه أحق بالخلافة من  
أبي بكر وعمر وعثمان ، وإلا لجاهر بهذا الحق وتمسك به منذ أول خلافة  
أبي بكر ، ولما قبل أن يصلى وراء من تقدمه في الولاية من هؤلاء  
الخلفاء الثلاثة ، ولا أن يشترك فيما كان يعرض عليهم من أفضية ، ومن  
أمر تتعاقب بالخلافة . . وإذا كنا استبعدنا عن علي رضي الله عنه  
ما نسب إليه من أنه كان يرى أحقيته بالخلافة لقرابته من النبي وكونه  
من بني هاشم آل بيت الرسول عليه السلام ، فإننا لا نستبعد وجود  
شيعة تدعو لعلي في ظاهر الأمر ، ولكنها تبطن أن يحدث من وراء  
ذلك أن تقع فتنة بين المسلمين بعضهم بعضاً ، فتتفرق وحدتهم ، ويشغلون  
بعضهم بعضاً ، فتقف فتوحات الإسلام عند حد ، ولا يستطيع السيطرة  
على المعمورة جميعها ، وهو الذي يكونون له العدا ، لأنه سلب منهم  
سلطات وامتيازات سواء داخل الجزيرة العربية ممن كانوا سدنة الأصنام  
أو غيرها من الأمصار ممن كانوا كهنة لليهودية والمسيحية والمجوسية .

وسنرى عند ما نتحدث عن فرقة الشيعة ، وما تفرعت عنها من  
فرق أن بعضها لم يقف شره عند حد إشاعة الفرقة والخصام بين  
المسلمين بعضهم بعضاً فقط ، وإنما أراد أن يفسد العقيدة من أساسها ،  
وأن يقتلع أركان الإسلام من أصولها ، كما ذهبت إلى ذلك فرقة السبئية



وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً ثم أسلم في الظاهر ، وهو الذي زعم النبوة لعلي ، ثم غلا في دعوته فزعم أنه إله ، واتبعوه في دعوته نفر كبير من أهل الكوفة ، ولما نهاهم علي عن ذلك ولم يقبلوا أمر بإحراق بعضهم ونفى بعضهم الآخر .

وهناك فرقة أخرى تسمى الغرابية ذهبت إلى أن النبوة كانت لعلي ولكن جبريل أخطأ وأوحى بها إلى محمد وهم يستيحيون لعنة جبريل ومحمد لأخذهما النبوة من علي كما يزعمون .

وهكذا كما ترى إذا تتبعنا الأصل الذي انبعثت منه هذه الفرق ، والغايات التي قامت تهدف إليها ، نجد أنه يرجع إل العداوة المستمرة المقنع للإسلام سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها كما ذكرنا قبلاً . وأن هذا العداوة الذي كان يتمثل في سدنة الأصنام من العرب ، أو في كهنة الجوسية واليهودية والمسيحية كان يهدف من وراء كل ذلك إلى إدخال الفساد على عقيدة المسلمين . وإبعادهم شيئاً فشيئاً عن روح دينهم وصفاته الذاتية ، لأنهم كانوا يذهلون من أن الإسلام جعل من هؤلاء البدو الأجلاف ، ومن أتباعه الذين كانوا مستضعفين في الأرض رجالاً أقوياء متعاونين على البر والتقوى يدعون إلى مثل عليا في الحياة ويمسكون بيدهم قيادة البشرية . وقد رأيت من حديث ابن كثير وابن خلدون فيما سبق ما يتفق مع وجهة نظرنا تلك .

وإذا كان فون كريم يقرر أن أول الفرق التي وجدت في الإسلام هي المرجئة والتبرية . ويرجع ذلك إلى أن أول اتصال حدث بين



الإسلام وغيره من النظم والديانات كان هو النظام المسيحي . . . ومع عدم موافقتنا على هذا التعليل وعلى ما يذهب إليه من أن المرجئة والقدرية هما أول الفرق في الإسلام ، وبالتالي من أن المسيحية هي أول ديانة أو نظام اتصل بالإسلام ، فإننا نحب أن نعرض رأيه هنا كاملاً . قال :

« كانت (١) المسيحية أول نظام اتصل بالإسلام اتصالاً وثيقاً ، إذ كانت دمشق في وقت من الأوقات مقراً للخلفاء الأمويين . وتقدمت فيها دون ريب في ذلك الوقت مدرسة دينية ، تخرج منها بعض علماء الكنيسة الشرقية البارزين ، وتقدمت في عاصمة الخلفاء حياة فكرية نشطة ، ولا بد أن العلاقات بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين كانت متشعبة ، وفي استطاعتنا أن نتأكد أن المناقشات الدينية بينهم كانت كثيرة جداً حتى ولو لم تذكر لنا المناقشات بين المسلمين والمسيحيين في كتابات يوحنا الدهشقي ، وتيودور أبو قرة ، ومن المحتمل جداً أن تكون قد نشأت من تلك المناقشات الدينية الطوائف الإسلامية الأولى وهي طوائف المرجئة والقدرية . »

ولما كان معظم الخلفاء الأمويين قد انصرفوا إلى حياة اللهو ، فإنهم أظهروا تسامحاً عظيماً حيال المسيحيين وأهالي الديانات الأخرى غير الإسلام . فلم يكن المسيحيون يدخلون بحرية بلاط الخليفة فحسب ، بل كانت تُسند إليهم أهم المناصب . وقد تمتع سرجيوس والديوحنا الدهشقي في بلاط الخليفة عبد الملك بمنصب المشير الأول ، وبعد وفاته أُسند

---

(١) راجع كتاب الحضارة الإسلامية ص ٦٥ .



المنصب نفسه إلى ابنه ، وكان أحد المسيحيين هو شاعر بلاط  
الأمويين الرسمي (١) .

ولكن خداجش في مقدمته لكتاب فون كريمز ينفي وجود هذا  
الاتصال الوثيق بين المسلمين الأولين والمسيحيين وإن كان اعترف  
بحدوث هذا الاتصال بعد ذلك حيث يقول : « وإذا (٢) كانت معلومات  
المسلمين الأول عن المسيحية غير وافية ، فإن من الجلي أنهم في الأزيمة  
المتأخرة عرفوها معرفة كاملة ، ويبدو أن ابن حزم وزير عبد الرحمن  
الخامس ( مارس ١٠٢٤ - ديسمبر ١٠٣٣ م ) كان على علم تام بتعاليم  
المسيحية لأنه يقول :

يجب أن لا نعجب حين نرى الناس يتمسكون بالخرافات . أنظر  
إلى المسيحيين فإنهم كثيرون إلى حد أن الله وحده هو الذي يعرف عددهم ،  
ومن بينهم أناس على قدر كبير من الفطنة ، وأمراء على قدر كبير من  
الشرف ، ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن ثلاثة واحد وواحد ثلاثة ، وأحد  
الثلاثة هو الأب والآخر الإبن ، والآخر الروح ، والأب هو وليس  
هو الإبن ، والرجل هو ، وليس هو الله ، والمسيح هو الله في كل شيء  
ومع ذلك فهو ليس مثل الله ، والموجود الدائم مخلوق ، بل إن إحدى  
فرقهم التي يسمون أتباعها اليعاقبة والتي يبلغ عددها مئات الآلاف  
تعتقد أن الخالق نفسه عذب وصلب وقتل حتى أن العالم ظل بدون سيده  
ثلاثة أيام ، انتهى .

(١) يعني بذلك الأخطل .

(٢) مقدمة خداجش لكتاب فون كريمز ص ٢٥ .



ولكن ينبغي أن نوضح هنا أكثر مما أوضحنا قبلاً العوامل التي ساعدت على نشوء هذه الفرق في الإسلام . . . وهذا التوضيح يقتضي منا أن نثير هنا سؤالاً جدياً خطيراً؟ وهو لو فرض ولم يحدث هذا النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة وهو الذي ارتبط به نشوء أول الفرق المنظمة السافرة عن نفسها في الإسلام وهم « الخوارج » ، أكان يمكن أن توجد فرق أخرى مثل هذه الفرق المتنافرة المتناقضة المبادئ والمذاهب والتي يكفر بعضها بعضاً ويحارب بعضها بعضاً . . . !

أما نحن فننجيب بالإيجاب؛ ذلك أن الإسلام جاء من أول أمره ديناً عاماً شاملاً للبشر جميعاً ، وهو بذلك يختلف عن سبقيه من ديانات ، وعن الديانتين السماويتين قبله بوجه خاص ، فالديانة اليهودية نزلت لبني إسرائيل وخدمهم باعتبارهم كما يزعمون « شعب الله المختار » ، وكذلك المسيحية نزلت أول ما نزلت لليهود ، ولم يكن يسمح بالدخول فيها لغيرهم حتى دعا القديس بولس الرسول غيرهم من الناس إلى الانضواء تحت لواها بنفس الامتيازات والحقوق التي لليهود !

ولكن الإسلام جاء من أول أمره ديناً عالمياً ، ودعوة عامة للبشر كافة ، فدخلته أجناس كثيرة مختلفة العقول متباينة الأمزجة والطباع . ! ومع أن الإسلام في قوته وروعته ، ووعيه الصحيح الناضج لحقيقة النفس البشرية استطاع أن يوفق ويجانس بين هذه الأجناس المختلفة ، والعقول المتباينة في حياة الرسول عليه السلام ، وفي حياة خليفته الأول الصديق أبي بكر ، الذي كان عهدُه استمداداً في الواقع لعهد الرسول



عليه السلام ، وتمثل قوى دقيق لكل ظاهرة أو صورة من صور عهد النبوة ، فكان كما أثر عنه : (إنما أنا متبع ولست بمبتدع) ، ثم أتى عصر الفاروق عمر بن الخطاب ، وقد انتشر الاسلام انتشاراً قوياً سريعاً خارج الجزيرة العربية ، ففضى نهائياً على الامبراطورية الفارسية ، وأصبحت الامبراطورية الرومانية هي الأخرى مهددة بالزوال بعد أن قص جناحها ، ووطد المسلمون أقدامهم في معظم أركانها فاتحين غازين مبشرين بالدين الجديد . . .

إلى هنا قضى الاسلام على كل مقاومة أمامه ، وتلاشت كل قوة تقف في طريقه ، فأصبح سيد الموقف ، وأمسك بيده عن جدارة قيادة السفينة الانسانية في أحلك مراحل التاريخ البشرى ، فأدار دقتها نحو الحق ، والعدل والخير ، والسعى لتحقيق مثل عليا للحياة . !

فعهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمثل الاسلام في أدق وأخطر فترة في حياته ، لأنه في هذا العهد اتسعت الفتوحات الاسلامية خارج الجزيرة العربية اتساعاً هائلاً عظيماً ، واتصل المسلمون الفاتحون بأمم وأجناس شتى تتباين أخلاقهم وطباعهم ، وبأخذون الحياة على أنها ترف وملذات ، وإسراف في الشهوات ، وكانت ظروفهم الاقتصادية ، وطبيعة أقاليمهم الخصبة ، واتساع رقعة أوطانهم الممتلئة بالثروة ، ثم نظام الأقطاع الذى كانوا يخضعون له في حياتهم ، كل ذلك كان يساعدهم على هذا الترف المسعور . . . وهنا موضع الخطر لأن جنود المسلمين عرب بدو ، لم يعرفوا طعاماً لنعمومة العيش ولا اليسر في طلب القوت



لجذب أرضهم ، وقسوة الطبيعة عليهم فكان يخشى من أن يتأثروا بمظاهر  
البذخ والترف والإغراق في الشهوات الذي كان سائداً امبراطوريتي  
فارس والروم . . . ! ولكننا نرى عكس ذلك ، نرى هؤلاء العرب  
البدو الذين خرجوا من الصحراء ، ولم تكن لهم أى قدمة أو سابقة في  
مظاهر الحضارة المادية أو الفكرية نراهم الذين يؤثرون في غيرهم من أبناء  
الأمم التي ذهبيوا إليها فاتحين ومبشرين بدين جديد ، وهذا التأثير كان  
قويّاً عنيفاً عميق الأثر بحيث جعل الكثير من أبناء تلك الأمم يقبلون  
على الإسلام طواعية بدون ضغط أو إكراه ، بل بدون عظمات ،  
ومجادلات كلامية ، لأننا كما قلنا غير مرة إن الصفة التي يتميز بها الإسلام  
عن غيره من الديانات أنه الدين الذي جاء يتفق مع الواقع ، فلم ينأ  
ألبتة في كل مبدأ دعا إليه أو نظرية أقامها عن الطبيعة البشرية ، وعمما  
تخضع له من أمور مادية ، وتناثر به من مسائل روحية ، وأنه ربط  
بين العبادة والسلوك الإنساني ، فكان بذلك ديناً عملياً يعنى بالمظهر  
والجوهر جميعاً ، فلا غرو بعد ذلك أن تنطبع مبادئ الإسلام وتعاليمه  
في أعمال أتباعه وسلوكهم الشخصي ، وبذلك كان تأثيرهم في غيرهم ،  
وكان انتشار الإسلام أقوى وأسرع مما لو كان بالإكراه والترغيب  
والمواعظ والإرشادات .

وكان لمثل الدعوة ، أو القائم عليها الأثر الخطير في ذلك ، وهو  
هنا في هذه الفترة من فترات الإسلام الدقيقه عمر بن الخطاب الذي  
تكافأت شخصيته مع اتساع رقعة الإسلام ، وما ترتب على ذلك من  
تواكب المشا كل الجسام التي كان يعالجها الخليفة ببصيرة نافذة ، وعقلية  
( ٩ — مستقبل الاسلام )



ناضجة ومعرفة للمتأرجح من المقدمات فتم الانسجام ، والتوافق على أروع صورة في عهده بين نظم الإسلام وروحه العامة وبين تلك الأجناس المتعددة، المختلفة الأمزجة ، المتنافرة الطباع والعادات . . . ولكننا إذا ما تركنا هذه العصور الثلاث وهي عصر النبي ، وعصر أبي بكر ، وعصر عمر ، نجد أن عوامل الذبذبة الخبيثة ، وعوامل العصية البغيضة أطلت بوجهها الكئيب من جديد بعد أن قضى عليها الإسلام في أول أمره قضاء لا هوادة فيه ، وساعد على ذلك عدم التكافؤ بين شخصية الخليفة الثالث عثمان بن عفان لشيخوخته وتساهله وضعفه أمام أسرته ، وبين ملء مكانة عمر وسيطرته على الأمور ، فظهرت أولا عصية العرب نحو الموالى بعد المؤامرة الفارسية التي دبرت لقتل عمر بن الخطاب ، ثم ظهرت ثانياً عصية أسرة عثمان نحو الأسرة الهاشمية وتفرد بها بالسلطان وخضوع الخليفة لمشيئتها فيما تريده من أمور :

فظهرت هذه العصبية وعدم قدرة الخليفة على مكافحتها والقضاء عليها بدون هوادة وهي ما زالت في مهدها هي التي مهدت التربة الصالحة لبذور الفرقة والاختلاف بين المسلمين . أضف إلى ذلك العداوة المقنعة للإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها ، والذي وجد في هذه الفترة من حكم عثمان التربة الصالحة لبث سمومه لتثريه سماحة الدين وروعته وبساطته تحت ستار الإسلام .

وعلى هذا الأساس وحده يجب أن تفهم البواعث الحقيقية لظهور الفرق في الإسلام .



وإذا كان بعض الكتاب الغربيين ومن سائرهم بعد ذلك من الكتاب الشرقيين يرجعون بواعث نشوء هذه الفرق إلى أن تعاليم الإسلام في الكتاب المقدس وفي السنة النبوية لم تتكافأ مع سرعة تطور المسلمين ، ولم تتفق وطبيعة الظروف التي كان المسلمون يجتازونها ، فلم يكن إذاً بد من أن توجد مثل هذه الفرق لأن الظروف تقتضى إيجادها .. !

وهكذا نجد «جولد تسيهر» يقرر بأن القرآن لا يكفي وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية حيث يقول «الواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا في خلال العشرين سنة الأولى من نموه . ففي خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن في رأى أتباع محمد عملاً أساسياً محترماً باعتباره موحى به كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظهر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية ... إلى أن يقول بالرغم من كل هذا فإننا لا يمكن لنا أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفي وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية .»

ويذهب إلى ذلك «العقاد» ، وإن كان اتخذ له منجى آخر ، ولكنه على كل حال يتفق مع «جولد تسيهر» على أن ظروف الزمان ، وطبيعة التطور التاريخي للمسلمين هي التي ساعدت على عدم سيطرة الإسلام على اتجاه المسلمين كما كانوا في عصرهم الأولى ، فيقول في كتابه «أبو الشهداء» .

«قلنا في كتابنا عبقرية الإمام ماخواه ، إن الكفاح بين علي ومعاوية لم يمكن كفاحاً بين رجلين . أو بين عقليين وحيلتين . . ولكن كان علي



الحقيقة كفاحاً بين الإمامة الدينية ، والدولة الدنيوية ، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية ، فغلب الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية . ولم يغاب الداعون إلى الإمامة من حزب الإمام .

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئاً عند محبيه ولا عند مبغضيه . فإذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية إلى شيء من مزاياه الشخصية ، فذلك غير جائز في الخلاف بين الحسين ويزيد ، وكل ما يجوز هنا أن يقال إن أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان .

وهذا كما ترى رأى لا يتفق ألبتة مع طبيعة الأشياء ، واستنتاج لا ينسجم مع الدعوات المحدودة ببيئة خاصة ، والتي لم ترتب نجاحها على أسس مفتعلة ، وإذا كان الأمر كذلك مع مثل هذه الدعوات الإنسانية المحلية ، فكيف يمكننا أن نصدق أن الإسلام ممثلاً في الكتاب المقدس ليس قادراً على أن يساير تطور المسلمين التاريخي ، ثم كيف يمكننا أن نصدق أن هذا الدين العالمي الذي نجح وانتشر بسرعة وبأساليب طبيعية لم نعهدها في الدعوات الدينية أو الدعوات البشرية ، والذي فتح أمام العالم آفاقاً جديدة من المعرفة البشرية ، والتطلع إلى إقامة مثل عليا للحياة ! . نقول كيف يمكننا أن نصدق أنه كان يتعارض مع اتجاه الزمان ومع تطور الحياة .. !



إن « جولد تسهر » ، ومثله « العقاد » ، قد غفلا في استئتماجهما هذا عن واقع التاريخ . وقد جهلا بما كان يعثور حياة البشرية قبل نزول الدعوة الإسلامية من تطالع إلى حياة أخرى تنشلمهم بما كان يسودهم من ظلم وفساد وانحلال ، فضلا عن أنه لا فرق بين الإمامة والسياسة في الإسلام .

وواقع التاريخ يؤكد لنا من الناحية الدينية أن الفساد كان يتطرق إلى العقائد الدينية نتيجة للتعقيدات ، والمناقشات الكلامية التي كان يحترفها رجال الدين من الكهنة والقسس ، والتي كان يناقض بعضها بعضاً ، ولذلك نهى الإسلام عن الخوض في مثل هذه الأمور ، حتى أن اليهود عندما سألوا النبي عليه السلام عن الروح نزل قوله تعالى : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . »

ثم إن دوافع الجهل والانحطاط ، وضباب الكرامة البشرية ومشروعية قيام الطبقات المتفاوتة ، وسيادة الشهوات الفاجرة ، كل ذلك كان ملازماً للنظام الأوتقراطي الملكي الذي كان سائداً العالم بطريقة بشعة مفزعة قبل نزول الإسلام ، وكان العالم يتلمس طريقاً لينج عن كاهله هذا الكابوس الخيف ، وليسترد أنفاسه التي أجهدا هذا النظام وما يحمله من عناصر الضعف والاضمحلال حتى وجد الإسلام الذي يقدر الحق والعدل والمساواة المطلقة ، وأن لا فضل لأحد على أحد للوراثة أو العصبية أو الجاه أو المال أو السلطان ، فقرر بذلك للعالم مبادئ جديدة لم تر الإنسانية ولن ترى أعظم ولا أروع منها في عصورها المقبلة إلى أبد الأبد . . .



نقول كيف يتفق كل هذا وما يذهب إليه العقاد من أن التيار الذي كان يتجاذب الإسلام هو تيار الملك الديوى ، وقد تغلب على تيار الإمامة لأنه يتفق مع التطور الزمنى !!

كيف يتفق كل هذا ولما يعض على الإسلام أكثر من ربع قرن !! اللهم إنا لا نعترف بما يذهب إليه هذان السكاتبان ، ونقرر هنا اعتماداً على إحصاءات الحوادث . . وطبيعة الأشياء ، ومنطق التاريخ أن الصدفة السيئة وحدها هي المسئولة عن التحول الذى طرأ على وجهة الإسلام ، وذلك بتولى عثمان بن عفان خليفة للمسلمين بعد عمر ، فلم يستطع أن يملأ مكانه ، ولا أن يمسك بيديه دفة السفينة فى قوة وصرامة ، ويقظة واعية فى أدق وأخطر فترة من فترات الإسلام ! وهنا برزت عوامل الانتكاس تتذبذب أمام المسلمين ، هنا نهض العداء الدفين للإسلام داخل الجزيرة وخارجها ليعمل عمله فى جسم الإسلام القوى الهباب ، هنا أطلت العصبية القبلية البغضاء بوجهها الكتيب ، فناصر الأمويون الأسرة الهاشمية العداء باعتبارها كانت نداء لهم فى الجاهلية ، فسادت أخلاق الجاهلية من جديد ، وظهرت عوامل الفرقة والخصام والتنافس فى المجتمع العربى فى الجزيرة وفى الأمصار ، ثم ظهرت عنجهية العرب وتعاليم نحو الموالى بصورة إن لم تزد فى قسوتها ومغالاتها على ما كانت عليه فى الجاهلية فهى لا تقل عنها فى شىء ، ففقد بذلك الموالى مكانتهم السياسية والاجتماعية التى أوجبها لهم الإسلام بتشريعه المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات ، وتكافؤ الفرص ! كل ذلك والخليفة ساكن



صامت قد أفلتت من يده زمام الموقف ، وقد كبرت أمامه الحوادث في سرعتها الجنونية ، وجموحها الشديد .

ونحن نحمل المسؤولية كلها في إيجاد هذه الفرق إلى هذه الفترة المضطربة من تاريخ الإسلام ، وأن هذه الفرق جميعها فيما أقامته من نظريات وتعاليم ، واستحدثته من مبادئ هدامة كان كل ذلك دخيلاً على الإسلام ، وعلى الأمة العربية التي تنفر طباعها وعاداتها الموروثة من التأويلات والتعقيدات الشائكة للعقيدة الدينية ، بل لنظرتهم إلى الحياة ، وحكمهم على الأمور والأشياء جميعاً .

والآن فلننحصر كل فرقة من هذه الفرق بكلمة عن نشأتها ، والعوامل التي ساعدت على تكوينها وآثارها الخربة الهادمة لتتحقق من صدق نظريتنا في أن أصل هذه الفرق أجنبي على الإسلام ودخيل على العرب ومن أن هذه الفرق كانت عوامل هدم وفسوق عن السير في طريق الإسلام الصحيح ، وسنتحدث عن الخوارج أولاً باعتبارهم أقدم فرقة منظمة في تاريخ الإسلام .

## (١) الخوارج

لما تمرد معاوية حاكم الشام على مبايعة علي بن أبي طالب خليفة المسلمين ، واتهمه بأنه يتستر على قتل عثمان ذهب علي رضي الله عنه على رأس جيش من أتباعه لمحاربتة ، والتقى الجيشان جيش علي وجيش معاوية في معركة ( صفين ) ، ولما لاحت بوادر النجاح لعلي ، وغلبة



جيشه على جيش معاوية ، وكاد يتم النصر في هذه المعركة الحاسمة التي لو قدر لها النجاح لتغير وجه التاريخ .

لما لاحت بوادر النصر ، وكادت الدائرة تدور على معاوية وجنده تفتق ذهن عمرو بن العاص عن حيلة ينقذ بها الموقف ، فأمر جنود معاوية برفع المصاحف على أطراف الرماح محكمين كتاب الله فيما شجر بينهم من خلاف . وقد رأى على رضى الله عنه ألا يقبل التحكيم في أول الأمر لعدم التكافؤ في الخصومة والاختلاف بينه وبين معاوية ، وللتباين الشديد في الموقفين ، فوقف معاوية لا يزيد عن كونه خارجاً عن طاعة السلطان ، متمرداً على الخليفة بعد أن بايعه جمهور المسلمين بالخلافة عدا الشام التي كانت واقعة تحت سيطرة معاوية ، لأنه كان عاملاً عليها . وما كان جهره بأنه خارج على علي لتستره على قتلة عثمان ، وعدم اقتصاصه منهم إلا ستاراً كان يخفي وراءه فزعاً شديداً من أن تخرج السلطة من الأسرة الأموية إلى الأسرة الهاشمية . وقد رأيت فيما قدمناه لك أن بواعث العنصرية والعصبية قد ظهرت في عهد عثمان بن عفان ، وتمت وازدهرت وأصبحت كما كانت في الجاهلية ، بل أقصى مما كانت ، فلم يكن من السهل أن يقبل معاوية أو أحد من أسرته بأن تخرج من يدهم تلك السلطات والامتيازات الأدبية والمادية التي تمتعوا بها منذ خلافة قريبهم عثمان ، ويصبحوا وليس لهم من الأمر شيء ، ولذلك دبر معاوية ومستشاروه تلك المسكيدة الأثيمة وهي مكيدة التحكيم ، وبالرغم من أن علياً لم يقبل التحكيم أول الأمر للأسباب التي ذكرناها ، إلا أن أكثر جنوده مازالوا به حتى قبل التحكيم وهو له كاره ، ولكنهم رجعوا



فاختلفوا معه مرة أخرى في اختيار الحكم فاخترواهم أبا موسى الأشعري بينما اختار علي عبد الله بن عباس ، ولكنهم حملوه مرة أخرى على أن يخضع لأمرهم في تعيين الحكم ، فخضع لهم ورضى بأبي موسى الأشعري وكبلا عنه كما ارتأى ذلك جنوده منعاً للفرقة والاختلاف بينه وبينهم ، وسار الحكمان يصحبهما أربع مائة رجل إلى بلدة بين العراق والشام تسمى ( أذرح ) اختيرت لهذا الغرض .

وكان مندوب معاوية في التحكيم هو داهية العرب وأمكرهم عمرو بن العاص ، أما مندوب علي وهو أبو موسى الأشعري ، فالمشهور عنه أنه ورع تقي صافي القلب والضمير لم ينظر إلى المسألة كقضية يتمسك فيها بالحق مهما كانت النتائج والظروف . وإنما رأى أن صالح المسلمين يقتضى التخلص من علي ومعاوية جميعاً . فلما اقترح عليه عمرو بن العاص أن يخلع كل منهما صاحبه ليربحا بذلك المسلمين من عناء حرب ضروس ومن سفك دماء بعضهم بعضاً ، وجد هذا الاقتراح هوى في نفسه وقبله بدون مناقشة ولا تردد . وهكذا ابتدأت بوادر هزيمة علي .

ونحن نحمل هنا أبا موسى خطأين :

الخطأ الأول قبوله المساواة بين علي ومعاوية في عوامل الاختلاف بينهما مع شدة الفرق الشاسع بينهما ، فالأول خليفة بايعه أكثر المسلمين ، والثاني عامل خارج عن طاعة الخليفة وعن إجماع الأمة . . .

الخطأ الثاني : خروجه عن حدود الوكالة ومقتضياتها وحقها المقدس لأنه بدلا من أن يدافع عن حق موكله ، ومصالحه التي ائتمنه عليها راح يحاول سلبه هذا الحق ، ويهدر مصالحه بقبوله بدون تمعن ولا نقاش



اقترح عمرو بن العاص بأن يخلع كل منهما صاحبه ثم يختار بعد ذلك المسلمون خليفة لهم من أتقياء المسلمين وأصلحهم ، ولما أعان أبو موسى خلع على ، أعلن عمرو بن العاص تمسكه بمعاوية ، فظهرت حينئذ تلك المؤامرة التي استغفل فيها أبو موسى الأشعري ، وكان ضحيتها علي . . . حينئذ برزت من جيش علي قبيلة عريية من بني تميم تنكر التحكيم ، وتكفر من أخذه ، لأن مجرد قبول التحكيم ينطوي على شك كل فريق في أحقيته بالأمر ، وهم وقتلاهم ما حاربوا إلا لإيمانهم بأنهم على حق ، حيث يكون قتلاهم شهداء يدخلون الجنة في سبيل الذود عن الحق ، والدفاع عن عقيدتهم ، أما قبول التحكيم فهو تشكيك في هذا الحق ، وخروج عن حكم الله ، ثم طلبوا من علي أن يقر على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ثم يتوب إلى الله ، وينقض ما أبرمه مع معاوية من شروط ، وبذلك ينضوون تحت لوائه من جديد لمحاربة معاوية ، ولكن علياً لم يقبل أن يحكم على نفسه بالكفر ، وبالتالي لم يقبل أن يكون هو البادئ بنقض ما بينه وبين معاوية من موثيق بالرغم من أنها تمت تحت مؤامرة خسيصة ، وأخذ على يستهد بهم ويستميلهم بشتى الوسائل ، ولما أخفق رحل من صفين مع ما بقي من جنده إلى الكوفة ، وتحلفوا هم ، ثم قام أحدهم خطيباً فقال :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق ، فأخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدن منكربين لهذه البدع



المضلة ، . . . وذهبوا بعد ذلك إلى بلدة قريبة من الكوفة تسمى  
(حَرْورَاء) ، وأمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي .

والخوارج يتغلب عليهم التعصب الأعمى . والتزمت الشديد ، وتبرير  
الوسائل الوحشية في سبيل ما يزعمونه حقاً واجباً ، وما نرويه هنا عن أوثق  
المصادر التاريخية يعطيك صورة واضحة عن قلوبهم القاسية التي تتغلب عليها  
طباع البداوة ، من جهل وجموح وشروء عن سبيل الجماعة ، وإن كل واحد  
منهم يرغب أن يكون سيد نفسه ، ودولة وحده ، ونعتقد أن الظروف  
الاقتصادية القاسية مع هوامل أخرى خارجية سببت حدوثها في حينها ، لها  
أثر خطير جداً في تكيف عقيدة الخوارج ، وتعصبهم المسرف في المغالاة  
والذي لم نرأه بلغ منه في كل عصور التاريخ فيروى « أن (١) زياد بن أبيه  
بلغه عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة ، أنه يرى رأى  
الخوارج فدعاه فولاه ورزقه أربعة آلاف درهم في كل شهر ، وجعل  
عماله في كل سنة مائة ألف ، فكان أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً  
خيراً من لزوم الطاعة ، والتغلب بين أظهر الجماعة فلم يزل والياً حتى  
أنكر منه زياد شيئاً فتمنر لزياد فحبسه ، فلم يخرج من حبسه  
حتى مات . »

والظاهرة التي نلمسها بوضوح في أخلاق الخوارج وطباعهم هي  
الشجاعة ، والإقدام ، والفدائية البالغة مع سداجة الفطرة في نفوس  
قادتهم ، ولذلك كان من السهل إيجاد عوامل الفرقة والاختلاف بينهم ،  
وكان ذلك سبباً من الأسباب التي توهم من قوتهم والتغلب عليهم .

(١) الشافعي للأستاذ محمد أبو زهره ص ١٠٦ .



وإذا لم تتوفر بينهم عوامل الاختلاف دفعت إليهم من أعدادهم بطريقة تدل على غفلة وسذاجة قادتهم . فلقد كان « المهلب (١) ابن أبي صفرة يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم وخضد شوكتهم ، والفيل من حدتهم ، وإذا لم يجدهم مختلفين دفع إليهم من يثير الاختلاف بينهم ، يحيى ابن أبي الحديد أن حداداً من الأزارقة كان يعمل نصالاً مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب فقال : أنا أكتفيكموه إن شاء الله ، فوجه رجلاً من أصحابه بكتاب ، وألف درهم إلى عسكر قطري بن الفجاءة قائد الخوارج فقال له : أتق هذا الكتاب في العسكر والدرهم ، واحذر على نفسك فمضى الرجل ، وكان بالكتاب :

أما بعد فإن نصالك قد وصلت إلي ، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها وزدنا من النصال ، فرفع الكتاب إلى قطري فاستدعى الحداد ، فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال . لا أدري ، قال : فما هذه الدراهم ؟ قال : لا أعلم بها ، فأمر به فقتل ، فجاء عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال : قتلت رجلاً على غير ثقه وتبين ؟ قال قطري : إن قتل رجل في صلاح الناس غير منكسر ، والإمام أن يحكم بما يراه صالحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له عبد ربه في جماعة معه ولم يفارقوه ، وبلغ ذلك المهلب فدس إليهم رجلاً نصرانياً جعل له جعلاً يرغب في مثله . وقال : إذا رأيت قطرياً فاسجد له ، فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك ، ففعل ذلك النصراني ، فقال قطري : إنما السجود لله تعالى ، فقال

(١) مستقى من كتاب الشافعي للأستاذ محمد أبو زهرة ص ١١١ ، ١١٢ .



ما سجدت إلا لك ، فقال رجل من الخوارج : إنه قد عبدك من دون الله ، وتلا قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » ، فقال قطرى : إن النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فاضر عيسى ذلك شيئاً ، فقام رجل إلى النصراني فقتله ، فأنكر قطرى ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره ، وبلغ المهلب ذلك فوجه إليهم رجلاً يسألهم ، فأتاهم الرجل ، فقال : رأيتم رجلين يخرجان مهاجرين لركم فمات أحدهما في الطريق وبلغ الآخر إليكم ، فامتحنتموه فلم يجز المخنة أما تقولون ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنة ، وأما الذى لم يجز المخنة فكافر حتى يميز المخنة ، وقال قوم آخرون : هما كافران حتى يميزا المخنة فكثير الاختلاف ، وخرج قطرى إلى حدود اصطنخر ، فأقام شهراً والقوم في خلافهم .

هذه بعض النماذج التى تبين لك عقلية الخوارج ، وطباعهم النفسية ، وما كانوا يتصفون به من زمت شديد ، وعصبية عمياء . . . ولكننا نحب قبل أن نأخذ فى درس أحوالهم وتطوراتهم أن نتسامل هنا عن البواعث التى ساعدت على نشوئهم وتكوينهم أمى بواعث خارجية أم بواعث داخلية بحتة ؟ نحب أن نتسامل هل عقلية هؤلاء الخوارج وأغلبهم عرب بدو كانت تقدر بنفسها على أن تتصور شيئاً عن نظام السياسة والحكم ، والفقه فى الدين دون أى تأثير يأتيا من الخارج ؟ إننا وفقاً للقواعد المنطقية والطبيعة الأشياء لانهمض أن يستطيع هؤلاء العرب البدو وحدهم تصور شىء من ذلك ، والحقيقة التى نبنيها على ضوء ظهورهم وتطوراتهم أن هناك تأثيرات خارجية يهودية ومسيحية



وفارسية تحمل كلها العداء للإسلام هي التي كيفت عقيدة الخوارج في السياسة والدين والأخلاق .

وقد اختلف المؤرخون المستشرقون في أصل الخوارج ، فذهب (١) (برونو) إلى أنهم من البدو أو العرب البدو الذين سكنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الأولى .

وقال (ولوزون) : إنهم أهل الردة وهم العرب البدو الذين ثاروا بعد رسول الله على الحكومة الإسلامية الأولى . . . وليس هناك من اختلاف بين ما ذهب إليه (برونو) و (ولوزون) ، لأن الواقع أن سكان البصرة والكوفة كانوا بأكثرهم من العرب البدو الذين اشتركوا في الحروب الفارسية ، ونقلوا معهم إلى المدينتين العريبتين الجديدتين جميع الفضائل والمساوىء التي ينعم بها البدو ، خصوصاً ما يتعلق منها بالتعصب للقبيلة والحياة الاجتماعية الخاصة ، والنظر إلى النظم الحكومية الجديدة نظرة فيها كثير من الجفاء ، وعدم التأييد والمبالاة ، مفضلين عليها أنظمتهم العربية الشديدة من زعامة شيوخهم ، والأخذ بما وصفهم به معاوية : من أنهم لا يطيقون الحياة الموحدة ، وإنما يفضلون عليها الحياة البدوية الفردية التي تجعل كل شخص منهم يعتبر نفسه شيعة وحده .

ونحن وإن كنا نسلم أن غالبية الخوارج كانوا من العرب البدو إلا أننا نعتقد أنهم كانوا ضحية لما كان يسود حياة العرب البدو من أمية .

---

(١) الخوارج في الاسلام للأستاذ عمر أبو النصر .



وجاهلة وفطرة ، فكان من السهل التأثير عليهم في التأييدات الضالة لآيات الكتاب المقدس ، وفي التصديق بالأحاديث الموضوعية ، والمذسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أحدثها اليهود والمسيحيون والفرس .  
والخوارج في رأينا لم يكونوا كفاراً ، ولم يتعمدوا إفساد الدين . وإنما كانوا يسعون إلى التمسك بحقيقة الإسلام وجوهره ، وإن كانوا تنكبوا في ذلك السبيل . وفرق كبير بين التعمد والإصرار على إفساد جوهر العقيدة ، وبين تنكب سواء السبيل في فهم أصول العقيدة وروح الإسلام ، ولعل هذه الحادثة التي ذكرها المبرد عنهم تبين لنا فهمهم المعوج وعقلهم السقيم في فهم الدين قال :

« من (١) طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني ، وقالوا احفظوا ذمة نبيكم ... »

لقيهم عبد الله بن خباب وفي عنقه مصحف ، ومعه امرأته ، وهي حامل ، فقالوا : إن الذي في عنقك ليأمرنا أن نقتلك . . قالوا فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قالوا : فما تقول في علي قبيس التحكيم ، وفي عثمان في ست سنين فأثنى خيراً . قالوا : فما تقول في التحكيم ؟ قال : أقول : إن علياً أعلم بكتاب الله منكم . وأشد توقيماً على دينه ، وأنفذ بصيرة . قالوا . إنك لست تتبع الهدى ، إنما تتبع الرجال على أسمائهم قربوه إلى شاطئ النهر ، فذبجوه . . . وماوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : والله ما كنا لناخذها إلا بشمن . قال :

(١) السكامل للمبرد .



ما أعجب هذا : أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ، ولا تقبلوا ثمن نخلة ا ،  
وما قاله البغدادي في ذلك أنه لما « قرب (١) على منهم أرسل إليهم  
أن سلموا قاتل عبد الله بن خباب فأرسلوا إليه : إنا كنا قتله وإن ظفرونا  
بك قتلناك ، فأتاهم على في جيشه وبرزوا إليه بجمعهم فقال لهم قبل القتال :  
ماذا نقتم مني ؟ فقالوا له : أول ما نقتمنا منك أنك قاتلنا بين يديك يوم  
الجل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحث لنا ما وجدنا في عسكرهم من المال  
ومنعتنا من سبي نساءهم وذرائعهم ، فكيف استحللت ما لهم دون النساء  
والذرية ؟ فقال : إنما أبحث لكم أموالهم بدلا مما كانوا أغاروا عليه  
من بيت مال البصرة قبل قدومي عليهم . والنساء والذرية لم يقاتلونا وكان  
لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ولم يكن منهم ردة عن الإسلام  
ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد لو أبحث لكم النساء أيكم يأخذ  
عائشة في سهمه ؟ فنجعل القوم من هذا ثم قالوا له : نقتمنا عليك نحو إمرة  
أمير المؤمنين على اسمك في الكتاب بينك وبين معاوية لما نازعك معاوية  
في ذلك .

فقال : فعلت مثل ما فعل رسول الله عليه وسلم يوم الحديبية حين قال  
له سهيل بن عمرو ، لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ولكن أكتب  
باسمك واسم أبيك فكتب : ( هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل  
ابن عمرو ) ، وأخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن لي منهم يوما  
مثل ذلك . فكانت قصتي في هذا مع الأبناء قصة رسول الله عليه السلام  
مع الآباء . فقالوا له : فلم قلت للحكمين إن كنت أهلا للخلافة فأثبتاني

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤٧ ، ٤٨ .



فإن كنت في شك من خلافتك فغيرك بالشك فيك أولى .

فقال : إنما أردت بذلك النصفة لمعاوية . ولو قلت للحكمين احكما لي بالخلافة لم يرض بذلك معاوية .

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران إلى المباهاة وقال لهم : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، فأنصفهم بذلك عن نفسه . ولو قال : أبتهل فأجعل لعنة الله عليكم لم يرض النصارى بذلك . لذلك أنصفت أنا معاوية من نفسي ولم أدردر عمرو بن العاص . قالوا : فلم حكمت الحكمين في حق كان لك ؟ . فقال : وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل ، وأقتت أنا أيضا حكما . لكن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم بالعدل وحكمي خدع حتى كان من الأمر ما كان . فهل عندهم شيء سوى هذا ؟ فسكت القوم وقال أكثرهم : صدق والله وقال التوبة ، واستأمن إليه منهم يومئذ ثمانية آلاف وانفرد منهم أربعة آلاف بقتاله مع عبد الله ابن وهب الراسبي وحر قوص بن زهير البيجلي . . . »

وسواء أصححت هذه الرواية أم لم تصح وإن كنا نستبعد حدوثها . وذلك لما يكتنفها ويثبت فيها من ادعاءات منسوبة لعلی تتفق ونظرية الشيعة في الخلافة ، وذلك مثل ما نسب إلى علی من قوله « أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لي منهم ( أي من قريش ) يوما مثل ذلك فكانت قصتي في هذا من الأبناء قصة رسول الله عليه السلام مع ( ١٠ - مستقبل الاصلام )



الأبناء ، ولم يثبت قطعا عن رسول الله ذلك ولم يدعه على رضى الله عنه في حياته .

وغاية ما نقوله عن الخوارج ، وعن العوامل التي أثرت في عقيدتهم أنها لم تكن عوامل ذاتية داخلية ، وإن هذه التأثيرات وإن كان قد ساهم فيها اختلاط العرب باليهود والنصارى إلا أنها في قوتها وشدتها وأثرها القعمال الأول فارسية بحتة ، لأن ظروفها طرأت على المجتمع الإسلامى على غاية من الخطورة سبقت ظهور الخوارج ، وهى ظهور العنصرية وسيادة العصبية العربية . ومن الثابت أن الخوارج ظهروا أول ما ظهروا في الكوفة والبصرة ، وأنهم كانوا ضمن جيش سعد بن أبى وقاص الذى فتح بلاد الفرس ، وقضى على ملك الأكاسرة ، وأغلب هؤلاء الخوارج من قبيلة بدوية لم تبل من الحياة شيئا ، وإنما كانت في شبه عزلة عن العالم بما فيه من خير وشر ، قانعة بحياة الصحراء ، وما فيها من قسوة في الرزق ومزاولة نمط واحد في الحياة لا يتغير من جيل إلى جيل . . . فليس من العسير على قوم مثل هؤلاء أن يتأثروا بما كان يفعل في نفوس غيرهم من أهل البلاد التي ذهبوا إليها فاتحين . ثم استوطنوها ، وخصوصا لو شاركهم هؤلاء العقيدة والدين ، وهم الموالى الذين ضاعت حقوقهم الاجتماعية والسياسية منذ عهد عثمان بن عفان لاسيما إذا كانت النظرية التي يجربون بها تجدها صداهها القوي في نفوس هؤلاء العرب البدو الذين يتعشقون الحرية ويأنفون من الخضوع للغير .

وهناك فرق بين الموالى بعضهم بعضا : هناك فريق أخاص للدين



وللرسول عليه السلام ، وهؤلاء ممن كانوا زاهدين في الحياة يعملون على خدمة الإسلام بقوة وإخلاص وهم ممن كانوا يحبون الرسول وآل بيته الكريم ، ومن هؤلاء بعض الشيعة المعتدلين . أما الفريق الآخر وهو الذي دخل الإسلام من غير أن يطمئن إليه قلبه تحت ظروف خاصة ترجع في معظمها إلى التمتع بالمساواة التامة بين المسلمين الفاتحين ، وهي التي دعا إليها الدين ، ولما لم تتحقق المساواة لهذا الفريق أخذ يسعى في هدم هذا الوضع الذي ستأخذ به أى دولة تقوم من العرب ، بعد أن ظهر تعصب العرب ، ونما وترعرع ، ولم يكن هناك من سبيل إلى القضاء عليه بل الخدمته . وبذلك ظهرت في تفسير الخوارج نظرية جديدة للخلافة لا تتفق في شيء مع ما أجمع عليه المسلمون الأولون في انتخاب أول خليفة في اجتماع سقيفة بني ساعدة ، وهي أنه ليس من اللازم أن تكون الخلافة في قريش ، بل ليس من اللازم أن تكون في العرب ، وإنما يجوز أن تكون في غيرهم من المسلمين متى توفر في الخليفة الصلاح والتقوى والإخلاص والتمسك بمبادئ الدين ، وهذه النظرية من غير شك هي رد فعل لما كان ينكره الموالي على العرب من هضمهم لحقوقهم السياسية والاجتماعية وتعتبر النظرية من الأصول القوية في مذهب الخوارج .

يقول «فون كرىمر» : « بعد (١) انتهاء الحروب الفارسية استقر معظم الجنود الذين اشتركوا فيها في المركزين العسكريين اللذين أسسهما عمر الأول وهما الكوفة والبصرة ، وكان معظمهم من عرب الصحراء ذوي الدماء العربية الخالصة ، وعندما عادوا إلى وطنهم أغنياء كرسوا



أنفسهم للناحية الدينية من الاسلام . ومن الصعب الشك في أن مبادئ الخوارج تمت بين هؤلاء الناس مادام الخوارج ظهروا أولا في الكوفة والبصرة ، وكل خوارج الأئمة الأولى تقريبا الذين وصلتنا أسماءهم من القبائل الصحراوية الكبرى التي كانت تتمثل تمثلا ظاهرا في تلك المدن .

« والبلاذري (١) نفسه يقص علينا كيف أن أربعة آلاف فارسى من جند ( شاهن شاه ) ، لما طلبوا الأمان بعد معركة من المعارك التي ظهر فيها العرب بالفرس صار نقلهم إلى البصرة ، حيث اتصلوا بالأساورة الذين كانوا فيها ، والأساورة كما يظهر كانوا من الفرسان الفرس الذين أسلموا ، وكانوا من موالى بنى تميم العرب في البصرة ، ويذكر البلاذري أيضا جماعة من ( أصهبان ) نزلوا البصرة . مما يدل على أن كثيرا من الفرس الذين اعتنقوا الإسلام قد انضموا إلى بنى تميم ، وهى القبيلة التي ظهر منها أكثر الخوارج وأبرز قادتهم في أقدم عصورها .

وقد اختلف أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن الفرق في الإسلام في عدد فرق الخوارج وفي أسمائها .

فذكرهم البغدادي عشرين فرقة (٢) بينما ذكرهم مؤرخ آخر قديم هو أبو الحسن الملقب (٣) عشر فرق ، مع اختلاف في أسماء الفرق

---

( ١ ) الخوارج في الاسلام

( ٢ ) راجع ذلك يتوسع في كتاب « الفرق بين الفرق » للبغدادي ص ٤٥

( ٣ ) « التنبيه والرد » للمطلى ص ٥١



وأسماء مؤسسيها ، وهذا ما ذهب إليه كل مؤرخ تعرض للكتابة عن الخوارج وتطوراتهم .

وجملة القول أن الخوارج كان منهم المعتدلون والمغالون فالمعتدلون هم « الاباضية » والمغالون هم « الأزارقة » وقد تفرع عن كل منهما فرق كثيرة .

ولكن وجد من الخوارج من خرج على الإسلام وهم فرقتان :

إحدهما : « الزيدية » وهم أتباع يزيد بن أبيه وقد زعم أن الله سيرسل رسولا من العجم وسينزل عليه كتابا ينسخ القرآن . .

ثانيتها : « الميمونية » أتباع ميمون العجردى . وقد أباح نكاح بنات الابن ، وبنات أولاد الاخوة ، والأخوات ، وقد أنكرت العجاردة سورة يونس ولم تعدها من القرآن « وزعمت (١) أنها قصة من القصص وقالوا لا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن ، واستبعدوا أن تكون مساوية للسور الأخرى من كتاب مقدس أنزله الله . .

## ( ٢ ) الشيعة

إن أول شيء يلفت نظر المؤرخ الحديث لتاريخ التطور الاسلامى ذلك التوافق التام الذى أجمع عليه كثير من المؤرخين ، غربيين وشرقيين فى تقسيم الاسلام إلى سنى وشيعى ! والحقيقة التى لا مراء فيها ، والتى يجب

( ١ ) العقيدة والشريعة « لجلود تسهر » ص ١٧٣ .



أن يعيها جيداً المسلمون المعاصرون أن هذا التقسيم دخيل على الاسلام  
كعقيدة إلهية ، وكدعوة بشرية ، وليس من شك في أن الصدف السيئة  
وحددها ، والظروف القاسية التي لازمت المسلمين منذ القرن الأول  
للإسلام حتى يومنا هذا ، وكلها ظروف سياسية وعصبية قبلية ، تنطوي على  
مكر بالاسلام ، ومحاولة هدمه من أناس يتسترون بالاسلام ظاهرياً  
ليغفل عنهم المسلمون ، وقد غفلوا كما ستري بعد . أقول : ليس من شك  
في أن كل هذا هو الذي ساعد على إيجاد هذه الفرق ، التي أوجدت بدورها  
التشاحن والتصارع بين المسلمين خلال تاريخهم الطويل ، مع أن الاسلام  
في خصائصه وذاتيته جاء منكر للفرقة والحصام ، مقدساً رأى الجماعة عابداً  
على إيجاد التعاون والألفة بين الناس ومشاركة بعضهم بعضاً في الأحاسيس  
والمشاعر . فلم يوفق بين القبائل العربية المتنافرة الطباع والعادات ، ولم يقض  
على ما كان يسودها من شحناء وبغضاء وامتشاق الحسام لأتفه الأسباب  
فحسب ، وإنما استطاع بما رسمه من مبادئ وتعاليم أن يمازج ويؤالف  
بين مختلف الاجناس البشرية المتباينة العادات ، والمتنافرة الطباع ، بمن  
ارتضوه ديناً ، أو استظلوا به مطمئنين لحمايته . !

فالاسلام في عرفنا ليس اسلاماً سنياً أو شيعياً أو ما شابه ذلك من  
الاسماء التي فرضت نفسها عليه بدون إرادة له في ذلك ، والتي أصبحت  
محسوبة في ذمة التطور التاريخي له ، دون اتفاق مع طبيعته أو أهدافه  
ونظرته للكون والانسان والأشياء جميعاً . !

بما هو جدير بالملاحظة أن نسجل هنا بعض آراء العلماء  
في منشأ التشيع ، والعوامل التي ساعدت على نموه ، وما كان



يكتنفه من بواعث ، ويسيطر عليه من اتجاهات ؟ وهل كان كل ذلك دخيلاً على طبيعة البيضة العربية أم نبع منها دون مؤثرات خارجية . . . ١٩٠

ينسكرك ( ولوزن ) المؤثرات الفارسية في منشأ التشيع ، ويذهب إلى أن العقيدة الشيعية نبتت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية مستدلاً بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ ، وهو يهودي .

ولسكن ( دوزي ) يقرر (١) أن أصلها فارسي ، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة في البيت المالك ، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً ، فأولى الناس بعده ابن عمه علي بن أبي طالب . فمن أخذ الخلافة منه ، كأبي بكر وعمر وعثمان والأمويين فقد اغتصبها من مستحقها .

وقد اعتاد الفرس أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهي ، فنظروا هذه النظرة نفسها إلى علي وذريته ، وقالوا إن طاعة الامام أول واجب ، وإن طاعته طاعة الله .

ويقول ( فان فلوتن ) : قد ثبت بالفعل أن من مذاهب الشيعة ما كان مباة للعقائد الآسيوية القديمة كالبودية والمناوية وغيرهما .

وينفي جولد تسيهر المؤثرات الفارسية في منشأ التشيع ومراحل نموه ويقرر أن الحركة العلوية التي تفرع منها التشيع فيما بعد نشأت في أول أمرها في أرض عربية بجمّة ! فهو ينسكرك الخطأ القائل بأن (٢) التشيع في منشئه

( ١ ) الشافعي للاستاذ محمد أبو زهرة ص ٩٣ - ٩٤ .

( ٢ ) العقيدة والشريعة في الاسلام ص ٢٠٥ .



ومراحل نموه يمثل الاثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الامم الايرانية في الاسلام بعد أن اعتنقته ، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية .

وهذا الفهم الشائع مبني على سوء فهم للحوادث التاريخية ، وهو ما أولاه ( فلهوزن ) ما يستحقه من عناية في كتابه ( أحزاب المعارضة الدينية والسياسية في الاسلام ) فالحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحت ، ولم تمتد إلى العناصر الاسلامية غير السامية إلا في خلال ثورة المختار بل إن قواعد نظرية الامامة ، والفكرة التي تجلت معالمها في الاعتقاد بالرجعة ينبغي أن ترجعها كلها ، كما رأينا ، إلى المؤثرات اليهودية والمسيحية . كما أن الاغران في تأليه علي ، الذي صاغه في مبدأ الامر عبد الله بن سبأ ، حدث في بيئة سامية عذراء ، لم تكن قد تسربت إليها بعد الافكار الآرية وانضم لهذه الحركة في بدء قيامها جموع غفيرة من العرب حتى إن أول الواضعين لجزء من مبادئ التجسيم والحلول قوم لا شك أنهم من الجنس العربي الصميم .

وقد مال لاعتناق التشيع — مع كونه من الفرق المخالفة — قبائل عربية تشبعت بالآراء الشيوقراطية وبشرعية حق علي في الخلافة . وأقبلت على تعاليمه في لطفة وحماسة لا تقل عن حماسة الايرانيين . حقيقة إن صفة المعارضة التي انطوى عليها التشيع ، قد صادف عند الايرانيين قبولا وترحيبا ، فانضموا بمحض اختيارهم تحت لواء هذه الفكرة الاسلامية التي أمكنهم أن يؤثروا بعض التأثير في نموها وترقيتها فيما بعد ، وذلك بفضل فكرتهم الوراثية القديمة الخاصة بالملكية الالهية . ولكن بوادر هذه الفكرة في الاسلام لا يشتم منها وجود مثل هذا التأثير الايراني ،



فالتشيع كالا سلام عربي في نشأته ، وفي أصوله التي نبت منها ، .

ذكرت هذه الآراء كلها هؤلاء المستشرقين الافاضل، وأنا أعلم مبلغ بعدها من الدقة، وعدم تصويرها لحقيقة الواقع، وذلك ليلم القارىء بالاسس التي بنى عليها هؤلاء العلماء استنتاجاتهم في منشأ التشيع ، وفي العوامل التي ساعدت على نموه ، وفي المؤثرات التي أثرت فيه ، وأغلب الظن أن هذه الاستنتاجات في مجموعها انبثت على المظاهر، والصور المرئية فقط. دون تعمق إلى أكثر من ذلك ..! لقد قررنا في أول هذا الفصل أن الاسلام بعد أن سيطر على الجزيرة العربية ، وقضى على ما كان يسودها من عصبية قبلية وسيادات عنصرية توجه بعد ذلك بفتوحاته إلى خارج الجزيرة ، فاكتسح في قوة خارقة كل ما أقيم أمامه من سدود ، وسيطر على جزء كبير من أرض المعمورة ، وتلاشت أمامه الامبراطورية الفارسية تماما ، وانكسخت الدولة الرومانية في هذا الوقت . وفي منتصف عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان تذبذب امام الاسلام قوتان تسكيدان له قوة داخل الجزيرة العربية ، وقوة خارجها ، وتمثل القوة الاولى فيمن أسلم داخل الجزيرة من اليهود . وتمثل القوة الثانية فيمن أسلم من الفرس لتتحقق لهم المساواة التامة في الحقوق والواجبات مع العرب الفاتحين ، ولما لم تتحقق هذه المساواة أخذوا يكيدون للإسلام من الطريق الذي يستطيعون السكيد منه ، لأنهم لم يكونوا يملكون شيئاً من وسائل القوة والحرب . فحاولوا إفساد العقيدة الدينية للمسلمين .

ونظرة يسيرة إلى تاريخ المسلمين منذ أواخر عصر عثمان إلى ما تلا ذلك من عهود تنبئك بأن العرب والمسلمين الخالصين في إسلامهم كانوا ضحية



لمؤامرة دنيئة دبرت بأحكام لافساد عقيدتهم البسيطة السمجة ، ولايجاد  
عوامل التنازع ، والفرقة بينهم . فبينما اتجه كبار الصحابة إلى الخروج إلى  
الامصار للاتجار ، وجمع المال بكثرة ساحقة . كان بعض اليهود والفرس  
من أسلموا ظاهرياً . يتجهون بكليتهم إلى البحوث الدينية ، والتبحر فيها  
يهمفتون العامة من المسلمين في أمور دينهم ، ويدارسونهم في ماهية عقيدتهم  
دون رقيب عليهم ، وساعد على ذلك ما يتميز به العربي من بساطة وسداجة  
وأمية ، وطيبة قلب ، واستقامة نفس ليس فيها التواء . فكان يتقبل ذلك على  
أنه حق محض . ثم ساعد على ذلك ما كان من تطور الحوادث وتواكبها  
في قسوة وعنف ، حتى استقر الامر الأمويين الذين لم يكن يعنيهم الدين  
في شيء ، وإنما كانوا يعتمدون في إقامة دولتهم على شيئين فقط ، هما المال  
والعصية ، ولا شيء سواهما .

وما نقرره هنا ليس استنتاجاً مبنياً على ظواهر الامور والاشياء  
فقط . وإنما طبيعة الحوادث التي سنسوقها هنا . وما كانت تهدف إليه  
تقرر ذلك في وضوح وجلاء . فعبد الله بن سبأ ، ومثله عبد الله بن السوداء  
وهما من أصل يهودي ، أدعيا الاسلام ظاهرياً ، ولكنهما لم يجبرا  
بدعوتهم إلا في فترة قلقه مضطربة من حياة المسلمين ، وهي فترة الاختلاف  
بين علي ومعاوية على الخلافة ، وكانا من المكر والدهاء بحيث كان ما ادعياه  
أولاً في علي هينارقيماً لا خطر منه على الدين في شيء ، ولكن لما وجدا لها  
مستمعين ، واطمأنوا إلى أنه قد صار لها أتباع بشا سموهما القدرة لتشويه العقيدة  
الاسلامية وإفسادها . والبغدادى صاحب الفرق بين الفرق ، يذكر أن  
ابن السوداء كان في الاصل يهودياً من أهل الحيرة فأظهر الاسلام (١) .

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٤٤ .



وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيا وأن علياً رضي الله عنه وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء ، فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا لعل إنه من محبيك فرفع على قدره ، وأجلسه تحت درجة منبره ، ثم بلغه غلوه فيه فهم بقتله ، فنهاه ابن عباس عن ذلك وقال له : إن قتلته اختلف عليك أصحابك وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام وتحتاج إلى مداراة أصحابك ، فلما خشى من قتله ومن قتل بن سبأ الفتنة التي خافها ابن عباس نفاهما إلى المدائن ، فافتن بهما الرعاع بعد قتل علي رضي الله عنه ، وقال لهم ابن السوداء : والله لينبجن لعل في مسجد الكوفة عينان تفيض إحداهما عسلاً والأخرى سمناً ويغترف منهما شيعة .

فالهدف الذي كان يرمى إليه عبد الله بن سبأ ، وعبد الله بن السوداء لم يفت علياً رضي الله عنه ، وهو أنهما كانا يريدان من وراء ذلك إفساد الدعوة وتشويه العقيدة ، وإثارة الفتنة بين المسلمين ، ولذلك عمل رضي عنه بكل ما في قوته على القضاء على هذه الدعوة في قوة وعنف ، فلما زعم بعض غلاة الكوفة من أتباع ابن سبأ أن علياً نبي ، ثم وصل بهم الغلو والاسراف إلى الزعم بأنه إله ، فبلغ علياً ذلك منهم استتابهم ، وأمرهم بالرجوع عن غيرهم ، ولما لم يقبلوا أمر بإحراقهم في حفرتين حتى قال بعض الشعراء في ذلك :

انترم بي الحوادث حيث شامت إذا لم ترم بي في الحفرتين  
ولكن علياً رضي الله عنه لم يطل به الاجل ليقتضى على هذه الفتنة  
الشعواء التي بثها ابن سبأ وابن السوداء وكان ظاهرها الدفاع عن حق علي



وباطنها سموم قاتلة للقضاء على الدعوة ، وإشاعة الفرقة والانقسام بين المسلمين ، فإنه يروى أن ابن سبأ عندما قتل على ، وزعم (١) أن المقتول لم يكن عليا . وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي ، وان عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم عليه السلام ، وقال : كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصابا بشبهوه بعيسى كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه علي ، وعلي قد صعد إلى السماء ، وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه . وزعم بعض السبئية أن عليا في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه . ومن سمع من هؤلاء صوت الرعد قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين . وقد روى عن عامر بن شراحيل الشعبي أن ابن سبأ قيل له إن عليا قد قتل . فقال : إن جئتمونا بدماعه في صرة لم نصدق بموته . لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها وهذه الطائفة تزعم أنه المهدي المنتظر .

وهكذا تظهر لنا العوامل الخفية المستترة التي كان ينطوي عليها التشيع في أول نشأته ، والذي قدم ضحايها له آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأسنا نقصد من وراء تقريرنا لهذا المبدأ أن نرمي كل الشيعة خلال تطورهم التاريخي بالبعد عن الدين ، ومحاولة هدمه ، واقتلاع أصوله ، فمن الشيعة فريق معتدل لا يمكن أن يتطرق الشك إلى إيمانهم واخلاصهم

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي .



للاسلام ، ولكننا هنا نبحت عن العوامل الاولى في منشأ التشيع ، وإن  
حادثة كربلاء المشهورة لتفصل بين طورين خطيرين في تاريخ التشيع ،  
والاهداف التي كان يسعى إليها زعماء الشيعة في كلا الطورين .. إن  
من السداجة الفكرية أن نمر على حادث كربلاء المفجع مرأ سطوحيا  
لا تعيننا منه إلا مظاهره المرئية فقط ، دون أن نتعمق في فهم الدوافع  
الخفية وراء ذلك كله ، ودون أن نرى بعين البصيرة من الذي كسب من  
وراء ذلك كله ؟ هل كسب الامويون تشييتا لاقدامهم في الخلافة بالقضاء  
على منافس خطير ؟ هل قويت دولتهم ، توطد سلطانهم بإراقة دم سيد  
الشهداء الحسين ؟ .. إن منطق الحوادث وسير الامور بعد ذلك يدلنا  
بما لا يدع مجالاً للشك على أن الدولة الاموية دقت مسباراً عميقاً في  
نعشها بهذه الفعلة التي اقترفها عاملها عبيد الله بن زياد ، وأن العداء لهم  
والتعصب ضدهم لم يشمل العلويين من آل البيت فقط ، وإنما ضم غيرهم  
من أتقياء المسلمين وأخيرهم ، بل إن استنكار هذه الفعلة المشهورة من  
عبيد الله بن زياد لم يقتصر على جمهور العلويين والمسلمين ، وإنما شمل  
كثيراً من أفراد أسرة الخليفة الحاكم نفسه كنساء يزيد اللواتي ما أن سمعن  
بأن رأس الحسين قد حزت حتى وجمن ، وأجهشن ببكاء مرير ، بل حتى يزيد  
الغافل المستهتر ، الذي لم يكن يقدر للعواقب شيئاً ، أدركته يقظة الضمير  
وحسرة الندم فيروى أنه عند ودع البقية الباقية من آل البيت ، والذي  
نفذ من الموت بأعجوبة ذلك أن قاتلي أبيه واخوته ظنوا أن ما به علة  
وسقم ومرض كاف للقضاء عليه لا محالة وهو على زين العابدين بن الحسين .

يروى أن يزيداً قال له وهو يودعه إلى المدينة لعن الله بن مرجانة



أما والله لو أنى صاحب أيك ما سألتني خصلة أبدأ إلا أعطيته إياها .  
ولدفعت الحنف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى . ولكن  
الله قضى ما رأيت يا بنى ! . كاتبى من المدينة وأنه إلى كل حاجة تكون لك .

فالشيء الذى لا يقبل الشك ، والذى لم يختلف فيه أى مؤرخ من  
المؤرخين أن تلطيخ يد الدولة الأموية بدم الحسين زعزع كرسى الخلافة  
من تحتهم وهزه هزاً عنيفاً ، وكان الذير الهاتف بسقوطهم ، والقضاء  
عليهم قضاء لا هوادة فيه ! . . . إذا يعود التساؤل مرة أخرى ؟ من الذى  
استفاد من وراء هذا الدم الذكى المسفوك ؟ هل استفاد العلويون ؟ وهل  
يقبل آل البيت أن يقدم الحسين نفسه قرباناً لنصرة دعوتهم ؟ وهل كان  
الحسين يعلم حقيقة أنه ذاهب لملاقاة حنفته ؟ هل كان يعلم قبل أن يبرح  
مكة بغدر أتباعه الذين استسكته بوجهه مراراً ليرحل إليهم فى الكوفة ؟ هذه  
كلها أسئلة لا بد للكاتب من أن يعالج الجواب عليها قبل أن يدلى برأيه  
فى هذا الموضوع الدقيق .

يقول المستشرق الألماني مارين فى كتابه ( السياسة الإسلامية ) :  
« إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزيمة قلب كبير عز  
عليه الأذعان ، وعز عليه النصر العاجل فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج  
الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته ويحيى به قضية مخدولة ليس لها بغير  
ذلك حياة . »

وليس ما يقوله « مارين » ، ولا من نحاه نحوه من المستشرقين أو غيرهم  
من الكتاب الشرقيين على شيء كثير أو قليل من الصواب ! . ذلك أن  
من الثابت أن محمد بن الحنفية لما بلغه وهو فى المدينة خروج أخيه الحسين



من مكة إلى الكوفة لم يرتح لذلك ، وكان رأيه أن يبقى الحسين في مكة وأن يرسل الدعاة لأخذ البيعة له من الأمصار أما ابن عباس فقد نصح الحسين بعدم الخروج ، وقال لا تصدق كتب أهل العراق لأن في طبيعتهم الغدر . وإذا كانوا صادقين في دعوتهم فلتطلب منهم قبل أن نقدم عليهم أن يتخلصوا من ولايتهم أولا .

هذا ما كان من أهل البيت أما ما كان من الحسين رضى الله عنه فإنه أراد أن يستوثق أولا من صدق أهل الكوفة فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب بكتاب إليهم ، ليرى صدق إخلاصهم في دعوتهم وبعث معه بكتاب يقول فيه « أما بعد فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدوى عايكم ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إلي بجالسكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله . فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط . والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام . »

ثم إنه لم يبرح مكة في طريقه إلى الكوفة إلا بعد أن أتته الرسل واستوثق بأنه قد اجتمع لاعطاء البيعة له في مسجد الكوفة على يد ابن عمه مسلم بن عقيل اثنا عشر ألفا ، وفي بعض الروايات ثمانية عشر ألفا .

فهل يظن بعد ذلك أحد أن الحسين كان يعلم بمصيره المفجع الذى لم يسطر التاريخ أسمى ولا أشنع منه في صفحاته المدلّمة الدامية ؟ هل كان يعلم الحسين أن الغدر والتآمر سيصلان ببعض الناس إلى درجة من الانحطاط



ثعافها أحط فصائل الحيوانات؟ هل كان يعلم بأن قلوب فئمة من البشر  
ستتججر وتتصلد فلا تصل إليها رحمة، ولا بصيص من عدل!.. إننا  
كنا نصدق أن نفس الشهيد الكبير كانت تستمرى الموت في سبيل الحق،  
وفي سبيل دفع المنكر لو كان الحسين خرج وحده، ولم يصطحب معه فلذات  
كبده، وأهل بيته، وفيهم الغلمان الصغار الذين لا يقدر على الحرب  
ولا على دفع الخطر. فمعنى قبول شيء من ذلك أن الحسين كان لا يريد  
أحياء قضيته الميتة، وحقوقه المسلوبه، وإنما كان يريد استئصال شأفته وشأفة  
أسرته من الوجود!.. إننا نرى الحسين رضى الله عنه وهو في وسط  
المعركة، وبعد أن تبين له غدر أصحابه ومؤامرتهم المنحطة الدينية يبحث  
له عن مخرج من هذا الكرب العظيم الذى وجد نفسه فيه محاصراً من كل  
جانب، محروماً من الماء، ممنوعاً عن التحرك هنا أو هناك. إننا نجد  
يبحث عن مخرج يتفق مع إيمانه وكرامته وتقاليده عنصره الطيب ودوحته  
الكريمة فلا يجد إلا الموت أهون سبيلاً إلى نفسه الكبيرة!

يروى أن الحسين أراد أن يصل إلى قلوب مقاتليه، بعد أن عجز عن  
اقناعهم بالحجة والبرهان، فخرج إليهم متزيياً بنى جده عليه السلام، متقلداً  
سيفه لابسا عمامته ورداه، فخطبهم قائلاً بعد الحمد والصلاة: « أنسبونى  
من أنا. هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألسنت ابن بنت نبيكم؟  
أولم يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى. هذان سيدا شباب أهل  
الجنة؟ ويحكم! أنطلبوننى بقتيل قتلته، أر مال لكم استهلكته: تم  
ناهى وقال: يا شيب بن الربيع! يا حجار بن أبجر! يا قيس بن الأشعث!  
يا يزيد بن الحارث! يا عمر بن الحجاج!.. ألم تكتبوا إلى أن قد ابتعدت  
الثمار واخضرت الجنبات، وإنما تقدم على جنودك مجند، »



إلى هنا ويتضح لنا الأمر غاية الوضوح ، وهو ان الذي استفاد من وراء هذه الحادثة المشثومة ليس هو الدولة الأموية ، وليس هم آل البيت العلويين ، وإنما الذي حقق أهدافه من وراء تلك المؤامرة التي كان ضحيتها الحسين رضى الله عنه ، هم أولئك الذين عادوا الإسلام في الباطن ومكروا بالمسلمين ، وحتى لا يكون نجاحهم مؤقتا صبغوا هذه الفتنة بدم الحسين ؛ ليضمنوا فرقة المسلمين ، وليوجدوا بواعث لا تخمد أبداً في إيجاد التنازع بينهم ، وتشكيك بعضهم في عقيدة بعض .

فالجدور الأولى للشيعة لا يمكن أن نرجعها إلى التأثير اليهودي ، أو الفارسي ، أو إليهما معاً ، وإنما يمكن أن نرجعها في الحقيقة إلى كل العناصر المعادية للإسلام سواء أ كانت يهودية أم فارسية أم غيرهما .

وإذا كان بعض المؤرخين قد استدلوا على وجود التأثير الفارسي على عقيدة الشيعة دون غيره ، لما يكتنف عقيدة الشيعة من حق الإمامة العلي وذريته ، وأنهم معصومون من الخطأ ، وأنهم فوق مستوى البشر وهذا ما كان يسود تاريخ الفرس الطويل ، وكان عندهم بمثابة العقيدة طيلة أجيالهم الغابرة . فإن ردنا على هؤلاء أنهم أيضا يتمسكون بالقشور دون أن ينفذوا إلى اللباب ، ودون أن يتعمقوا إلى ما دون المظاهر المرئية لأنهم إذا كانوا يقصدون من ذلك أن الفرس أثروا في الدعوة الشيعية فقط بما كان ينطبع في نفوسهم ، ويسيطر على عقولهم مما انحدر إليهم عن طريق أسلافهم ، من تقاليد وعادات وأمزجة ، ونظرة خاصة للامور والحياة وأنهم لم يكن لهم نصيب غير الاحتفاظ بكل ذلك . حتى بعد أن دخلوا في طور جديد باعنائهم الإسلام ، فهذا ما يخالف طبيعة الأشياء على خط ( ١١ — مستقبل الاسلام )



مستقيم. فمن الأشياء المقررة في تاريخ تطور الأجناس البشرية فيما يختص بالأمور الاعتقادية، وما ينشأ عنها من تقاليد وعادات، أن الطور الجديد الذي يلي الطور البائد، والذي جاء نتيجة لنضوج الوعي في الإنسان وترقيه يكتسح أمامه ضمن ما يكتسح ما كان يتصل بالعبقيدة البائدة من خرافات وتقاليد باطلة وعادات سيئة! . ثم إن من يدرس حالة المجتمع الفارسي قبيل غزو العرب لأرض فارس يتبين له ما كان يسوده من انحلال اجتماعي وفوضى خلقية. وسيادة النظام الطبقي المفرغ في أقصى صورة من صورته البشعة المعرودة فكان السواد الأعظم من الناس يرتعون في فقر مدقع وظلم شنيع، وضيق خانق لا يجدون منه مخرجا، فلما ذهب العرب إليهم حاملين رسالة الإسلام انقضت عن أعينهم الغشاوة، ووجدوا حياة أخرى تحالف ما ألقوه من حياة، ووجدوا قواعد أخرى في نظام المجتمع تتمثل فيها العدالة والمساواة، وأن الحاكم ليس إلا فردا عاديا كبقية الناس يقيمه المجتمع ليحافظ على أمنه وسلامته، فإذا طغى أو حاد عن الطريق سقطت طاعته، ونهى عن مكانه وحل آخر محله! .. ووجدوا هذه المبادئ والنظريات الجديدة يحملها لهم العرب فأنكروا حياتهم الأولى واستفزعوها، واعتنقوا الإسلام طواعية. دون ضغط أو إكراه! ولكن ظهور العصبيّة العربيّة واهدائها ركنا خطيرا من أركان الإسلام، وهو الركن الاجتماعي في عهد الأمويين هو الذي جعل الفرس يتلصقون أي طريق للقضاء على هذه الدولة التي سلبتهم حقوقهم السياسية والاجتماعية، فانضموا إلى الحزب الهاشمي الذي كان يناوئ الأمويين؛ واصطنعوا نظرية الحق الإلهي لعل وذريته في الخلافة؛ ونظرية الإيمان بالامام المعصوم من الخطأ، حتى جعلوا ذلك ركنا سادسا من أركان



الإسلام الخمسة ! .. ولكن بما يلفت النظر ، ويزيد نظريتنا هذه تأكيدها  
أن الفرس لم يكونوا جادين في هذه النظريات التي اصطنعوها ، وأنه  
لم يكن يعينهم إلا إزالة هذه الدولة التي شجعت ظهور العنصرية العربية ،  
والتي سلبتهم كل حقوقهم السياسية والاجتماعية ، لأنهم عندما انضموا إلى  
شيعة على كانوا يدعون جهراً لإقامة خليفة من العلويين ، ويعملون سرّاً  
لإقامة خليفة من العباسيين ، لتكون الدولة الجديدة من صنع أيديهم وحدهم  
وقد كان من الاتفاق السري بين أبي مسلم الخراساني وأبي العباس السفاح ،  
الذي ادعى أن حفيد محمد بن الحنفية يارعه بالخلافة وتنازل له عنها .. ويجب  
أن نلاحظ أن ما ظهر بعد ذلك في عهد العباسيين من اصطناع أشياء كثيرة  
من حياة الفرس لم يكن إلا رد الفعل لما كان في العهد الأموي من سيادة  
العنصرية العربية ، فظهرت الشعوبية ، وامتدت إلى كل ناحية من نواحي  
الحياة في العصر العباسي !! ولكن الشيء الذي يجب أن نسجله هنا ونحن  
نتكلم عن العناصر الأولى المقومة للشيعة هو أننا لا نلتفت كثيراً  
للمظاهر المرئية ولا للجمهور التابع للدعوة من الناس قدر التفاتنا لما يمكن  
وراء هذه المظاهر ، وما كان يهدف إليه الزعماء المؤسسون لنظريات الشيعة  
فربما تكون المظاهر المرئية مخادعة ، وربما يكون جمهور التابعين من  
الناس ضحية لسناجحتهم وبساطتهم ! ..

هذا هو رأينا في منشأ التشيع ، وفي المؤثرات التي أثرت فيه ، وفي العوامل  
التي أوجدته ، وفي الغايات التي كان يرمى إلى بلوغها منشأه الأول ، وهو فضلاً  
عن أنه وجد لافساد عقيدة المسلمين ، وقتل حيوية الإسلام ، أو جذرياً  
لأنهاية له لتنازع المسلمين وتنافرهم وشغل بعضهم ببعض ، حتى يفشلوا وتذهب  
ريحتهم . وقد تحققت الغاية التي أرادها هؤلاء المبعوضون للإسلام الماكرون



به بما ارتكبه الخلفاء الأمويون أولاً ، والعباسيون ثانياً من صور قاسية مدطمة من الحماقات والظلم والاضطهاد . يعجز القلم عن سردها ، فأصبحت النكبات التي تتراعى على العلويين منذ مصرع الحسين في كربلاء حتى أواخر العهد العباسي جذوة يزكي لهيها روح العقيدة الشيعية ، حتى بين المسلمين غير المتهمين في اسلامهم وسلامة إيمانهم ، وأصبح من الشروط الأساسية لصحة إيمان الشيعي أن يصب اللعنات على خصوم الشيعة وأن يناصرهم العداء ، فيروى أن أحد الناس سأل أبا جعفر الصادق فقال « أيا سبب النبي إنى لا أقوى بجد عن الدفاع عن حقوقكم ، وكل ما أستطيع عمله هو البراءة من أعدائكم والدأب على لعنهم ، فما قدرى عندكم ؟ .

فأجاب : روى لى أبى عن أبيه الذى أخذه عن سمعه من النبي « من اشتد ضعفه حتى يعجز عن معاوانتنا نحن آل البيت ، وعن نصرتنا ، ولكن وهو فى بيته يصب اللعنات على أعدائنا تحييه الملائكة لأنه من الأبرار وتدعو الله قائلة : إلهنا ارحم عبدك الذى عمل ما قدر على فعله ولو قدر على أن يزيد لفعل !! فيقول الله تعالى : قد استجبت دعاءكم ورحمت عبدى وجعلته بين الأبرار والأخيار ، .

ويعزى إليه أيضاً أنه قال « إن الملائكين اللذين يلازمان المرء لىكى يحصيا عليه أقواله وأعماله يتركانه عند ما يتلاقى شيعى بأخر . ولما نهى بعض المستمعين إلى مناقضة ذلك للآية القرآنية الكريمة ( ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ) زفر أبو جعفر زفرة عميقة ، واخضلت لحيته بالدموع وقال . حقاً إن الله أمر ملائكته بأن يتركوا المؤمنين وخدمهم عند ما يتناجون غير أن الملائكة إذا فاتهم هذا فالتهم ما كان خافياً .



والظاهرة التي يلبسها الباحث في العقيدة الشيعية هي رسوخ في الاعتقاد بأن الله لأمر يخفى علينا ابتلى آل البيت وذريتهم في هذه الحياة الدنيا بالحن والالام والاضطهاد ، فمن عاش في نعومة وترف شك في صحة نسبه إلى آل البيت ، حتى أن الحسيني محمد بن محمد العاوي كان له حظ من سعة ووفرة في المال وهدوء في المعيشة فكان يخشى أن لا يكون نسبه متصلًا . يدلنا على ذلك ما يروي عنه أنه قال عند ما سجن وصدورت أمواله : إن من يكون من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا بد أن يتبلى . وأناربيت في النعمة وكنت أخاف أن يقع خلل في نسبي فلما وقع هذا فرحت وعلمت أن نسبي متصل .»

وهذه الآيات التي نظمها أحد زعماء الشيعة تبين لنا إلى حد بعيد تغلغل هذا الاعتقاد في النفوس وسيطرته على العقول :

نحن بنى المصطفى ذوو نحن      يجرعها في الحياة كاظمنا  
عجيبية في الأنام محنتنا      أولنا مبتلى وآخرنا  
يفرح هذا الوري بعيدم      طراً وأعيادنا مآتمنا

وقد استتبع هذا الاعتقاد بأن كل من ينتمى إلى الشيعة لا بد أن يقاسى من الحن والالام على سبيل الامتحان في صدق شعوره، وإخلاص إيمانه ، ومشاطرته للاضطهاد والعذاب الذي كتب على آل البيت . وكان من جراء ذلك أن نبعت فكرة المهديّة أول ما نبعت في حياة المسلمين التاريخية من العقيدة الشيعية ، وكان أول من اصطنعها عبد الله بن السوداء الذي ادعى رجدة على كما أوضحنا ذلك قبلاً ، ثم تبعه المختار بن أبي عبيد الله الثقفي ، فزعم أن محمد بن الحنفية هو المهدي ، وأنه لم يمت وإنما يقيم في



جبل يسمى رضوى وعنده عينان نضاختان تجريان له عسلا وماء . وأنه سيرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا ، وهو مؤسس فرقة شيعية تسمى « السكيسانية » ، ثم تطور الأمر فلم تنفرد الشيعة بالدعوة للمهدية ، وإنما شاركهم في ذلك العباسيون ، حتى أننا نجد المنصور « يستغل (١) شيوع كلمة المهدي عند الناس واعتقادهم فيها . فلقب ابنه بالمهدي على أساس هذه الفكرة ودعا إليه على أنه المهدي المنتظر ليحيط الخلافة بالسلطان الديوى ، والتقديس الدينى ، وجعله ولى عهده .

وكان تأسيسه للدولة العباسية على أساس دينى بتلقيبه ابنه هذا بالمهدى ، وتسمية أم المهدي بأم الخلفاء تشبها باسم أم المؤمنين . وتسميته بغداد بدار السلام تشبها باسم الجنة ، وتسميته أحد قصوره بقصر الخلد تشبها باسم الجنة أيضا ، وجعل باباً قصيراً ألا يدخله إلا من انحنى كأنه راعع تعظيماً له ، وتكليفه بعض الفقهاء أن يضعوا الأحاديث فى مدح العباسيين ومدح النبي ، ووصفه بصفات تنطبق على ابنه المهدي وكان المهدي نفسه ذا « هلوسة » دينية يظهر ذلك فى كثير من تصرفاته ، وخصوصاً معاناه الشديد فى محاربة من سبهم الزنادقة ، وتقصيمهم وقتلهم وظهوره بمظهر حامى الدين والمدافع عنه ، وتسميته لولديه باسم الأنبياء موسى وهرون ، وتلقيبه موسى بالهادى ، ولما يئس من تسمية هرون بالمهدى ، لأن لقبه هو « المهدي » لقبه بالرشيد .

وإن المتبع لتاريخ ظهور فكرة المهدي المنتظر سواء فى الشرق أو

---

( ١ ) أحمد امين بك « المهدي والمهدوية » .



الغرب يجد أنها ظهرت ووجدت تربة صالحة للنماء نتيجة للظلم الاجتماعي، والفساد الطبقي الذي كان سائداً في تلك الشعوب فكان مما يعزى الناس ويجعلهم يأملون في الحياة. اعتقادهم بظهور مهدي يظهر الأرض من الظلم والفساد والاستغلال، ويرسي قواعد العدالة الاجتماعية ليعيش الناس متساوين في الحقوق والواجبات.

وهكذا نجد اليهود وهم أول من بشر بالدعوة المهدية يؤمنون بمهدية إيليا كما نجد المسيحيين يعتقدون في رجعة عيسى عليه السلام. ولكننا عند ما نصاب التطور التاريخي لفكرة المهدية حتى قيام الدولة الفاطمية نجد هذه الفكرة قد تضخمت واندجت فيها كل المبادئ والعناصر التي تكون المذهب الشيعي! وإذا ما علمنا أن الدولة الفاطمية تفرعت عن الفرقة الشيعية التي تسمى الاثنا عشرية، أو الباطنية أدركنا كيف اصطبغت فكرة المهدية باللاهوتية المغالى فيها، فالمهدي ليس إبشراً، وليس إماماً عادلاً فقط، وإنما هو فوق البشر معصوم من الخطأ، حتى زعم الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء الفاطميين في أخريات خلافته أن روح الله تجسدت فيه بل تغالى فزعم فوق ذلك أنه إله!

والشيء الذي يلفت النظر أن دعوة المهدية لم تظهر بقوتها وانتشارها السريع، وازدهارها الملحوظ إلا في عهد العباسيين والفاطميين، ويظهر أن العباسيين عندما كانوا محتلطين بالشيعية، ومتفقين معهم على محاربة الدولة الأموية ومناوئتها أدركوا وسائلهم الخاصة في الخصومة. وأنه ليس أفعال ولا أشد من خصومة تقوم على أساس ديني، فأرادوا أن يتقوا مكر الشيعة بمكر يتفق معهم في الوسيلة والغاية، فكان أن احتضنوا فكرة المهدية، ودعموا ملكهم على أساس الايمان بها، وشجعوا الأحاديث الموضوعية



بصحتها ، حتى جاء الفاطميون فغالوا فيها وضخموها وصبغوها بالصبغة  
اللاهوتية المحضنة . وكانت لهم في ذلك تأويلات تعسفية لآيات القرآن  
وللاحاديث النبوية التي ثبت صحتها ، وذلك لتحقيق فكرتهم وأغراضهم .  
وقد بلغ عدد الأحاديث المروية عن المهدي وهي التي أحصاها ابن حجر  
خمسين حديثاً لم يصح منها شيء ، وإنما كانت موضوعة كما قلنا لتثبيت  
دعائم العباسيين ، ومن بعدهم الفاطميين . ولكن بما تجب ملاحظته أن  
العباسيين عند ما احتضنوا عقيدة المهدي وشجعوها لم تكن في الحقيقة  
من صنيعهم ، وإنما كانت من صنيع الشيعة ، ولكنهم وجدوا أن الأخذ  
بها فيه تدعيم قوى للملكهم فضلاً عن أن فيه توهيناً بليغ الأثر لإدعاءات  
الشيعة في الخلافة ! . هذا أمر العباسيين ، أما أمر الفاطميين فإن دعوتهم  
إلى المهدي ومغالاتهم فيها لم تكن هي الأخرى إلا استاراً يخفون وراءه  
أغراضهم الخاصة لتثبيت ملكهم وزيادة سلطانهم الاوتقراطي ،  
واستبدادهم الباطش ، وترفهم المسعور . فبينما نرى أن من صفات المهدي  
أن يكون مصلحاً زاهداً تقياً يعمل على تطهير الأرض من الفساد ويقضى  
على الاستغلال ، ويقيم قواعد العدالة الاجتماعية بين الناس نرى عكس  
ذلك على خط مستقيم ، هو ما كان يسود عصر الفاطميين ومن قبلهم  
العباسيين وهما العصران اللذان ازدهرت فيهما العقيدة المهديّة فيروى  
« أن (١) الخليفة المستنصر الفاطمي كان في قصره ثلاثون ألف نفس  
منهم اثنا عشر ألف خادم وألف فارس وحارس ، وقد ذكر الرحالة  
ناصر خسرو أنه رأى الخليفة على بغلة وهو قتي وسيم الطلعة ، حليق



الوجه ، وقد وقف بجانبه حاجب يحمل مظلة مرصعة بالحجارة الكريمة ،  
وذكر أن الخليفة كان يملك في العاصمة عشرين ألف بيت أكثرها مبني  
باللبن في كل بيت خمسة طوابق أو ستة ، وفي أسفلها حوانيت يؤجر كل  
حانوت منها بما بين الدينارين والعشرة ، وكان من عاداته أن يركب على  
النيجب مع النساء والحشم إلى موضع نزهة أنشأه ، وربما خرج كما يخرج  
أغنياء الحجاج في يوم حجهم ، وربما خرج ومعه الخمر في الروايا عوضاً  
عن الماء يسقيه الناس كما يفعل بالماء في طريق مكة وذكر المقرئ في  
خطبه كشفاً بأسماء كنوز المستنصر تستدعي العجب .

ثم يقول المؤلف في مكان آخر : كانت ثروة الفاطميين تفوق القدر  
ويصعب تصديقها على العقل ، فيقول المقرئ مثلاً إن رشيدة بنت المعز  
خلفت من العملة الذهبية نحو ألف دينار وسبعماية ألف دينار عدا  
الجواهر والحلى ، وخلفت ابنته الأخرى ، واسمها عبدة نحو سبعماية  
وخمسين ألفاً عدا الصناديق التي تحتوي على خمسة أكياس من الزمرد  
وثلاثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى ، كما أن المعز اشترى  
ستارة من الديباج من فارس بنحو اثني عشر ألف دينار ، وأولعوا  
بالتصوير مع أنه محرم في الإسلام فقالوا إن اثنين من المصورين كان  
ينافس أحدهما الآخر هما القصير وابن عزيز ، أحدهما صور الراقصة في  
ثياب بيض في قوس ملون بالسواد يحسبها الناظر داخلة فيه . والآخر  
صور فتاة بثياب حمر في قوس أصفر يحسبها الناظر بارزة منه ، والخليفة  
الظاهر كان يعكف على اللذائذ واللهو من خمر ونساء ويترك أمور الدولة  
لوزرائه وقواده وهم يقابلونه كل عشرين يوماً مرة . ثم يدعى هؤلاء



النواب أنه أوعز إليهم بكل شيء ، وأنه إمام معصوم متفرغ للعبادة .  
وقد كان يحدث هذا من الظاهر أيام كان الناس في مصر في مجاعة كبرى  
لا يجدون الخبز الضروري .

ولما أزال صلاح الدين ملكهم وكل بالمحافظة على قصورهم الطواشي  
قراقوش وتسلم القصور وفيها من خزائن ودواوين وأموال ونفائس  
ما عظم عن الوصف . وقد قالوا إن صلاح الدين أمر ببيع ما في القصور  
فاستمر البيع فيها نحو عشر سنين ، وكان من الموجود فيها مائة صندوق  
من الكسوة الفاخرة الموشحة المرصعة ، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة .  
وكان فيها آلاف من العبيد والخدم ، وآلاف من الجوارى ليس فيهن  
فحل إلا الخليفة وأولاده .

وهكذا إذا ما رجعنا للعناصر الأولى المقومة للعقيدة المهديّة . نجد  
أنها تمت ، وازدهرت لما كان يسود العالم الإسلامي من فساد وظلم ،  
واستغلال ، وجشع لا قدرة للناس على مقاومته ، وإزالته ، ونجد من ناحية  
أخرى أن الخلفاء العباسيين والفاطميين استغلوا إيمان الناس بظهور المهدي  
فادعوا المهديّة لأنفسهم تهيئة لسلطانهم الأوتقراطي ، وتوقيماً من  
الإنقضاء عليهم ، والتمرد على حكمهم الذي هو حكم الله كما يزعمون  
دون أن يتقيد أي خليفة منهم بأدنى مرتبة من صفات المهدي الذي يشمل  
فيه الحق والعدل ، والزهد والإصلاح .

هذا وقد تفرعت عن التشيع فرق كثيرة منها غير ما ذكرنا فرقة  
تسمى « الغرابية » وهي التي زعمت أن الله أرسل جبريل إلى علي فأخطأ  
وذهب إلى محمد لأنه كان يشبهه علياً قالوا ( كان أشبه به من الغراب بالغراب



والذباب بالذباب) ومنهم فرقة أخرى تسمى «المغيرية» وهم الذين تأولوا آيات الكتاب الكريم تأويلات تعسفية خيالية تفسد العقيدة الإسلامية من أساسها فتأولوا قول الله تعالى « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَالِمًا مُهْمِلًا » .

تأولوا ذلك على أن الله عرض على السموات والأرض والجبال أن يمنعن على بن أبي طالب من ظالميه ، فأبين ذلك فعرض ذلك على الناس فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة على ومنعه من ظالميه وأن يغدر به في الدنيا وتعهد له بأن ينصره على عليّ على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده ففعل أبو بكر ذلك فكان هو الظلوم الجهول .

ولكن كل هذه الفرق التي تفرعت عن التشيع اندثرت تماما ولم يبق منها غير ثلاث فرق فقط هي (١) الاثنا عشرية . (٢) الزيدية . (٣) الاسماعيلية . وسنخصص كل فرقة من هذه الفرق الثلاث بكلمة موجزة .

### (٣) الاثنا عشرية

والاثنا عشرية: فرقة ما زال لها أتباع حتى الآن وقد سموا بذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم إثني عشر إماما . (أولا) على بن أبي طالب . (ثانيا) الحسن . (ثالثا) الحسين . (رابعا) علي زين العابدين . (خامسا) زيد . (خامسا مكررا) محمد الباقر . (سادسا) جعفر الصادق . (سابعا) إسماعيل . (سابعا مكررا) موسى الكاظم . (ثامنا) علي الرضا .



( تاسعا ) محمد الجواد . ( عاشرا ) علي الهادي . ( حادى عشر ) حسن  
العسكرى . ( اثنى عشر ) محمد المهدي العسكرى .

وهذه الفرقة تؤمن كغيرها من الشيعة بالامام الخفي . وينتظرون  
ظهوره آخر الزمان ليظهر الأرض ، ويقضى على المفسد والشور  
نفلود الامام فى المذهب الشيعى أمر معترف به ويصور هذا الزعم  
ما حكى من الامام السابع مكرر من الاثنا عشرية ، وهو أبو موسى الكاظم  
من أنه قال « كل من حكى عنى أنه عنى بنى خلال مرضى ، أو غسلى  
وحنطى ودفنى ، أو أنه نزل فى قبرى ومس رفاى ، فقل عنه أنه كذاب  
وإذا استعلم أحد عنى بعد اختفائى ، فليجب أنه يعيش والله الحمد ، ولعنة  
الله على من سأل عنى فأجاب إنه قد مات ، .

### ( ٤ ) الزيدية

تعتبر الزيدية من الفرق المعتدلة فى المذهب الشيعى ، فهى تمثل إلى حد ما  
القنطرة التى تفصل العدوتين عن بعضهما ، عدوة أهل السنة المحافظون  
الحريرصون على أصول الاسلام ، وعدوة الفرق الشيوعية الأخرى المتحللة  
من كل قاعدة من قواعد الاسلام ، والعاملة على هدم أصوله الأساسية  
فلم يؤمنوا كباقي الفرق الشيوعية بعصمة الامام الخفي ، ولا بالعلم الباطنى  
الذى يهبه الله للائمة دون غيرهم ، ولم يلعنوا أبا بكر وعمر وسائر الصحابة  
ويرمونهم بالخروج على الاسلام ، وأخذهم الخلافة من على . وإن كانوا  
يؤمنون بتفوق على بن أبى طالب عنهم فى قوة الإدراك وفى المواهب  
الممتازة ، والصفات الحميدة . وتنسب هذه الفرقة إلى الامام الخامس من



فرقة الاثنا عشرية وهو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين وقده نار (١)  
بالكوفة سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ مطالبا بالخلافة دون ابن أخيه جعفر الصادق  
الذي أقر له جمهور الشيعة بإمامته الشرعية الموروثة ، ويمكننا أن ندرك  
مدى اعتدال هذا المذهب ، وعدم تعصبه وجموحه الشديد من أن  
الزيديين يعترفون بالإمامة لكل علوى دون مراعاة انتسابه لهذا الفرع  
أو ذاك من البيت الهاشمي متى توفر له من الاستعداد الروحي، والمواهب  
الدينية، والتكليف الشخصي ما يعينه على القيام بمسئوليات الإمامة الدينية  
وما يجعله قادراً على استرداد حقهم المسلوب ، ومن ذلك نرى كيف  
يختلف هذا المذهب وما رواه أبو حمزة عن أبي جعفر الصادق من أنه  
قال : « إنما يعبد الله من يعرف الله ، فأما من لا يعرف الله فإنه يعبد  
في ضلال مبين . قلت جعلت فداك ؟ فما معرفة الله ؟ قال تصديق الله عز  
وجل . وتصديق رسوله . وموالاته على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم  
السلام . والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم ، هكذا يعرف الله . »

### ( ٥ ) الاسماعيلية

وإذا ما تركنا الزيدية إلى الاسماعيلية وجدنا أنفسنا أمام جمعية  
منظمة تنظيماً دقيقاً لها تعاليم سرية على خط كبير جداً من الختل والمكر  
والدهاء ، وتنشأ إلى هذه الفرقة الدولة الفاطمية التي أسسها الفاطميون  
في مصر . وقامت هذه الفرقة في أواخر القرن الثالث الهجري منتسبة  
إلى الإمام السابع من الاثنا عشرية وهو اسماعيل بن أبي جعفر الصادق



وبالرغم من أن أبا جعفر بعد أن نصب ابنه اسماعيل للإمامة رجع فسحب الولاية منه لمسا رآه عليه من انغماس في الملهيات والمنكرات وتعاطى الخمر إلا أن اسماعيل تنازل عن الولاية لابنه محمد ، لأنه لم يكن له من الاستعداد الذاتي ما يتكافأ ومقتضيات المنصب الذي يتولاه وبالرغم من أنه كان يأتي المنكرات جهراً فإن أتباعه لم ينكروا عليه ذلك . ولما نعى عليهم خصومهم من الاثنا عشرية ذلك لم يحاولوا أن يبرئوا إمامهم مما يصعنه، وزعموا أن الامام مباح له أن يفعل كل شيء لأنه مظهر عند الله ، ومعصوم من الخطأ والمنكر ، فيكفل ما يأتيه من قول أو فعل يراه الرائي منكراً ليس كذلك إلا في الظاهر فقط ، أما الحقيقة فهو مبرأ منذ القدم من المعاصي . ومعصوم من الخطأ !

وإن المتتبع لتاريخ الاسماعيلية منذ نشأتها يرى أنها نشأت في جو مهياً لنموها وازدهارها ، فلقد كانت الدولة العباسية في دور التفتك والاحتضار لضعف الخلفاء العباسيين وخضوعهم لقواد من الأتراك كانوا مسيطرين على شئون الدولة سيطرة تامة في بغداد وسامرا ، وكان من العسير على أي خليفة أن يعتلي العرش إلا برشوتهم واعطائهم سلطات واسعة وعدم مخالفتهم في كل ما يطلبون ، وكان المجتمع الاسلامي في ذلك الوقت يعاني فقر آمدقعا ، وبؤسا وشقاء شديدين نتيجة للنظام الاقطاعي الذي كان يسوده ، فكان من مكر الاسماعيليين أن وضعوا ضمن تعاليمهم السرية الدعوة إلى سيادة النظام الاشتراكي في المجتمع الاسلامي ، وبذلك انضمت إليهم أجناس مختلفة من المسلمين منهم العربي والعجمي والكردي والديلي والتركي وغيرهم .



وما يذكره المؤرخون عن نشوء الاسماعيلية وتطورها التاريخي وما يذكره ابن الجوزي في كتابه (نقد العلم والعلماء) من أن الاسماعيليين «نسبوا إلى زعيم لهم يقال له محمد بن اسماعيل بن جعفر، ويزعمون أن دور الإمامة انتهى إليه لأنه سابع، واحتجوا بأن السموات سبع، والأرضين سبع، والأيام سبعة فيستدل من ذلك على أن دور الأئمة يتم بسبعة».

ثم ينتقل بعد ذلك فيتحدث عن الاسماعيلية الباطنية فيقول «إن عقائد الباطنية تباين الاسلام فمحصول قوتهم تعطيل الصانع. وابطال النبوة والعبادات وإنكار البعث، ولكنهم لا يظهرون هذا في أول أمرهم بل يزعمون أن الله حق، وأن محمدا رسول الله، والدين صحيح ولكنهم يقولون بذلك سرا».

ولعل ابن الجوزي يتفق في ذلك وما ذكره البغدادي صاحب كتاب (الفرق بين الفرق) من أن القيرواني وهو من كبار رجالهم ومن القرامطة قال في رسالته إلى سليمان بن الحسن القرمطي «إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والنوراة والزبور والانجيل، وبدعوتهم إلى أبطال الشرائع، وإلى أبطال المعاد والنشر من القبور، وأبطال الملائكة في السماء، وأبطال الجن في الأرض، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير فإن ذلك عون على القول بقدم العالم وفي هذا تحقيق دعوانا الباطنية. وينبغي أن تحيط علما بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود لا أرفع شريعة موسى ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت. وأباح العمل



في السبت وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ولهذا قتلته اليهود لما اختلفت  
كلمته . ثم قال له في آخر رسالته « وما العجب من شيء كالعجب من  
رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة  
في حسنها فيحرمها على نفسه وبنكحها من أجنبي ، ولو عقل الجاهل لعلم  
أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي . ما وجه بذلك إلا أنه صاحبهم حرم  
عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الاله الذي يزعمونه وأخبرهم  
بكون ما لا يرونه أبداً من البعث من القبور ، والحساب ، والجنة والنار  
حتى استبعدهم بذلك عاجلاً وجملاً لهم له في حياته ولذريته بعد وفاته حولا  
واستباح بذلك أموالهم بقوله : « لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في  
القربى » فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئته . وقد استعجل منهم  
بدل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون ! . وهل الجنة إلا  
الدنيا ونعيمها ؟ . وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من  
التعب والنصب في الصلاة ، والصيام والجهاد ، والحج . ثم قال لسليمان  
ابن الحسن في هذه الرسالة : وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون  
القرودوس ، وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين  
المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس فنهيتا لكم ما نلتم من الراحة  
عن أمرهم . »

والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من هذه الكلمة السريعة عن الفرقة  
الاسماعيلية أنها فرقة متحللة مفسدة كافرة لا بالأديان فقط ، وإنما بكل  
القوانين الخلقية ، والقيم البشرية ، وقد استغلّت في نشر مبادئها الهدامة  
الظروف القاسية التي كانت تحيط بالمجتمع الاسلامي من ضعف خلفائه



وانغارهم في الشهوات واللذات ، ومن الانانية الفردية ، والجشع المادى الذى كان مستولياً على نفوس القادة ، ومن بيدم التوجيه الفكرى للمسلمين فالظروف كلها ، كما قلنا غير مرة ، كانت مهيأة لقبول أى مبدأ ، ولو كان هداماً ليمتثل السكثرة الساحقة من الناس ، مما يعانونه من ظلم وتعاسة ، ونظام طبقى معرّب ، وأدرك زعماء الاسماعيلية ذلك ، فاصطنعوا فى دعوتهم نظاماً اشتراكياً غير واضح المعالم ، أو الأهداف ، ليستطيعوا التأثير به فى نفوس ضحاياهم من المسلمين ، وكانت لهم أساليبهم الماكرة . فى عدم إفلات الفريسة منهم ، فكانت دعوتهم بالرغم من أنها سرية ، تقدم رقيقة هينة ، وتزداد شيئاً فشيئاً حسب الاستعداد الذى يتراعى لهم من تابعهم . كما كان من دهاتهم أنهم يدرسون أو لاميول الشخص الذى يشونه دعوتهم ، فمن كان ذامبول دينوية شجعوه على التحلل ، وعلى عدم التقيد بالتعاليم السماوية ، ومن كان ذامبول روحانية شجعوه على الزهد فى الحياة ، وكثرة التجدد والتبادلات حتى يطمئن لهم أولاً ، ويثق بهم . ليتمكنوا آخر الأمر من إيقاعه فريسة سهلة لهم ، وبما يحكى عنهم على لسان أحد أنباعهم الذى خرج وتبرأ منهم أن أحد دعائهم قال له « ينبغى أن تعلم أن محمد بن اسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال : ( إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْشَاعْ نَعْمَلِيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ) قال : فقلت سخنت عينك ، تدعونى إلى الكفر بالرب القديم الخالق للعالم ، ثم تدعونى مع ذلك إلى الاقرار برؤية إنسان مخلوق ، وتزعم أنه كان قبل ولادته لها مرسلات لموسى ، فإن كان موسى عندك ممخرقاً فالذى زعمت أنه أرسله أكذب . »



وهكذا ترى معنى أن هذه الفرق لم تكن غير عوامل هدم في جسم الاسلام الحى الصلب، وأنها كانت من البواعث القوية في ضعف المسلمين وتفكيكهم وانحلالهم.. اولسكن هناك بعض الأسئلة التي تلاحقنا ونحب أن نجيب عليها قبل أن نختم هذا الفصل؟ وهو هل التشيع في جملته يخدم الفلسفة، ويساعد على التحرر الفكرى بصرف النظر عما إذا كانت هذه الحرية ضارة أم نافعة، مفيدة أم هادمة.

لقد ذهب أكثر العلماء الغربيين إلى أن التشيع يمثل إلى حد كبير الأثر الفكرى الحر، والعقل المتحلل الطليق، خلال تطور المسلمين التاريخى، وأنه لم يقف حجر عثرة في سبيل تقدم الفلسفة وازدهارها.. ولـكـنـنـا نلاحظ أن اطلاق هذا الحكم على علته، دون المام بالبواعث التي كيف العقيدة الشيعية، وأثرت فيها، ودون إحاطة بالأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها التشيع، يعد مغالطة كبرى وبعداً عن الحقيقة والصواب.. حقيقة أن من المقتضيات اللازمة للتشيع، وقد علمنا كيف نشأ، وقد أحطنا بالبواعث التي ساعدت على تطوره ونموه. أن يكون حراً طليقاً ولـكـن في دائرة الأغراض التي يريد تحقيقها. وأن يحتضن الفلسفة لا يبحث عن الحقيقة، وإنما يستخدمها وما يتفق ونظر ياتيه الباطلة الهدامة! إننا يجب عندما نطلق حكماً على شيء أن نحيط به من جميع نواحيه، وأن نتمعق إلى ما يكتنفه من أمور وأشياء ليست ظاهرة للعيان، وأن نميط اللثام عما تنفعل به نفوس دعائه... وإذاما بحثنا على ضوء كل هذا عن حقيقة التشيع نجد في الواقع يمثل الجمود الفكرى، والرجعية القاسية، والاستبداد العقلى والبلابة الذهنية، والتعقيدات النفسية على أشبع صورة



من الصور التي مر بها تاريخ الإنسان ، فالإيمان العقيدى الذي ابتدئته الشيعة ، وزكته بنظرية الحق الإلهى «للامام» والعصمة التي أضفتها عليه . وجواز أن يكون الأمام ظاهراً أو مستتراً وتقرير أن للقرآن معنى باطنياً غير ظاهره كل ذلك وما شابهه من الأسس التي قام عليها التشيع يتصادم مع أبسط المبادئ للفكر الحر ، الذي يستهدى الحق والصواب ، مطلقاً غير مقيد بشيء ، ثم مع أبسط الأسس الفلسفية التي لا تتقيد في البحث بأى عامل سواء كان عقيدياً ، أم تقليدياً ، أم عاطفياً .. ثم إننا لانجد تعصباً أقسى في قوته وشدته من التعصب البالغ الذي لازم التشيع خلال تطوره التاريخى ، وهذا يتنافى من غير شك مع طبيعة الفكر الحر ، ومع القواعد الفلسفية ، في مرونتها ، وإيضاحها .

ويجرنا الحديث عن الفلسفة والحرية الفكرية إلى الإمام بعض الشيء بجماعة «المعتزلة» ، وهي فرقة ابتدئت «علم الكلام» في الاسلام وكانت لها قضاياها الفكرية ، وفلسفتها الانشائية في العصر العباسى وفي عهد المأمون والمعتمد ، والواثق بالذات ، وقد اختلف المؤرخون في أصل نشأتهم فذهب كثير من المستشرقين إلى أنهم سمو بهذا الاسم لأنهم كانوا أتقياء زاهدين في الحياة فاعتزلوا المجتمع الاسلامى بما كان ينفعل فيه من اضطرابات واختلافات حول السياسة ومن أحق بالخلافة من غيره ، فاعتزلوا في المسجد يعبدون الله ، والبعض الآخر من المؤرخين العرب يذهب إلى أنهم سمو بهذا الاسم عندما اختلف واصل بن عطاء وكان ممن يحضر مجالس الحسن البصرى العلمى معه ، في شأن مرتكب الكبيرة ، هل هو مؤمن ، أو غير مؤمن . فقال واصل ابن عطاء إنه ليس بمؤمن إطلاقاً ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين وبهذا



الأختلاف اعتزل هو وأصحابه مجلس الحسن البصرى واتخذوا لهم مجلساً  
آخر فى المسجد وبذلك سموا معتزلة ١ . ويرى بعض آخر من المؤرخين  
أنهم سموا معتزلة عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة فاعتزلوا الحسن  
ومعاوية معاً لأنهم كانوا من شيعة على بن أبى طالب ، ولزموا منازلهم  
ومساجدهم ، وقالوا نشغل بالعلم والعبادة ١ . هذا ومذهبهم يقوم على  
خمسة أصول هى : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين  
المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . .

تلك هى نشأة المعتزلة والأصول التى قام مذهبهم على أساسها . .  
ونحن وإن كنا نعتزف بأن هذه الأصول الخمسة لا تبعد كثيراً  
عن جوهر الدين ، وهى من الاجتهاد المشروع فى الاسلام ، ولا تمس  
العقيدة بشئ ، إلا أننا عندما نصاحب التطور الذى لازم  
المذهب المعتزلى حتى عصر إزدهاره ، يتبين لنا خطره على الدين فيما  
اصطنعه من تعقيدات ، والتواءات فلسفية ، فى فهم العقيدة والشريعة  
الاسلامية ، بعد أن كانت سهلة بسيطة واضحة ، وفيما يكمن وراءه من  
ضيق أفق ، وقسوة تفكير ، ومصادرة رأى الغير بما لا يتفق وأبسط  
مظاهر الحرية الفكرية ، حتى أننا نرى أحد دعاة المعتزلة بعد أن ظهر  
مذهبهم وأصبح له تأثيره الفعال بقوة السلطان وهو هشام القوطى يقرر  
أن « من المباح قتل مخالفينهم فى رأى غيلة وغدراً والاستيلاء على كل  
أموالهم بالخداع أو القوة ، كما يقرر أنهم كثيرة ، فيكون حكمهم حكم  
الخارجين عن الشريعة . . وإذا ما ذكرنا المحنة التى ابتلى بها الفقهاء  
السنيون وعلى رأسهم أحمد بن حنبل ، وهم يمثلون فى تاريخ الاسلام



الحزب الرجعي المحافظ ، وذلك عند ما ابتدع المعتزلة مسألة خلق القرآن وحملوا مخالفهم على يدي المأمون ومن بعده المعتصم على الإيمان بذلك بالحديد والنار! ندرك إلى حد كان استبداد المعتزلة وديكتاتوريتهم العقلية الغاشمة، وقسوتهم التي لا تظير لها إلا في عصور الظلمة والجمود، عند ما أوجدت الكنيسة محاكم التفتيش في القرون الوسطى تصادر الرأي وصاحبه بالتعذيب والحرق، والإبادة الوحشية في غطرسة وكبرياء.

ولسنا هنا ندافع عن السنين ومنتصر لهم ضد المعتزلة ، لأننا نعلم أن المذهب المعتزلي لم يكن إلا رد فعل للجمود العقلي الذي خيم على الروح الإسلامية على يدي الأئمة السنين .

لقد قررنا غير مرة عند ما تحدثنا عن وجهة نظر الإسلام كدين عالمي ، ناضج واع ، يؤمن بالمثل العليا الواقعية للحياة أنه لا يقر هذا التقسيم الذي أقحم عليه على غير إرادة منه في ذلك ، فليس هناك شئ يسمى الإسلام السنن ، أو الشيعي ، أو المعتزلي أو غير ذلك من الأسماء المترادفة الكثيرة ، وإنما هناك اسلام فقط له من خصائصه الذاتية، ومن طاقاته الفسيحة المتشعبة الأرجاء، ما يجعله مرنا مسائرا سنة التطور في الأشياء والكائنات والحياة جميعا ، وإذا كنا نرمي المعتزلة بالتعسف في التأويل والبلبة الذهنية، والاضطراب العقلي الذي كان من غير شك ، شرأ ووبالا على العقيدة الاسلامية . فإننا لا يمكن أن نخفر للسنين جنائيتهم على الإسلام لرجعيتهم، ووقوفهم في طريق تطوره، وهضمه للثقافات الأجنبية والتراث الفكري القديم ، فينفي الغث ويكيف الصالح المفيد بمبادئه وتعاليمه فيسفيد ويفيد . . . إن هذه الدائرة التقليدية التي وقف فيها السنون



جامدين لا يريون هي التي ساعدت على وجود المعتزلة ، ومكنت لهم في إضطهادهم فكان رد الفعل في ذلك قوياً عنيفاً لأنه بينما تغالى السنيون في رجعتهم ، وحياتهم العقلية ، وتزمتهم العميق ، وأخذهم بنظرية الجبر الإلهي ، والتشبيه أو التجسيم ، أخذاً قاسياً يدلنا على مبلغ سذاجتهم ، ومخاصمتهم للمنطق والعقل ، أسرف المعتزلة في جموحهم العقلي ، وتفكيرهم الطائش حتى شوها العقيدة الاسلامية ، وعقدوها .

ولكن بعض الباحثين يذهب إلى أن العوامل التي ساعدت على وجود المعتزلة ، وعلى سيطرة مذهبهم على التفكير الإسلامي في منتصف العصر العباسي هو ما كان يتميز به هذا العصر من شيوع الزندقة والإلحاد نتيجة لما وفد على العرب من ترجمة كثير من كتب الفلسفة اليونانية فظهرت نظريات أرسطو تخالف الاعتقاد (١) في حدوث العالم في الزمان والعناية الإلهية بالعالم في جزئياته الشخصية والمعجزات ، كل ذلك لا يتفق وأرسطو طاليس ، فكان لا بد من نهوض المعتزلة ليوفقوا بين تلك النظريات والمبادئ الدينية المحددة في كتابهم المقدس .

غير أننا نعتقد أن لظهور المعتزلة جذوراً أعمق من ذلك . وأن البواعث التي ساعدت على قيامهم ليست عقيدية محض ، وإنما ترجع في أصولها الأولى إلى أغراض سياسية . ذلك أن من المسلم به أن خلفاء الدولة الأموية احتضنوا هذه الفرقة التي تمتسب إلى جهم بن صفوان والتي تسمى في التاريخ الإسلامي بالجهمية أو « الجبرية » وتقول بالخبر

---

(١) جولد تسيهر .



الإلهي ، وبعدم حرية الإرادة أو الاختيار ، وأن ما حدث أو يحدث مقدر على الإنسان والكائنات منذ الأزل ، وقد شجع الأمويون مبادئ هذه الفرقة واحتضنوها لتكون لهم سنداً في تقوية حكمهم وبقائه ، ذلك أنهم كانوا متهمين من خصومهم العلويين ، بأنهم أخذوا الملك بدون حق قهر أو اغتصاباً ، فلم يكن لهم من رد على ذلك ، ولا سند يعتمدون عليه ، إلا أن هذا الملك مقدر لهم مكتوب منذ الأزل ، وأنه لا إرادة أو اختيار لأحد في ذلك ! . ولعل فيما قاله يزيد بن معاوية لجلسائه عند ما حملت إليه رأس الشهيد الحسين « قل اللهم مالك الملك توتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » أو ما صنعه عبد الملك بن مروان بعمر بن سعيد عند ما استدرجه إلى قصره واحتز رأسه وأمر بأن ترمى إلى أتباعه من فوق القصر ومعها الدنانير ، والهاتف ينادى « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والأمر النافذ » .

لعل كل ذلك يعطينا صورة دقيقة عن استخدام الأمويين لمذهب الجبرية في تثبيت ملكهم ، وتحقيق أغراضهم السياسية ، دون أن ينظروا إلى ما بعد ذلك من خطر على الدين ، والعقيدة الإسلامية ، لأنه لما قامت في عهدهم فرقة « القدرية » ، وهي التي تطورت فيما بعد إلى المعتزلة ، وكانت تنادى بحرية الإرادة وبنظرية الاختيار حاربها الأمويون بكل ما يمكن من قوة خشية أن تزعزع بنيانهم السياسي ، وتكون من العوامل القوية في القضاء على ملكهم الذي قام على الاستبداد والطغيان ، فلما قضى على الدولة الأموية ، وقامت على أشلائها دولة العباسيين وجدنا



المعتزلة يأخذون مكانتهم بجانبها فيعقدون المناقشات علانية في أصول مذهبهم، والدعوة له، والرد على مخالفهم في الرأي، سواء من السنين أو غيرهم وذلك كله برعاية وتشجيع من الخلفاء العباسيين.

فقيام المعتزلة وازدهار مذهبهم في العصر العباسي لم يأت نتيجة لظهور الفلسفة الأرسطوطالية، ومحاولة التوفيق بين مبادئها ومبادئ الاسلام، وإنما قام في الحقيقة للقضاء على كل صورة من صور الفكر السني، الذي ساد في العصر الأموي، لأننا نرى أن وفود تلك الفلسفة على العرب لم تتحقق إلا في عصر المأمون بينما نرى احتضان الخلفاء العباسيين للمعتزلة، والاستعانة بهم قد تم في عصر لا يسبق عصر المأمون فقط، وإنما يسبق عصر والده « هرون الرشيد »، وأوثق المصادر التاريخية التي بين أيدينا تذكر أنه لما ظهر المقنن الخراساني في عهد المهدي، وكان ينسب بتناسخ الأرواح « واستغوى (١) طائفة من الناس وسار إلى ما وراء النهر، فلاقى المهدي عناء في التغلب عليه، ولذلك أغرى بالزنادقة، فكان يتبعهم ليقضى عليهم بسيف السلطان، ولكن السيف لا يقضى على رأي، ولا يسميت مذهباً، ولذلك شجع المعتزلة في الرد عليهم وأخذهم بالحجة، وكشف شبهاتهم، وفضح ضلالاتهم ففضوا في ذلك غير وازين.

وإذا ما علمنا أن المهدي كان ذا هلوسة دينية، وأفكار لاهوتية، وأن عصره وعصر هرون والمأمون كان متأثراً إلى حد كبير بالعادات والأفكار الفارسية حتى شاع في بغداد « استعمال (٢) الأزياء الفارسية

(١) أبو حنيفة للاستاذ أبو زهرة ص ١٤٨ .

(٢) « فون كرمر » .



وصاروا يحتفلون بأعياد الفرس القديمة وهي النيروز ، والمهرجان ، والرام ، وأصبح الزي الفارسي لباس البلاط الرسمي .

إذا علمنا كل هذا تبين لنا أن الخلفاء العباسيين لم يكونوا في محاربتهم لمن سموهم الزنادقة . مدفوعين بروح الدفاع عن الدين ، والحرص على أصوله وتقاليده ، لأنه كان يسمح لكثير من هؤلاء مع شهرتهم بالزندقة ، بالجلوس في مجالس الخليفة دون امتحان لكرامتهم ، أو غض من شأنهم وخصوصاً المأمون الذي كان له مع السنيين موقف آخر ، وسقطة ليس لها تفسير إلا الانتقام المروع من خصومه الأمويين فيمن يمثلهم من السنيين .

وأخيراً فنظرتنا التي نعلمنا ههنا أن كل الفرق التي وجدت في الاسلام ، لم تكن مدفوعة في نشأتها ، وتكوينها ، وأهدافها بالبحث عن الحق لذاته فقط ، أو الدفاع عن الاسلام دفاعاً خالصاً غير مغرض ، وإنما كانت كلها إما قائمة لأطباع سياسية ، أو بدافع الحقد والضغينة ، والمكر السيء بالمسلمين في إفساد عقيدتهم وتشويهها ، وكان جمهورهم من العامة ضحية لذلك كله ووقعين تحت المؤثرات والعوامل التي تحدثنا عنها قبلاً . . .

ولكننا نعلم الآن أن ظلام هذا الجهل ، وأن عدم الوعي والإدراك الذي كان مسيطراً على العالم الاسلامي أخذاً بخنأقه طيلة هذه القرون الطويلة قد أخذ ينقشع عنه شيئاً فشيئاً فلننظر الآن إلى أي مدى ستكون للمسلمين شخصيتهم ، وتأثيرهم الفعال في التعاون العالمي ، والاستقرار الدولي ، وإلى أي مدى سيساهم الاسلام بتعاليمه السامية ، ومثله العليسا الواقعية في بناء عالم أفضل .



## مستقبل الإسلام والعالم

كان في نيتي أن أعقد مقارنة بين هذه الحضارة الحديثة التي يتأثر بها عالمنا اليوم، وبين مبادئ الإسلام وتعاليمه، ولكنني اكتفيت أخيراً بأن تكون هذه المقارنة ضمن عناصر هذا الفصل من الكتاب، لأن التحدث عن مستقبل الإسلام، والعالم، سينبغي حتماً على دراسة تفصيلية لما يسود مجتمعنا البشري من نظم سياسية، واجتماعية، واقتصادية، ومن إعتبرات خلقية تكيفت تحت تأثير هذه النظم جميعاً، وكل ذلك في مجموعه، وما ينشأ عنه يمثل الحضارة الحديثة أصدق تمثيل.

وأول ما يعن لنا ونحن في مشغل هذا البحث أن نثير هنا سؤالاً يختمر في عقول كثير من الباحثين، ويشغل فئة غير قليلة من المثقفين وهو: هل كانت التعاليم الدينية في أول أمرها ترتفع عن مستوى الإدراك البشري؟ وهل كان النضوج الفكري للإنسان متأثراً أولاً ما تأثر بالعميقة الدينية، أم تم له ذلك بالتدخل منها؟ وهل هناك علاقة تربط بين المبادئ، والتعاليم السماوية، وبين ما اصطنعه العالم المتحضر من نظم ونظريات في السياسة، والاجتماع، والاقتصاد؟

أما جوابنا على الشطر الأول من السؤال فإننا نقول: إن المبادئ والتعاليم الدينية التي تتصل اتصالاً مباشراً أو غير مباشر بوجود الإنسان ككائن حي يدب على ظهر هذه الأرض ثم ما تنفعل به نفسه من



مؤثرات ، ويخضع له من ضرورات ، كل ما ينطوى تحت ذلك من مبادئ ، وتعاليم سماوية لا يمكن أن يرتفع بأى حال عن مستوى الإدراك البشرى ، لأن هذه المبادئ والتعاليم ، التي يدعو إليها أى دين من الأديان جاءت لتواجه هذا الإدراك البشرى ، ولا سبيل لها إلى تلك المواجهة إلا إذا كانت فى مستوى يتفق ، وما بلغته القافلة البشرية ، من وعى وإدراك ولذلك يتبين لنا بجلاء عند ما نقابل بين الديانات بعضها البعض ، أنها تؤرخ التطور البشرى ، على أصدق وأدق وجه من الوجوه ، وأنها فى ذاتياتها ، وخصائصها الأولى ، تسير جنباً إلى جنب مع قانون التطور والارتقاء للإنسان والكائنات جميعاً .

أما ما يكون فى هذه الديانات من أمور ديمتافيزيقية ، لا يصل إليها الإدراك البشرى ، أو لا تخضع لقضايا الإنسان العقلية ، فإنها على أى حال فى غاياتها العليا ، قائمة على خدمة وتغذية هذه المبادئ والتعاليم التي تواجه إدراك الإنسان ، وتتفاعل مع وجوده المادى ، ثم مع ما يضطرب به عقله وفؤاده ، وما يحيط به من أشياء ، ويتأثر به من مؤثرات تكيف حياته ، وتصنع له تاريخه .

وإذا كان الأمر كما ذكرنا فإن الإجابة عن الشطر الثانى من السؤال تصبح سهلة واضحة وهى : نعم إن النضوج الفكرى فى عهده الأول كان متأثراً إلى حد بعيد جداً بما حملته العقائد الدينية للبشرية من مبادئ النظام الجماعى ، ومن القضاء على الأنانية الفردية ، ومن دهوة إلى الايثار والمحبة والعدالة ، ومن تحرر للإنسان من ربطة استعباده للتقاليد والعادات البالية ، التي ورثها عن أسلافه ، ولا يمكن حتى لمن يخاصم



الديانات أن ينسكروا أنها كانت تمثل التحرر الوجداني والعقلي للبيئات التي  
نبئت فيها، من سيطرة التقاليد والعادات، وما يمكن وراها من دواعي  
الرجعية والجمود.

وإذا كان العقل في أطواره التاريخية قد قام مناهضاً للدين ثائراً  
عليه مسرفاً في التحلل من مبادئه وتعاليمه، فإن ذلك في الواقع لم يكن ضد  
الدين ذاته في مبادئه، ومثله العليا، وجوهره، وتعاليمه النظيفه الخاصة  
وإنما كان ذلك الهجوم، وتلك الثورة موجهين ضد (عقيدة رجال الدين)  
وسلوكلهم الشخصي، وإدراكهم المنحط، وهم الذين كانوا يمثلون في  
الحقيقة جملة خرافات وأساطير أضافوها إلى العقائد الدينية، ووقفوا  
بها حجرة عثرة في سبيل تقدم البشرية وتطورها، فلمؤثرات كلها التي كانت  
تحمل طابع التحلل من الدين، ومحاولة هدمه بل محوه من الوجود  
لم تكن موجهة ضد الدين في حقائقه الأزلية، وأهدافه التي ينشد من  
ورائها سعادة البشر ورفيهم، وإنما كانت موجهة ضد الجمود العقلي  
والركود الفكري، والظلم الاجتماعي، والفوضى الاقتصادية التي كان  
عمادها جميعاً رجال الدين في الغرب والشرق على السواء، فالثورة  
الأوربية التي حمل لواءها في أواخر القرن السادس عشر « فرنسيس  
بيكون، في إنجلترا، ورينيه ديكارث في فرنسا، والثورة الروسية والتركية  
التي قامت في أول هذا القرن... كل هذه الثورات ظاهرها العداء  
السافر للدين، والكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد. ولكننا  
لو تعمقنا في جذورها قليلاً، ورأينا كيف انبعث تدم كل شيء في طريقها  
لوجدنا آخر الأمر أنه لم يكن يعنينا إلا إزالة هذه العوائق الرجعية من



طريقها، وهي التي كانت تتمثل كلها في رجال الدين المحترفين، الذين كانوا في سبيل البقاء على سلطانهم في البيئات الاجتماعية التي تخضع وتتأثر بالعاطفة الدينية يرمون كل مصلح يطالب بالعدالة الاجتماعية، أو كل مفكر يصطنع نظريات جديدة، أو كل عالم يذهب إلى آفاق بعيدة من المعرفة ترتفع في قوتها ونضوجها عن مستوى إدراكهم القاصر.. كانوا يرمون كل واحد من هؤلاء بالالحاد، والخروج عن الدين إبقاء على سلطانهم ومكانتهم في المجتمعات التي يعيشون فيها، حتى أن رجال الكنيسة في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر عارضوا (١) علوم الأحياء والجيولوجيا معارضة شديدة قاتلة. ولم يرغب العلماء حينئذ في الظهور بمظهر الخارجين عن الدين الملحدين، ولكن الاختيار أمامهم كان بين سيء وأساءة، ففضلوا اختيار السيء على الأسوأ متحملين غضب العامة وسخطهم عليهم، وثورة الكنيسة ضدهم، ورميهم بالخروج عن الدين.

أما إجابتنا عن الشطر الأخير من السؤال، وهو هل هناك علاقة تربط بين المبادئ، والتعاليم السماوية، وبين ما اصطنعه العالم المتحضر من نظم ونظريات في السياسة والاجتماع، والاقتصاد؟ فإن جوابنا الذي يستند على أسس علمية، وعلى دراسة دقيقة لمراحل التطور البشري أن هذه النظم والنظريات ما هي إلا أثر تكون وتكيف نتيجة لما حملته الأديان من مبادئ وتعاليم لحفظ النوع البشري، من التأخر والتفكك والدمار. فمن الثابت علمياً وتاريخياً أن الإنسان لم يخرج من حياته البدائية

---

(١) ديزموند برنال « في رسالة العلم الاجتماعية » .



الفردية ، ويخضع للنظام الجماعي إلا بفعل الأديان، سواء أكانت وضعية أم سماوية ، فتكوين المجتمعات البشرية الأولى تم عن طريق الإيمان بالدين والتأثر به، والخضوع له خضوعاً تاماً في كل ما يتصل بحياة الإنسان وسلوكه الشخصي فكان الدين مسيطرأ سيطرة تامة على شئونه جميعاً في علاقته بنفسه ، وفي علاقته بزوجه وأولاده ، وأسرته ، ثم في علاقته بالبيئة التي درج فيها ، وما لها عليه من واجبات ، وما له قبلها من حقوق فالعقيدة الدينية لها الفضل الأكبر، في اخراج الانسان من حياته الأولى الفردية المنزوية، التي كانت تشبه إلى حد بعيد حياة الحيوان الجامح ، إلى حياة أخرى من النظام الجماعي الذي يحتم بدوره التعاون، سواء بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين أفراد القبيلة، فنشأ عن ذلك تفكير بدافع حب البقاء ، في إيجاد نظم و ضمانات تحفظ حياة تلك المجتمعات التي كانت تمثل في طورها الأول النظام القبلي .. ومن هنا نشأ نوع من التعاون والتكاتف ، ومن الخضوع لقانون محدد يمثله رب القبيلة، ويخضع له أفرادها بدون تمرد ولا عصيان فالبذرة الأولى في إيجاد نوع من النظام الاجتماعي يخضع له الفرد وضعت أول ما وضعت بيد الدين، وبوحي من العقيدة الالهية . وإذا كان الإيمان بالدين، وبالعقيدة الالهية في طورهما الأول لا يتفقان مع الأسس والأصول التي قامت عليها الديانات السماوية الأخيرة، وكانا يكتنفهما من القصور في الوعي، وعدم الإدراك الكامل بحقيقة الوجود، الشيء الكثير . إلا أننا لا يمكن أن نغفل هنا أنهما كانا يمثلان الطور الأول لحياة هذه المجتمعات البدائية.

ومن هذه النقطة نستطيع بوضوح أن نرى الخيط الذي يربط بين



الدين وطبيعته الجماعية، وبين ما اصطنعه العالم المتحضر للمحافظة على كيان المجتمع واستقراره، من نظم في السياسة، والاجتماع، والاقتصاد.

وإذا كنا قد قررنا فيما مضى، أن الدين في جملة يكون مصطبغاً بطبيعة البيئة التي نشأ منها، ودرج فيها، وأنه في كل تشريعاته وأوامره ونواهيه، لم يكن له من هدف، غير خدمة هذه البيئة، وتوفير عوامل الاستقرار، والعدالة فيها، حسبما كان يتفق، وما توفر لها من امكانيات معيشية، وما بلغته من نضوج، وما يوجد أمامها من مسائل ومشكلات يجب التغلب عليها. . فإننا نرى هنا مدى العلاقة التي تربط الدين بكل نظام تطوري من نظم المجتمع متى كان هذا النظام يسعى - ولو بوسائل تختلف عن وسائل الدين - ولكنها تتفق معه في غاياته العليا في إيجاد عوامل الاستقرار والنماء للمجتمع البشرى فالتشريعات والتجارب التي تهدف إلى إقامة التعاون بين الناس، وإلى العدل المطلق، وإلى مكافحة الشرور والآثام من المجتمع، وإلى إقامة واحياء كل ما دعا إليه الدين من فضائل وميزات تسمو بالجنس البشرى. . هذه التشريعات والتجارب يقرها الدين ويباركها لأنها تتفق في نهاية الأمر مع جوهره، وغاياته العليا في سعادة المجتمع البشرى ورفقيه، ونظافته داخلياً وخارجياً.

بسطنا هنا كل هذه الأشياء لنبيد الوهم المسيطر على عقول كثير من المثقفين والذي أصبح كحماق ثابتة مستقرة في ذمة التاريخ، وهو دعوى العداوة بين الدين والعلم، وخصوصاً العلم المجرد والعلم التجريبي، وكان الأولى بالمؤرخين أو بهؤلاء العلماء الذين توهموا هذا الوهم، أن يدركوا أن الدين في حقائقه الأزلية، لا يمكن أن يقف في طريقهم لأن



ذلك يتنافى مع رسالته الخالدة في خدمة البشر ورفيهم والسمو بهم نفسياً وعقلياً ، وإنما الذى كان يقف في طريقهم في الواقع وحقبة الأمر ، هم أولئك الذين منحوا أنفسهم ، أو منحهم المجتمع السلطة الكاملة في رسم حدوده ، وفي تصويرهم لأهدافه وغاياته ، ونظرته للأشياء .

إن من الحقائق الثابتة تاريخياً أن الدين كان في كل أمة نزل إليها عاملاً من العوامل القوية في تقدمها وتطورها ، وتعاونها على البر والتقوى وعلى السلام والأخاء ، فإذا حدث بعد ذلك وطأت عليها ذراعى الضعف ، والانتكاس والانحلال ، ولو كان على يدى رجال الدين المحترفين فليس الدين مسئولاً عن ذلك ، وإنما المسئولية كلها تقع عليهم وحدهم لأنهم جعلوا أنفسهم حفظة عليه ، فلم يحسنوا المحافظة ، ونقضوا آداء رسالته ، فلم يؤدوها كما ينبغى .

هذا هو الدين في حقائقه الأزلية ، وفي غاياته العليا ، تعمدنا أن نستظهره عاماً لا خاصاً ، ولكننا نؤمن بأن قانون التطور الذى يخضع له الإنسان ، وتخضع له الكائنات جميعها يصدق هنا أيضاً على الديانات . والاسلام باعتباره آخر هذه الأديان وخاتمها ، يمثل الطور الأخير لنضوج العقيدة الإلهية وكلها . فلننظر الآن موقفه من هذه الحضارة التى تسيطر على عالمنا هذا المضطرب ، ثم مكانته بعد ذلك فيما نرجوه من حياة أفضل . يتوفر فيها الهدوء النفسى ، والاطمئنان القلبي .

وهذه الحضارة تقوم على ضرر بين مختلفين من النظم السياسية ، والاجتماعية



والاقتصادية ، إحداهما الديمقراطية، وثانيهما: الشيوعية. فلنحاول الآن أن نرسم صورة سريعة للعوامل التي ساعدت على ظهورهما ، والتطور الذي صاحبهما ثم مقارنتهما بما رسمه الاسلام للعالم من نظام في السياسة والاجتماع والاقتصاد .

### ( ١ ) الديمقراطية

إن العبرة في أى نظام من النظم ليست فيما يحمله من مبادئ ، ونظريات مثالية ، وليست في تحقيق مظاهره وصوره المرئية فقط . وإنما المدلول دائما هي الروح التي تهيم على تطبيق تلك المبادئ ، والنظريات ، وعدم الوقوف عند المظاهر ، وإنما تحقيق الغايات التي من أجلها وجد هذا النظام ، والمتبع لطبيعة التطور التاريخي للنظام الديمقراطي يرى عجباً! يرى أن هذا النظام الذي بنى على أساس « حكم الشعب بالشعب، لتتوفر للواطن العدالة التامة، وليتساوى الجميع من أبناء الوطن أمام القانون، وليتمتع كل فرد في الدولة بتكافؤ الفرص مع غيره سواء بسواء . . . بينما نرى هذه المبادئ في النظام الديمقراطي صريحة واضحة نرى أن ما كان يتحقق تحت ستار هذا النظام ليس إلا نوعاً من الحكم المطلق المقنع بمظاهر برلمانية وكل ما طرأ عليه أنه أصبح يمثل مصالح فئة محدودة من الناس بعد أن كان يمثل مصالح فرد واحد .

ولنسجل هنا صوراً سريعة من واقع التطور التاريخي للنظام الديمقراطي ليتبين لنا هذا المعنى في وضوح وجلاء . وأول من اصطنع هذا النظام هم الاغريق في القرن الخامس قبل الميلاد. وإذا ما استظهرنا



الروح التي كانت تسيطر على هذا النظام ، وتكيفه في العصر الإغريقي تبين لنا ما كان يكتنفه من عجز وقصور ، لبعده عن الأساس الذي قام من أجله ، وهو « حكم الشعب بالشعب » لأنه في الواقع لم يكن يمثل إلا مصالح فئة خاصة لها امتيازات محرم على غيرها من المواطنين التطلع إليها ، أو التمتع بها . فن الثابت أن الديمقراطية الإغريقية قد أقرت النظام الطبقي ، واعترفت بالرفيق ، ونظمته باعتباره أهم مصدر للإيراد لمصلحة الطبقة الحاكمة ، وكان أرسطو يعبر عن ذلك بقوله : إن الله خلق نوعين من الناس . السادة والعبيد . وكل ميسر لما خلق له . فالعبيد خلقوا لا لشيء إلا لخدمة السادة . ولما ورث الرومان النظام الديمقراطي عن الإغريق لم يكتفوا بإقرار النظام الطبقي ، وبمشروعية الرق ، وإنما أصبح هذا النظام يمثل الظلم الاجتماعي على أشنع صورة ، وكانت الروح المسيطرة في العلاقة بين الطبقة الحاكمة ، وجموع الشعب الكادحة أقرب ما تكون إلى شريعة الغاية حيث كل شيء للقوى ، ولا شيء للضعيف ، وقد أوردنا صوراً عدة لهذا النظام الديمقراطي المزيف عند ما تحدثنا عن القانون الروماني في أول الفصل الثاني من هذا الكتاب فليرجع إليها من يشاء .

من كل هذا يتبين لنا أن النظام الديمقراطي في عهد هوده الأولى لم يكن يمثل إلا مظاهر خادعة لا تعني من شيء ، ولا تقيم وزناً للاعتبارات ، والأهداف التي من أجلها وجد هذا النظام . وبذلك لا نستطيع أن نعترف بصلة قوية تربط بين روح الديمقراطية الإغريقية والرومانية ، وبين الثورات التحريرية ، وإعلان حقوق الإنسان التي



قامت في أواخر القرن الثامن عشر، كما ذهب إلى ذلك كثير من المفكرين، وذلك لقصور وزير هذه الديمقراطية التي لم تكن قائمة إلا على نظام طبقي مستبد، وعلى رعاية مصالح فئة خاصة من الناس ومصادرة آراء الغير، ومعلوم كيف حوكم سقراط في ظل هذا النظام الديمقراطي المخادع، وحوكم عليه بالإعدام.

ثم إننا عند ما ننظر إلى ما كان يرزح تحته العالم الغربي باسم النظام الديمقراطي، من حكم مستبد مطلق، ومن مصادرة للحريات، ومن نظام إقطاعي شره، ومن تفاوت بليغ في الطبقات قبل قيام الثورات الشعبية التحريرية في إنجلترا في أواخر القرن السابع عشر ثم في فرنسا وأمريكا في نهاية القرن الثامن عشر . . . إننا عند ما ننظر إلى ما كان يسود المجتمع الغربي في ذلك الوقت من نظام في الحكم، والسياسة. وحقوق الشعب نجد أن هذا النظام الديمقراطي كان يمثل أحلك فترة مرت بالتاريخ البشري، وأنه كان يرتكب باسمه كل ما لا يتفق والاعتبارات الخلقية والإنسانية. وأنه لم يكن غير ستار يحمي وراهه سلطات الكنيسة، ومصالح الطبقة الحاكمة، فكان أسهل شيء أن يتهم رجال الإصلاح بالكفر والإلحاد، وأن ترفع الكنيسة رحمتها عنهم فيتولاهم رجال السلطة بالتعذيب والحرق أحياء. وكانت تفرض لوائح وقبود شديدة على طبع الكتب ونشرها، وفي سنة ١٧٧٥ وافق البرلمان الفرنسي على حرق كتاب « في فلسفة الطبيعة » واتهم مؤلفه بالإلحاد ولو لم يحتف لكان جزاؤه الموت حرقاً.

وإذا ما تحققنا من النظرة التي كان ينظر بها الملوك إلى البرلمانات التي



تمثل المظهر الخارجي للنظام الديمقراطي تبيننا أنها لم تكن غير العوبة في أيديهم يلهون بها دون احترام لمشئته الشعب ، ومصالحه ، وحقوقه التي يمثلها رجال البرلمان . فلقد كانت إنجلترا في عهد الملك شارل الأول « تعاني (١) نظام حكم مستبد مطلق أدى إلى ثورة الشعب على الملك بزعامه كرمويل . ولما انتصرت الثورة وقدم الملك إلى المحكمة العليا كان ضمن المستندات ضده خطاب أرسله لزوجته ووقع في أيدي أعدائه وفيه يقول :

اطمئني ففيا يختص بالمطالب التي سأجيب البرلمان إليها ، وأعطيتها للشعب ، فإنني أعلم يقيناً متى حان الوقت كيف أتصرف مع هؤلاء السفهاء ، وبدلاً من أن أعطيهم رباطاً من حرير للساق أقدم لهم حبلاً من القنب » .

ولما جاء رجال البرلمان إلى الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا لمقابلته وتلقى تعليماته قال لهم « إنني أخبركم بما أريده منكم ، ويجب أن تنفذوا إرادتي على الوجه الأكمل . . . إنني لا أريد احتجاجات أو معارضة بأي صورة من الصور ، أو أية صيغة من الصيغ . إنكم استحققتم إلى أقصى الحدود سخطى الشديد ، ويجب أن تخضعوا لسلطاني أكثر من ذي قبل ! . عودوا إلى وظائفكم » .

ولما أراد رئيسهم أن يتكلم تقدم بضع خطوات وقال : سيدي . ولكن الملك قاطعه وقال له : اسكت . ثم تقدم أحد المستشارين وثنى

---

(١) « المثل الديمقراطية » للأستاذ عبد المنجي رجب .



ركبته ووضع أمام الملك ورقة مدون بها ما يطلبه رجال البرلمان فأزاحها الملك برجله ونادى أحدهم أنباعه وأمره بتمزيقها ثم أدار ظهره للمبجتمعين وانصرف .

هكذا يتضح لنا كيف أن هذا النظام الديمقراطي لم يحقق في مرحله الأولى إلا المظاهر والصور المرئية فقط . وأنه كان أشد وطأة على الشعوب من أى نظام آخر حتى إننا نقول بدون تحفظ ، أنه لا يقاسى به النظام الديكتاتورى المصلح فى شىء ، ولا يمكن أن يدانى به فى قسوته ومغالاته فى الظلم والعبودية، إلا النظام الأوتقراطى، وهو ما كان مصطبغاً به إلى ما قبل القرن التاسع عشر !.. ولكننا نلاحظ أن الحقوق التى اكتسبتها الشعوب التى تدين بالديمقراطية بعد الثورات الشعبية التحريرية فى أوربا وأمريكا لم تخل من عجز وقصور فى توفير العدالة المطلقة لأبناء الشعب جميعاً، ومراعاة مصالحهم بلا تفریق.. حقيقة إن الديمقراطية بعد الثورة، وإعلان حقوق الإنسان ضمنى حرية الفرد، وقدست حقها فى أن يزاو ما يتفق مع طبيعته من الأعمال المشروعة ، دون تدخل من السلطات فى أى شأن من شؤنه الخاصة والعامة ، لكنها من ناحية أخرى خلقت طبقة قوية غنية تزداد مع الأيام قوة وثراء لأنها تحتكر منابع الإنتاج فى الدولة ، ومصادر الثروة فيها ، وبالتالى تؤثر تأثيراً مباشراً فيما تسمه الدولة ، من مشاريع وقوانين فى السياسية ، والاجتماع والاقتصاد، تضمن بها حماية مصالحها فقط، دون أى اعتبار لمصالح الشعب جميعه وليس صحيحاً ما تنادى (١) به تلك الفكرة من أنه إذا سعى كل فرد

( ١ ) «السبيل إلى عالم أفضل» كارل بيكر ترجمة الأستاذ عبد العزيز اسماعيل



وراء منافعه الذاتية فإن ضرباً من النوفيق بين مصالح الشعب المختلفة سرعان ما يزداد ظهوره أو يقل بصورة آلية ، وكان يعبر عن هذه الفكرة . في إيجاز بالعبارة الآتية : ( إن المنافع الخاصة تؤدي بدورها إلى تحقيق المنفعة العامة ) .

• وهذه النظرية البسيطة ، التي تتناخص في ترك كل فرد يعمل لنفسه لأن من لا يسعى إلى ذلك يتخلف وراء الصفوف . هي نظرية تعمل لمصلحة القوى ضد الضعيف ، وفي مجتمعات القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر التي لم تكن حياتها ، بالقياس إلى غيرها ، قد تعقدت بعد ، كانت هذه النظرية تعمل لمصلحة أولئك الأفراد القلائل الذين أتاح لهم الحظ ، أو الذكاء الممتاز ، أو فقدان الضمير . أن يقتنوا ثروة ، وأن يستعينوا بها في توسيع دائرة مصالحهم الشخصية عن طريق الضغط السياسي ، ذلك الضغط الذي يخلق دائماً طبقة كبيرة من الأفراد لا يثقون بقواعد السلوك المثالي في سبيل مد يد المعرفة إلى الحزب الذي ينتمون إليه .

وكل هذه الآثار السميثة التي سجلناها هنا تترجم أدق ترجمة عما نعاينه نحن الشرقيين من ظلم اجتماعي وسلطات أتوقراطية في ثوب من النظام الديمقراطي المهلهل . إن التجارب القاسية للنظام الديمقراطي التي مرت على أوروبا وأمريكا قبل مطلع القرن التاسع عشر تمر بنا الآن في قوة وقسوة دون وازع من خلق أو إيمان بالشعب بمن يدهم السلطان ، ودون اتعاظ بما حدث لما قبلنا من تززع . وهزات اجتماعية وتصارع واضطراب . وليس المهم كما قلت أن تكون هناك نظريات خلافة . ومثاليات رفيعة وإنما المهم هو



امكان تحقق هذه النظريات والمثاليات في الواقع المحسوس . وعيب الديمقراطية كما تحققت حتى الآن، أنها تعنى بالظهور لا بالجور وأنها فشلت فشلا ذريعا في توفير العدالة والأمن والسلام لهذا العالم المضطرب القلق . فلننظر الآن في أصول المذهب الثاني الذي يتنازع العالم مع الديمقراطية لنبحث في زواياه عن العوامل التي ساعدت على إيجاده . ومبلغ التطور الذي لازمه . ثم تأثيره في مستقبل العالم إن قدر له أن يعيش .

## ( ٢ ) الشيوعية

وأول ما يعن لنا أن نستظهره هنا هو أن الشيوعية قامت لتمثيل رد الفعل العنيف ، لما كان يسود العالم الديمقراطي من نظام رأسمالي جشع ، ومن تفاوت طبق مستبد . ومن ظلم اجتماعي عمت فظهرت في سنة ١٨٨٠ الدعوة إلى الديمقراطية الاقتصادية . وإلى العدالة الاجتماعية على يدي بعض المفكرين في كل من فرنسا وألمانيا . والمهم هو أن نعلم أن الدعوة إلى الاشتراكية ، وهي التي تطورت فيما بعد إلى الشيوعية كانت نتيجة حتمية لتقدم الفنى والثورة الصناعية ، واستخدام العلم وحده كقاعدة أساسية لحياة الانسان اليومية . فما لاشك فيه أن كارل ماركس ، مؤسس هذا المذهب كان يتخيل إلى أى مدى سيصل الأمر بالبلاد الصناعية إلى تفاوت طبقى مخيف . وإلى استغلال قاتل للأيدى العاملة ، ثم احتكار موارد الثورة في البلاد الصناعية في أيدي فئة قليلة العدد ، شرهة إلى جمع المال . ثم استغلالها على غيرها من الأغلبية الساحقة من جموع الشعب الكادحين وتسخيرهم لاشباع رغباتها النهممة التي لا تشبع أبداً . . . ومن هنا رأى أن الثورة الاشتراكية لن تتحقق بقوتها وعنقها إلا في دول تكون



الصناعة قد بلغت فيها شأواً كبيراً حيث يقبض على زمام الحكومات طبقات رأسمالية بما لها من قوة ونفوذ، ثم حيث يتيسر تسكتل العمال ووجود شيء من الوعي بينهم! ذلك أن ازدهار الصناعة وما تتمتع به من حريات مطلقة في الإنتاج والتوزيع وتحديد الأسعار سيؤدي بالضرورة إلى المنافسة . وإلى اشغال الحرب الشعواء من المضاربات الحرة بين فئة الرأسماليين بعضهم بعض . ولا بد أن تنتهي هذه الحرب إلى انتصار أحدهم وحينئذ تصبح الثروة كلها، وموارد الانتاج كله، مركزين في أيدي فئة قليلة العدد بينما الغالبية العظمى من الشعب تسمى في حالة من العوز والفاقة، وفي مستوى لا يرتفع في شيء عن مستوى العبيد الأرقاء، وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد، كان ذلك إيذاناً بأفول نجم النظام الرأسمالي، حيث سيقضى على الصناعة لتسكدس منتجاتها بدون استهلاك، نتيجة لفقدان القدرة على الشراء من جموع المستهلكين، لأنهم أصبحوا في حالة من العوز والفاقة بسبب احتكار الصناعة، وتجمع الثروة كلها في أيدي فئة قليلة العدد، تتسلط عليها الأناية الفردية. وتتملكها غريزة الغطاسة، وحب الاستعلاء بما تملكه من نفوذ، وسلطات لا يحد منهما، ولا يقف في طريقهما شيء، ولذلك كان نجاح الثورة الاشتراكية في روسيا وهي بلد زراعي لم تبلغ فيها الصناعة شأواً بعيداً كما بلغته في الدول الصناعية الكبرى مثل إنجلترا وفرنسا أو غيرها من الدول على خلاف ما قدره «كارل ماركس». ولكن لعلمنا لا نبعد كثيراً عن الصدق لو قلنا، إن نجاح الثورة الشيوعية في روسيا يرجع إلى عاملين أولهما: تفكك النظام القيصري وانحلاله . وتخلف روسيا عن النهوض . وعن التقدم العلمي . والاجتماعي بينما غيرهما من الدول الأوروبية



قد مضت قدما ، في سرعة ومضاء إلى التفوق العلمي ، والنهوض الاجتماعي فمن الثابت تاريخياً أن الشعب الروسي كان يجهل كل شيء عن الفلسفة الشيوعية ولم يكن يعنيه إلا القضاء على الظلم الاجتماعي ، والفوضى الاقتصادية ، اللذين كانا متسلطين عليه آخذين بخنثاقه لا يرى فكاكاً منهما إلا بمحاربتهما محاربة حياة أو موت : فكان أن انقادت الغالبية الساحقة من الشعب إلى أي دعوة تخلصها من هذا الظلم الاجتماعي المفرغ ومن هذا النظام الطبقي المميت ، فالقيصر وحاشيته وأسرتهم من النبلاء والأشراف كانوا يملكون وحدهم نصف أرض روسيا بينما تعاني غالبية الشعب مرارة السخرة ، وعبودية العيش ، حتى أن الأوضاع القائمة كانت لا تبيح أن يترك أرض سيده ، فكان يتبعها إذا ما بيعت إلى سيد آخر وهكذا .. في مثل هذا المجتمع المفكك الموبوء الذي يسوده الظلم ، ويمرغ فيه الفقر ، والجهل ، والانحطاط ، لا بد أن تنجح أي ثورة ولو كانت غير الشيوعية متى كانت موجهة إلى القضاء على هذا النظام الإقطاعي وتخليص الشعب من آثاره المفجعة الممضتة .

أما العامل الثاني في نجاح الثورة الشيوعية في روسيا القيصرية فهو ما كان يمتاز به زعيم الثورة من حنكة ، وعبقريّة في التنظيم والتدبير فلو لا قوة شخصية « نيقولاى لينين » واستخدامه العلم في توطيد أركان النظام الشيوعي ، لما قدر للثورة أن تنجح ، وتوطد دعائمها إلى هذا الحد الذي أذهل أبناء روسيا أنفسهم فما لا شك فيه أن الهدف الذي تنشده الفلسفة الشيوعية هو جعل الأرض والصناعة . وكل مصادر الإنتاج ملكاً للدولة توجهه ، وتسيطر عليه لصالح المواطنين جميعاً ، ولكن هذا



المبدأ أوجد مقاومة عنيفة أول الأمر لا من جانب أصحاب الضياع .  
والرأسماليين فحسب، وإنما من جانب كثير من الفلاحين، والعمال الأجراء  
أيضاً ، ولكن هذه المقاومة تلاشت بعد حين تحت وطأة النظام  
الديكتاتوري وقسوته ، الذي اعتمدت عليه الثورة الشيوعية في نجاحها  
واستمرار نموها ، ثم استخدامها بعد ذلك للعلم ، ولكافة أنواع المعرفة  
الإنسانية، في بناء مجتمعها الجديد ، على أساس من المناعة والقوة ، ويذكر  
الأستاذ ديزموند برنال ، كيف أن العلم والأفكار الجديدة كانت تحارب  
بقسوة في عهد روسيا القيصرية، وكانت الطبقة الحاكمة تتوجس منها خوفاً لما  
تحملة من مبادئ جديدة ، وآراء حرة غريبة على الشعب الروسي فيقول  
« إن المجتمع (١) الروسي يختلف أصلاً عن أي مجتمع آخر في أنه وجد  
فكرياً قبل أن ينفذ فعلاً ، فكان بذلك أول مجهد يبذل له الإنسان عن  
وعى لخلق البناء الذي ينظم حياته الاجتماعية ، والأسس العامة لهذا  
النشاط نشأت من الدراسات الانتقادية للنظم الرأسمالية التي قام بها  
ماركس وإنجلز ولينين في المائة سنة الأخيرة . فقد نشأ ماركس في  
الفترة التي نما فيها العلم نمواً عظيماً خلال القرن التاسع عشر . وقد  
رأى كما رأى غيره الاحتمالات التي يفتحها العلم بتقدمه أمام الإنسانية  
ولكنه رأى ما لم يره غيره ، وهو أن هذه الامكانيات لا ينتظر تحقيقها  
وعرف السبب في ذلك . والحجر الأساسي في الدولة الماركسية هو  
الاستفادة المباشرة بالمعرفة الإنسانية ، والعلوم والفنون لخير الإنسان  
ولذلك عندما تمكن لينين من إيجاد هذه الدولة والدفاع عنها في

---

(١) رسالة العلم الاجتماعية ترجمة الدكتور ابراهيم حلمي .



السنوات الأولى من إنشائها ضد هجمات العالم عليها ، كان همه بعدئذ أن يتبين طريقة استفادة المجتمع بالمعرفة العلمية فعلا ، وقد فهم ماركس العلاقة الوثيقة بين النظريات العلمية وممارستها في الفنون فهما كان أكثر وأوضح من فهم العلماء والمعاصرين لها ، وقد بين كيف يمكن جعل هذه العلاقة اللاشعورية بين النظرى والعملى ، شعورية . وبين أن ذلك لازم إذا أريد أن ينمو أيهما نمواً كاملاً ، وقد شرح انجلز الذى درس العلم المعاصر طيلة حياته هذه الآراء بالتفصيل ، وكذلك قضى لينين وقتاً طويلاً وهو فى المنفى دارساً أحدث التطورات العلمية ومحللاً إياها ، وناقداً لها ، ولهذا بدأت الدولة السوفيتية فى بناء العلم حسب خطة محكمة منطقية حتى قبل أن تنتهى من أمر الحروب الأهلية والمجاعة .

ولم يكن هذا العمل هيناً ، فقد كان العلم دخيلاً غير مهضوم فى روسيا القيصرية منذ أن أدخلته الامبراطورة كاترين الكبرى . ولم يكن له وجود قط عند الجماهير ، بينما كانت الطبقات الحاكمة تتوجس خيفة مما فيه من آراء حرة ، ولذلك لم يكن العلم يشجع إلا بالقدر الذى يكفى حاجيات الإدارة الحكومية ، والجيش ، ولغرض الفخر والشهرة ، إذ كانت روسيا القيصرية ترى فى وجود أكاديمية للعلوم بها مما يؤيد الدعوى الجوفاء بأنها قطعة من أوروبا لا تقبل حضارة عن أى دولة أوروبية .

وعلى كل حال فإن الاتجاه الذى كان يرمى إليه ( كارل ماركس ) من أن الثورة ستمتخض فى النهاية عن إقامة عالم لا طبقى تسوده المساواة ، والتعاون العالمى ، والإخاء ، والحرية المطلقة . . هذا الاتجاه



لم يتحقق حتى الآن على وجهه الأكمل فما زالت روسيا تحكم حكماً  
ديكتاتورياً قاسياً ، وما زالت تئن تحت نظام العزلة وإقامة ستار حديدي  
بينها وبين العالم .

وإذا سلمنا برأي من يقول إن نجاح النظام الشيوعي، واستقراره حتى  
الآن شر أصيب به العالم فيمكن أن تصدق هنا الحكمة التي تقول إن الخير  
يأتي أحياناً عن طريق الشر . فما لاشك فيه أنه لولا الخوف من تسرب  
هذا النظام إلى كثير من بلاد العالم الديمقراطي ، وملاقاته تربة صالحة  
ينمو فيها ، لظلت هذه البلاد حتى الآن تعاني مرارة الظلم الاجتماعي  
وقسوة النظام الطبقي ، فالنظام الاشتراكي ، والعدالة الاجتماعية التي  
تسود معظم العالم الغربي الديمقراطي تمت تحت ضغط هذا النظام الشيوعي  
مما دعا إلى إقامة سد منيع يحول بين الشيوعية وبين التنفس والنماء .

بقي بعد كل هذا أن نعرف موقف الإسلام من هذين المذهبين  
الذين يتنازعان العالم . ولا يعلم إلا الله أيهما سيصرع الآخر ويقضى  
عليه بعد أن يخرجنا من طور هذه الحرب الباردة إلى حرب أخرى  
سافرة لا تبقى ولا تذر .

وأول شيء نقرره هنا أن الإسلام في مبادئه ، وغاياته العليا يتفق مع  
النظام الديمقراطي ، حسب تطوره الأخير في أشياء ، ويختلف عنه في أشياء  
أخرى ، ولست هنا نعقد مقارنات بين نظام من صنع الإنسان ، ونظام  
من صنع الإله كما يقولون . لأننا بسطنا في أول هذا الفصل أن المعرفة  
البشرية في قوتها ، ونضوجها ، ما هي إلا أثر تسكون عن طريق الدين



وبوحي من العقيدة في الإله . فنحن ان نستظهر غير النتيجة الأخيرة المتعلقة بحياة الإنسان المادية . والتي تمخض عنها هذا النظام بعد جهاد طويل ، وسيل منهمر من الدموع ، والدماء . فخرية الرأي ، وحرية العقيدة ، والأخذ بتكافؤ الفرض ، وسيادة العدالة الاجتماعية التي ينطبع بها النظام الديمقراطي حسب تطوره الأخير ، ولكن في حدود ضيقة كما سترى بعد ، يقرها الاسلام ، في شمولها ، وانطلاقها دون حدود أو قيود ، ويمكن أن نلخص هنا في شيء من الايجاز ، أوجه الاختلاف بين نظرة الاسلام ، ونظرة الديمقراطية لظروف الانسان الجماعية ، ثم ما يكيف به حياته من نظام سياسي ، أو اجتماعي ، أو اقتصادي ، ولكن نحب بادى ذي بدء أن نبدد هذا الوهم الذي سيطر على فئة غير قليلة من الباحثين حتى من ينتسبون منهم إلى الإسلام وهو أن حكم الإسلام الذي قام على أساس ديني كان دائماً مصطبغاً بصبغة الحكم الأوتوقراطي ، لا في فترات محدودة ، وإنما خلال تطوره التاريخي كله منذ قيام الدولة الأموية حتى آخر عهد العثمانيين ، بعد أن لفظت الخلافة الاسلامية نفسها الأخير . ولكن إذا سلمنا بهذه الحقيقة فإننا لا يمكن أن نرجعها إلى ذاتية الدين أو أن نحمله مسؤليتها لأننا كما أوضحنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، أن الإسلام لم يتحقق في قوته وشموله وكاله دون أن تصطبغ فيه أشياء غريبة عنه ، إلا في عهود ثلاثة فقط ، هي عهد النبي ، وعهد أبي بكر ، وعهد عمر . لا نستثنى بعد ذلك أي عهد من العهود اللهم إلا عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز . . . فالخلافت التي قامت تحت ظل الإسلام منذ العهد الأموي حتى عهود انحلالها وتلاشيها لم تكن تعبر عن روح الإسلام الحق . . ومع ذلك فالانصاف يقتضينا



أن لا نغفل في ذهننا ، ونحن ندرس الروح التي كانت مسيطرة على تلك  
الخلافت ، مراحل التطور البشرى ، وهى التي تدل على أن القافلة  
الانسانية فى أى منطقة من مناطق العالم جميعه ، لم يكن قد توفر لها بعد  
إلا القليل جداً من عوامل الوعى والإدراك ، والمقارنة النزيهة بين حكم  
الخلفاء المسلمين ، وبين حكم غيرهم من قياصرة وملوك بقية دول العالم  
تدل على أن العالم الاسلامى كان أسعد حالا عن غيره من بقية الشعوب  
التي كانت مشحنة الجراح تن تحت وطأة حكم مستبد قاس لا يراعى شيئاً  
من الحق والعدالة فى أبسط مظاهرهما ، فكانت خاضعة فى استسلام وفى  
إذلال وخنوع ، لقانون ظالم . هو شريعة الغابة بعينها ! .

ومع ذلك فالإسلام يختلف عن النظام الديمقراطى ، وغيره من  
النظم التي تسود معظم العالم اليوم فى أن الحكم فيه لا يقوم إلا على  
أساس الشورى وحدها . فإقامة الحكم للعصية أو الوراثة أو القوة أو  
النفوذ ، أو أى عامل آخر لا يقره الإسلام فى شيء ، ولعل ما سجلناه فيما  
سلف من فصول هذا الكتاب ، يعطيك صورة واضحة عن أن إقامة  
الخلافت الإسلامية كانت تؤخذ عنوة واقتداراً ، أو تحت سلاح الخوف  
والإرهاب ، دون أدنى حرية فى التعبير . أو إرادة لأهل الحل والعقد من  
المسلمين ، حتى أصبح الحكم ، أو تفرطياً لا يخضع لمشئته جمهور المسلمين  
فى شيء . فروح الحكم الاستشارية الخالصة التي كانت مسيطرة على  
مقاليد المسلمين ، والتي كانت قائمة على أساس أن يظل الخليفة حاكماً  
للمسلمين ، مهيمناً على مشئتهم ما دام يحسن الحكم ، ويقوم العدل ،  
ولا يظلم الرعية فى شيء ، فإن جاد عن الطريق الذي رسمه الإسلام سقطت



عنه البيعة وحل آخر مكانه ! . هذه الروح تلاشت تماماً منذ قيام معاوية  
ابن أبي سفيان على شئون العالم الإسلامي بهذا الخداع والنفاق السياسي  
الذي يتوارى خجلاً أمام مقتضيات الأمانة والخلق الكريم . ومنذ  
ذلك الحين أصبح الحكم ملكاً عضواً ، يورث كما تورث عروض  
الحياة دون أدنى التفات لشخصية الخليفة ، ومقدار حظه من الكياسة  
والنبوغ ، أو التقوى والصلاح .

بقي هناك جانب خطير يتصل اتصالاً وثيقاً بحياة العالم الديمقراطي  
من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنه لا يتفق ونظرة الاسلام  
في شيء . فالديمقراطية الغربية تنظر إلى المال، أو إلى كل ما يقوم به من  
ثروات منقولة أو غير منقولة على أنه في ذاته غاية ، وتعطيه تبعاً لذلك قيمة  
أرفع بكثير من العمل ! ولعل المشاكل المعقدة، والاضطراب الاقتصادي  
الذي ينتاب العالم الديمقراطي اليوم ، هو أثر من آثار تلك النظرة المادية  
المتطرفة . . . . . ولقد كان جزء كبير من العالم الغربي يلفظ هذه الحياة  
المادية التي يخضع لها بشيء من المثاليات ، ونوع من الروحانيات التي  
انحدرت إليه من تاريخه القديم وذلك قبل الحرب الأخيرة . أما بعد أن  
خرجت أمريكا من عزلتها ، وأصبح لها تأثيرها الفعال في اقتصاديات  
كثير من الدول الأوروبية فإن هذه المثاليات ، والروحانيات قد تلاشت  
تماماً وأصبح الدولار ، هو إله أوروبا المعبود وإذا قدر للعالم الغربي  
أن تظل أمريكا مسيطرة على مكان القيادة منه فسينهار هذا العالم لا محالة  
لأن أمريكا تكيف نظرتها للأمور وحكمها على الأشياء على ضوء أو تحت  
تأثير نظامها الاقتصادي ولا شيء سواه . . . . . والدارس لتطور الاقتصاد



في أمريكا ، أو في أوروبا قبل أن تسود معظمها النظم الإشتراكية يجد أن ما تتحقق في هذا النظام من عدالة اجتماعية لا يرجع في أصله الأول إلى الوجدان ، أو يقظة الضمير ، وإنما يرجع إلى ضرورات اقتصادية وإلى خشية انهيار النظام الرأسمالي من أساسه ، ذلك أن فقدان القدرة على الشراء من المستهلكين وهم جمهور الشعب سيؤدي بالضرورة إلى تكديس المنتجات ، وبالتالي إلى تعطل المصانع ، وانتشار البطالة فينهيار النظام الرأسمالي من أساسه فتحاشياً من كل ذلك ، وانتقاء لشروط الهزات الاجتماعية التي تقضى على مقومات الدولة وجد ما سمي أخيراً بالتكافل الاجتماعي . . . وما يدل على صدق نظريتنا هذه أن العالم الديمقراطي إذا كان قد تخلص بعض الشيء وتحت هذه الظروف القاهرة من الأنانية الفردية فإنه قد أسلم زمامه لنوع آخر من الأنانية أمتن في الشر ، وأشد في البلاء وهو الأنانية الجماعية ، والاستغلال الاقتصادي لغيره من الشعوب فما وجد من عدالة اجتماعية ، ومن حريات عامة ، ومن مثل عليا للحياة ينظر إلى كل ذلك على أنه شيء من الميزات أو الخصائص لا سبيل للغير إلى التطلع إليها ، أو على أنه سلعة ليست قابلة للتصدير ، وإنما هي للاستهلاك المحلي فقط ، ومن هنا ترى مدى الإثم الذي يمكن وراء تلك الديمقراطية الزائفة التي في سبيل البقاء على مطاعمها واستغلالها للشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها تشجع فيها كل عوامل الفساد والانحلال والتأخر ، وذلك لتظل بقرة حلوباً تستغل في يسر وبلا مقاومة .

هذه صورة خاطفة لما عليه العالم الديمقراطي اليوم . أما وجهة نظر الإسلام في ذلك فتختلف اختلافاً بيناً . فالمسال ليس غاية لذاته وإنما هو



بمثابة وظيفة اجتماعية ، يشارك في ملكيته . والانتفاع به المجتمع بطريق غير مباشر ، فالملكية الفردية مباحة في الإسلام ولكن تتوفر لها شروط . وتحدها قيود تجعلها خاضعة لمطالب الحياة الجماعية . والقرآن صريح في تقرير هذا المبدأ « وَلَا تَتَوَنَّنُوا السُّفَهَاءَ أَلَمْ يَكُفِ لَكُمْ اللَّيْلُ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ » لأن السفهية لا تتوفر له الإمكانيات الذاتية في تسمير المال وتسخيره لخدمة المجتمع والنهوض به ، وبما يزيد هذا المعنى تأكيداً ، هذه الآية الكريمة التي لا تحتاج إلى تأويل « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . وسبيل الله هنا هو كل ما يخضع لضرورات المجتمع من توفير الهدوء والاستقرار في العيش . ومن الدفاع عن كيانه والذود عن مقوماته فيما يعتريه من هزات اجتماعية أو اقتصادية . . . ولكن الإسلام لم يكتف بذلك وإنما يريد أن يقضى في صرامة وقوة على ميكروب النظام الطبقي الذي ينشأ عادة من سوء التوزيع الاقتصادي للدولة فيوجب ضرورة التوازن في دخل الأفراد ، وبذلك يقضى على كل العوامل التي ينشأ في ظلها الربا والاحتكار . . . كيلاً يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ،

فنظرة الإسلام للمال وتحديد صلته بالمجتمع أنه ليس إلا أداة أو وسيلة لتنظيم التبادل بين المجتمع . وتلبية مطالبه وحاجياته في سهولة ويسر . فالصلة التي تربط بين المال وبين حياة البشر من الناحية الاجتماعية والاقتصادية . لا تخرج عن كون هذا المال أداة لوظيفة من الوظائف . يزاولها الفرد ، ويدين بأدائها للمجتمع . فمن قصر أو من لم



تساعده طبيعته وتكوينه الذاتي على التكافؤ مع مقتضيات هذه الوظيفة والقيام بأدائها كما ينبغي، كان على الدولة أن تتدخل لتحفظ حق المجتمع في ذلك .

وإذا كانت هذه النظرة تختلف مع النظام الديمقراطي ، قبل أن يخضع للنظريات الاشتراكية الأخيرة في إعطائه للفرد حريات واسعة مطلقة ، لمزاولة نشاطه الاقتصادي على الوجه الذي يروق له ، وإنفاقه للمال بالصورة التي تترامى أمامه فإنها كذلك تختلف معه فيما يسيطر عليه من روح استغلالية جشعة للغير ، ومن أنانية معرودة تحولت من الفردية إلى الجماعية !!

فنظرة الإسلام في شمولها ونضوجها تتسم بالعدالة المطلقة ، وبالروح العالمية ! . . . ولعل فيما رده الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز على عامله ما يعطينا صورة صادقة تترجم عما نذهب إليه ، فلقد سأله عامله على أحد الأمصار أن يقيد دخول الناس في الإسلام لتلافي ما أصاب الخزينة من تدهور في الإيراد نتيجة لقلّة دافعي الجزية فكان رده عليه : « إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جانياً !! » : ولكن ربما يتساءل أحد الناس فيقول : إذا كان الإسلام يختلف مع الديمقراطية في نكران روحها الاستغلالية للغير . فما باله قد أقر الجزية وشرعها حتى بين الأمم التي خضعت له في استسلام دون حرب أو مقاومة ؟ وجوابنا على ذلك أن الإسلام فرض على المسلمين الزكاة وهي نوع من الضريبة مخصصة لجهات محددة . ومعلوم أن هذه الزكاة فضلاً عن أنها واجبة الأداء للدولة لتصرف في جهاتها المقررة فإنها كذلك ركن من أركان العبادة ومظهر من مظاهر الشعائر الإسلامية . وعدالة الإسلام المطلقة التي



كفلت حرية العقيدة لم تشأ أن تجبر غير المسلمين على أن يزاولوا شعائرهم الدينية فكانت هذه الجزية التي توازي في مقدارها على وجه التقريب ضريبة الزكاة . وبما يدل دلالة قوية على صدق ما نذهب إليه أنه في عهد عمر بن الخطاب طلبت قبيلة بني نغاب أن تعفى من الجزية وأن تؤدى ضريبة الزكاة مثل المسلمين فكان لها ما أرادت !!

بقي بعد ذلك أن نلم بأوجه الاختلاف بين الإسلام وبين النظام الشيوعي كما تحقق حتى الآن في روسيا السوفيتية . وأول شيء نحب أن نقرره أن المثل الأساسية للمذهب الاشتراكي كما تخيلها « كارل ماركس » قد فشلت تحقيقها حتى الآن في روسيا السوفيتية ، فالتحرر من الروح القومية ، وعدم التعصب لها ، الذي هو أهم أساس في الفلسفة الشيوعية . لم يقف على قدميه بل لم يتنسم الهواء بعد ، فما زال الشعب الروسي يقدس وطنه ، ويتعصب له ولا يستشعر أى معنى من المساواة التامة مع غيره من الشعوب حتى مع من يدينون معه بالمذهب الشيوعي . ثم إن القضاء على الملكية الخاصة وعدم الحاجة إلى المال أو النقد التي تنادى بها النظرية الشيوعية لم يقدر لها هي الأخرى الصمود طويلا لمنافاتها لطبيعة البشر وحياة الإنسان الفردية أو الجماعية . ومن المثل الخالصة التي قررها « كارل ماركس » في فلسفته الاشتراكية فيما يختص بحياة الفرد وطبيعته الذاتية . ومكانته في الدولة التي يعيش فيها « أن يعمل كل بقدر طاقته وأن يعطى كل بقدر حاجته ، ولكن هذه المثل لم يتحقق منها في النظام الشيوعي في روسيا السوفيتية إلا الشرط الأول وهو : « أن يعمل كل بقدر طاقته ، ولكن أن يعطى « كل بقدر عمله فقط » .



وهكذا عند ما تتابع التطور الذي لازم المذهب الشيوعي عند  
مواجهته لواقع الحياة ، وللطبيعة البشرية نجسده في نظرياته الحاملة . وفي  
فلسفته الماركسية لم يصمد طويلاً أمام واقع الحياة . ومقتضيات  
الطبيعة البشرية .

وإذا كان الوضع الاقتصادي للنظام الشيوعي قد اتفق بعض الشيء  
مع ما قرره الإسلام من القضاء على عوامل الاحتكار . ومن تحريم  
التعامل الربوي ثم من إخضاع كل موارد الدولة لمطالب الحياة الجماعية  
إلا أننا نراه يختلف معه في الوسائل التي تؤدي إلى ذلك ، فالشيوعية  
تتدخل تدخلاً كاملاً في شئون الفرد حتى تشمل حريته . وتكاد تلغى  
شخصيته كلها لتندوبها في المجتمع ، أما الإسلام فيؤمن بالإنسان وبجدوى  
نشاطه الفردي . فيقدس حريته الفردية ، ويحيطها بسياسات من المنفعة ،  
ولا يتدخل إلا في حالتين فقط : الحالة الأولى ، عندما لا يتكافأ تكوين  
الإنسان النفسى والعقلى ، وما وضع في يديه من مال لاستثماره فيما يعود  
على المجتمع بالفائدة والخير ، فيكون من حق الدولة حينئذ أن تتدخل  
لتمنع ضياع هذا المال الذي يرجع في ملكيته الأصلية للمجتمع ثم  
للحيلولة دون استخدامه في نواحي الفساد ، والعبث ، وإثارة الغرائز  
المنحطة بما يحدث أبلغ الضرر بحقوق المواطنين . أو عندما تتجمع لدى  
الفرد كل عوامل التضخم فيطغى على غيره . ويكاد يحتكر شيئاً مما يلزم  
المجتمع ، حينئذ يوجب الإسلام تدخل الدولة لحفظ التوازن بين حرية  
الفرد ، ومصالحه المجموع ، فيأخذ من الأول كل فضلاته ليعطيها للثاني  
كما ترى ذلك لعمر بن الخطاب عندما قال في آخر خلافته «لو استقبلت  
من أبيي ما استدرت لأخذت فضول الأغنياء فوزعتها على الفقراء ،



أما في الحالة الثانية فعندما يعجز الفرد عن أن يؤدي عملا من الأعمال يتعیش به ، وذلك لمرض ميثوس من شفائه منه ، أو شيخوخة تقعد به عن مزاوله أى وجه من أوجه النشاط ، فيكون من حقه أن يشرك الدولة في مسؤولياته الحياتية فتقدم له ما يفي بحاجياته ، ويحيا به حياة كريمة ، ونظرة الإسلام إلى ذلك لا تقف كما قلنا عند المسلمين فقط وإنما تتسع فتشمل غيرهم ممن يعيشون تحت راية الإسلام ، ولقد مر عمر بن الخطاب وهو في طريقه إلى الشام يقوم مجذومين من النصراري فامر بأن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت من بيت المال !! وعندما رأى شيخاً ضريراً يسأل الناس وكان يهوديا قال له : ما ألجأك إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسنن ، فأخذ عمر بيده وأعطاه ما يكفيه ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول له : « انظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ، ثم نخزه عند الهرم . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب . »

هذا هو الإسلام بسطناه لك فيما رسمه للعالم من قوانين خلقية ، واجتماعية ، واقتصادية تتأثر كلها بإحكامات وبواعث وأمره التعسدية ، وطبيعته العقيدية . وقد حرصنا على أن نسللك في ذلك سبيل البحث العلمى الخالص ونحب قبل أن نضع القلم أن نوضح هذا الأمر الذى يشغل أذهان كثير من المسلمين وهو الدعوة إلى ضرورة تحكيم التشريع الإسلامى فى حياة المسلمين السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية بالصورة التى كان عليها فى صدر الإسلام الأول . إننا لانحب أن نخدع أنفسنا فنتمسك بالقشور عن اللباب فإذا كنا حقيقة نحرص على بلوغ مارسمه الإسلام للعالم من غايات فالسبيل إلى ذلك ألا نتغاضى عما فى



هذه النظم التي تسيطر على حياة العالم اليوم من أساس العدالة المطلقة ،  
ومن نظام في الحكم والسياسية ، والاجتماع لا يبتعد كثيراً عما شرعه  
الإسلام للعالم منذ أربعة عشر قرناً ، وإن كان قد تم كما قلنا بشن باهظ  
من الدماء والدموع ، والثورات الفكرية المضنية . قدمته البشرية عن  
رضى خلال تطورها التاريخي . وإنما يجب فقط أن نطعم هذه النظم  
بمثل الإسلام العالية ، وأن تسكيفها وتسيطر عليها روحه الواعية  
وايست العبرة في كل نظام من النظم بالتمسك بوسائله ، وإنما في  
تحقيق أهدافه .

إن الإسلام يملك من اتساع الأفق ، ومن المرونة ومجاهة الواقع ،  
ومن الوعي الصحيح الكامل بطبائع البشر ، وطالهم الحياتية ، ما لم  
يتوفر لأي دعوة أخرى سماوية ، أو وضعية ، ولذلك نجده في بيئته الأولى  
العربية أبقى على عادات وصفات خيرة مما كان يتخلق به العرب في  
حياتهم الجاهلية .

فلا بأس إذاً من أن نحتضن ما في هذه النظم والمذاهب الحديثة من  
مبادئ ونظريات في السياسة والاجتماع والاقتصاد تتفق في غاياتها مع  
روح التشريع الإسلامي فضلاً عن أنها وجدت تحت ضغط عوادل  
ومشكلات معقدة لم تواجه المجتمع الإسلامي الأول . . . ومن يصدق  
النظر قليلاً يرى أن طبيعة عصر النبي وظروفه كانت تختلف عن عصر  
أبي بكر ، وأن عصر عمر كان يختلف في ظروفه ، وما طرأ عليه من  
مشكلات طارئة عن كليهما ، ولم يقف أي خليفة من الخلفتين جامداً .  
وإنما اجتهد رأيه وعالج هذه المشكلات بما تقتضيه من علاج يتباين  
ويختلف باختلاف الظروف والأشياء .



ثم إن التقدم العلمي ، ونضوج المعرفة البشرية ساهم فيها الإسلام مساهمة فعالة قوية بازدهار حضارته في الأندلس بينما كان العالم كله يعيش في جو مظلم دامس لا يعرف للمعرفة ولا للنور طريقاً غير منارة الإسلام الشامخة في قوة واعتدال ، ويكفي الإسلام فخراً ومساهمة في خدمة الحضارة البشرية أنه حافظ على التراث الانساني من الضياع من غارات التتار التي كانت تمثل الهمجية والوحشية ، كأقصى ما عرف في التاريخ البشرى !.. فمن يريد أن يقصر بواعث نضوج المعرفة الانسانية سواء في العلوم المجردة والعلوم التجريبية أو فيما اصطنع من نظريات ومذاهب تنظم حياة البشر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً . نقول إن من يريد أن يقصر هذه البواعث على العالم الغربي وحده كأنها خصائص ذاتية له ! . إما مغرض ، أو ضيق الأفق ، جاهل كل الجهل بطبيعة التطور البشرى . ثم إن القلق والاضطراب الذي ينتاب العالم اليوم ليس مرجعه إلى تقدم الصناعة والعلم ، وتنوع وسائل المعرفة ، كإذهب إلى ذلك كثير من الباحثين ، وإنما يرجع إلى سوء التربية الخلقية والنفسية ، وإلى عدم التخلص من الأناية القاتلة ، حتى إن زعماء الغرب وقادته يطلعون إلى العالم في ظروف حرجة كقيام حرب مدمرة ، بمبادئ مثالية تقوم على التحرر من الخوف والجوع ، وعلى سياسة المساواة التامة ، وضمان حرية الإنسان ، ثم لما تمضى تلك الظروف زاهم يتسكرون لما نادوا به ويتخلصون من ذلك بأن هذه مثاليات لا تنفق وطبيعة البشر ! .. ومن هنا نجد أن الاسلام هو وحده الذي يملك أن يجعل هذه المثاليات -حقائق واقعة ، لأنه يشجعه بدعوته ، وبتربيته إلى داخل النفس وخارجها على السواء ، فيقضى على كل موجبات الأناية فردية كانت أم جماعية ، التي هي شر ما ابتليت به الانسانية قديماً وحديثاً .



إن الإسلام باعتباره أول دعوة عالمية يتوفر له من انساع أفقه كل  
العوامل الفعالة التي تجعل التعاون العالمي، والانسجام البشري حقيقة واقعة  
فكل الغاية التي ينشدها في روحه التشريعية هي النوض بالجنس الانساني  
والنسامى بغرائزه البشرية حتى إننا لا نبعد عن الحقيقة لو قلنا إن كل  
مادعا إليه من أمور تعبدية ما هو في الواقع وحقيقة الأمر إلا صمام  
الأمن والسلام لحياة الإنسان نفسياً ومعيشياً .

و بعد : فإننا نرجو أن نكون قد ساهمنا في تكوين وعى إسلامي  
صحيح بما بسطناه هنا من ظروف تطور الاسلام التاريخي، وكل الذي  
نشده أن تكون هذه التجارب القاسية التي يطفح بها تاريخنا الإسلامي  
كافية لأن تجنب المسلمين الخطأ والاضطراب فيما يسعون إليه من بناء  
جبهة موحدة، وترجم عما يفعل في نفوسهم من عوامل الوعي واليقظة،  
وتفرض شخصيتهم الدولية، وتأثيرهم الفعال في مجريات أمور البشر  
حتى يعترف العالم للإسلام آخر الأمر بمكان القيادة فيما يسعى إليه من  
حياة أفضل ؟

#### الطبعة الأولى

( القاهرة في ٢٥ رجب سنة ١٣٧١ هـ — ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٢ م )



# فهرست الكتاب

الصفحة

الموضوع

المقدمة ..... ١ - ١٢

الغاية التي تنشدها من وضع هذا الكتاب — موقفنا من  
ذوى النزعات الاحادية ومن ذوى السلطات الأوتوقراطية —  
عقلية رجال الدين المحترفين — إن الانسانية مقبلة على  
عصر جديد سيسود فيه الدين — لن تستعير الانسانية  
في احتضانها للدين من جديد صورة مما كان عليه في  
عصور الظلمة والجمود — القوتان اللتان تتنازعا في العالم  
الاسلامى اليوم — حالة العالم الغربى — هل يتأتى  
للإسلام أن يمسك بيديه قيادة العالم من جديد

العقيدة في الإسلام ..... ١٣ - ٥١

تطور الديانات — رأى مضاد لما ذهب إليه علماء  
مقابلة الأديان — ماهى العوامل الحقيقية التي صبغت  
الدين بصيغة الجمود خلال تطوره التاريخى — هل لابد  
لبشرية من عقيدة دينية — ما طبيعة الثورات الفكرية  
التي أسفرت عن عداتها للدين — يجب أن ننظر إلى  
الدين في مجموعه على أنه يكمل بعضه بعضا — رأى للباحت  
«جان مارى جويو» يذهب فيه إلى أن اللادين سيسود عالم  
الغد — ردنا على جويو وتشريح آرائه — ماهى عقيدة  
الاسلام — رأى للفيلسوف الانجليزى «الدوس  
هكسلى» — تقريرنا بغير ماذهب إليه — مقارنة  
بين العقيدة في الاسلام والعقيدة في اليهودية والمسيحية  
رأى للمستشرق «جولد تسهر» في تطور العقيدة في الاسلام  
وردنا عليه .



المراحل التي اجتازها الإسلام ... .. ٥٢ - ١١٤

كيف تكونت مقومات الاسلام كدين ودولة —  
التطور الذي صاحبه حتى أخذ شكله النهائي — حالة  
الجزيرة العربية قبل الاسلام — حالة العالم خلال القرن  
السادس والسابع الميلادى — القانون الرومانى —  
تطوره التاريخى — تلونه بالتعاليم الكهنسية —  
الانحلال الاجتماعى والتأخر الدينى الذى كان يسود العالم  
وقت ظهور الاسلام — صور من الواقع التاريخى  
للإسلام فى صدره الأول حتى عود الخليفة الثالث —  
مبدأ انحراف المسلمين — كيف وضعت العراقيل أمام  
سير الاسلام فى مجراه الطبيعى — تأريخ دقيق لعصر  
عثمان بن عفان — سيطرة الموالى على الحركة الفكرية  
فى المجتمع الاسلامى — هل كان ذلك خيراً أم شراً —  
الاسرائيليات فى الاسلام — دراسة تفصيلية لتطور  
المسلمين التاريخى فى عهد الأمويين والعباسيين والفاطميين  
حتى عصر تأخرهم وانحلالهم .

الفرق فى الإسلام ... .. ١١٥ - ١٨٥

طبيعة الدين الاسلامى كدعوة عالمية — هل كان إيجاد  
الفرق المتعددة وعلم الكلام فى الاسلام ظاهرة طبيعية  
له — ما هى العوامل الحقيقية التى ساعدت على قيام  
هذه الفرق — عرض لما ذهب إليه كثير من المؤرخين  
وردنا عليهم — ما هى الغايات التى كان يهدف إليها  
زعماء تلك الفرق — ما هى المؤثرات التى كانت  
عقيدتهم — هل عقلية الاسلام التاريخى كانت تقضى  
بإيجاد هذه الفرق — الجوارح وكيف نشأوا — التطور  
الذى لازمهم — هل المؤثرات التى أثرت فيهم خارجية



أم ذاتية - رأى لبعض المستشرقين وردنا عليهم -  
التشيع وكيف ظهر إلى الوجود - تصوير لما ذهب إليه  
كثير من المؤرخين - تنفيذ آرائهم - رأى جديد في  
منشأ التشيع والعوامل التي ساعدت على نموه - ظهور  
دعوة المهدي وكيف تطورت - موقف الشيعة في عهد  
الأمويين والعباسيين - دراسة دقيقة للتطور الذي لازم  
التشيع حتى آخر عهد الفاطميين - هل ينصر التشيع  
الفلسفة ويؤمن بالحرية الفكرية - ما تفرع عن التشيع من  
فرق - الاثنا عشرية والأصول التي تكون عقيدتها -  
الزيدية وما تتسم به من سمات - مكاتها في التشيع -  
الفرقة الاسماعيلية وتنظيمها السري - الأغراض التي  
قامت لتحقيقها - التطور الذي لازموا - علم الكلام  
في الاسلام - المعتزلة وكيف نشأوا - موقفهم من  
السنين - هل يمثلون الحركة الفكرية في الاسلام -  
احتضان المأمون لهم - أفقوم الضيق وانتقامهم المروع  
من الفقهاء السنين .

مستقبل الاسلام والعالم ... .. ١٨٦ - ٢١٦

هل تربط المعرفة البشرية بتأثير الدين - ماهي الغاية  
من نزول الأديان - هل تتصادم روح الدين مع  
ما اصطنعه العالم الحديث من نظريات ومذاهب في السياسة  
والاجتماع والاقتصاد - ما هو الطابع الجماعي للنظم  
الدينية - تبديد الوهم الذي سيطر على كثير من  
المفكرين في أن الدين يقف في طريقهم - إن العلماء  
توهوا أن الدين هو صورة مما عليه رجال الدين -  
المذاهب المعاصرة التي تتنازع العالم اليوم -  
الديموقراطية في بيئتها الأولى - التطور التاريخي لها  
إن امثل العليا التي نادى بها كانت تفشل عند التحقيق -  
الشيوعية ونظرتها الاجتماعية والاقتصادية - البواعث



## الموضوع

التي أوجدتها — كيف فشل تحقيقها — موقف الاسلام  
من كلا المذاهب — هل يتفق معوما في بعض أهدافهما  
عوامل الحيرة والاضطراب التي تنتاب عالمنا اليوم —  
هل في استطاعة الاسلام أن يعالج قضايا العالم —  
ما يسمى إليه البشر من عالم أفضل — موقف المسلمين  
وسط هذه الحرب الباردة بين المعسكرين — كيف تتم  
لهم شخصيتهم الدولية — عوامل الوعي والنضوج التي  
تهبهم لتكوين جبهة موحدة — هل يقبىء العالم إلى  
رشدته ويعطي قيادته للاسلام فيحقق له ما يرجوه من  
حياة أفضل .

back

### استدراك

في صفحة ٢٠١ سطر ٩ : « كانت لا تبيح أن يترك »  
وصحتها : « كانت لا تبيح للاجبر أن يترك »

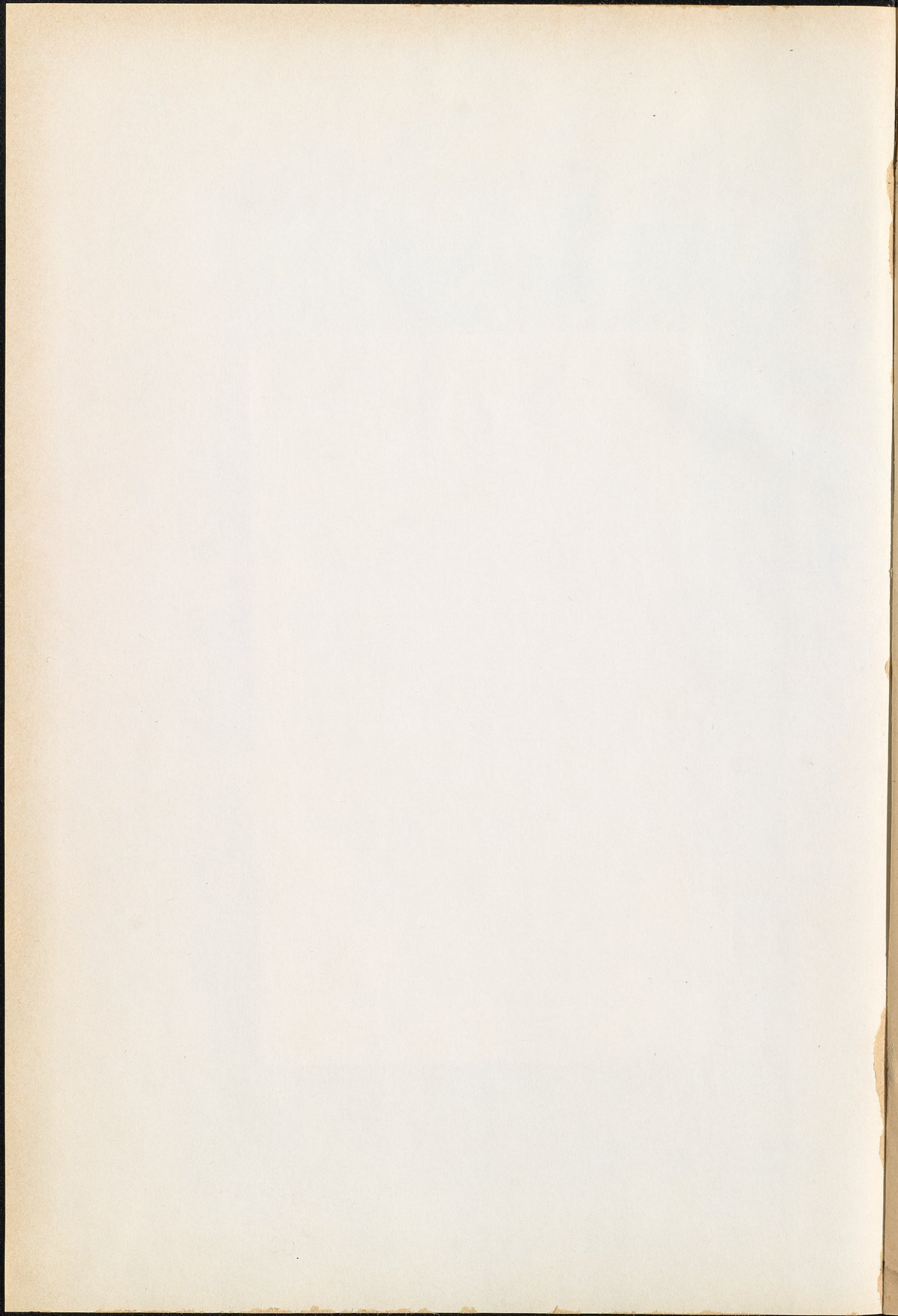
### كتب ظهرت للدولف :

- |    |                                 |
|----|---------------------------------|
| ٢٥ | (١) هذا هو الإسلام              |
| ١٥ | (٢) أيام أو فلسفة الحياة        |
| ٢٠ | (٣) محاكمة الزمن أو طه حسين     |
| ٦  | (٤) مع عقلاء الإنس ومجانين الجن |
| ١٠ | (٥) هل أفلس حضارة أوربا ؟       |
| ١٠ | (٦) لا أو من بالعقل             |
| ١٥ | (٧) البعث أو مذهب السلام        |

5575

\*PB-35271-SP  
5-08T  
CC

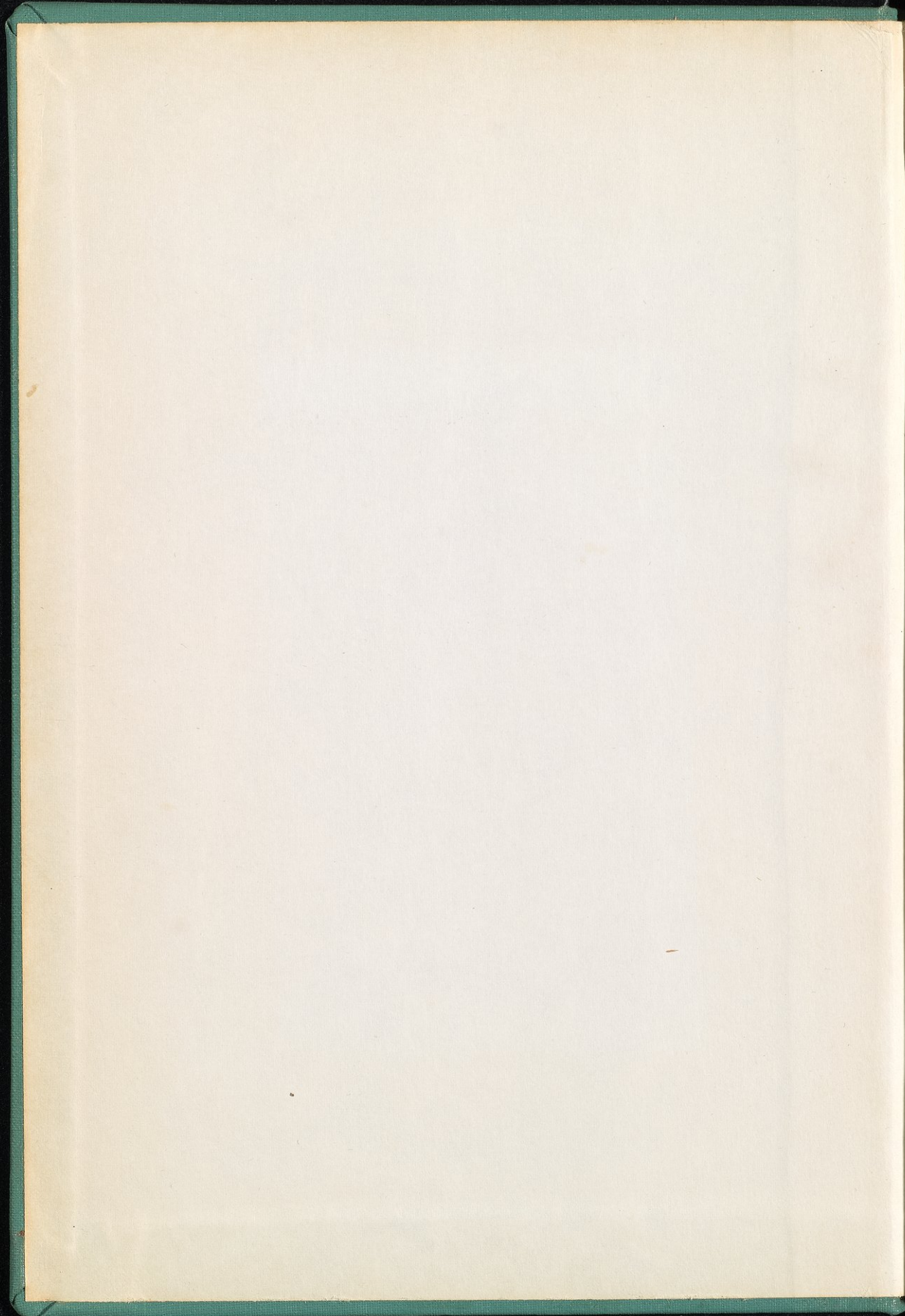














NYU - BOBST



31142 02771 3869

**BP50 .A54**

Mustaqbal al-Islam